المجلس الأعلى للثقافة

المشروع القومى للترجمة

إسماعيل فصيح

ثريا فى غيبوبة

ترجمة وتقديم: د. محمد علاء الدين منصور

مراجعة وتصدير: أ. د. إبراهيم الدسوقى شتا



١٩٩٩



تصديـر

أقدم للقارئ العربي هذه الرواية العظيمة « ثريا في غيبوبة » أثرى بها المكتبة العربية تلميذى وزميلى وصديقى الدكتور علاء منصور، مترجمة عن الفارسية ترجمة دقيقة مشرقة ليضيف إلى معلوماتنا عن الأدب الفارسى العريق معرفة بالأدب الفارسى المعاصر تعانى المكتبة العربية بعض النقص فيها

ومؤلف الرواية التى بين أيدينا لم يكن مشهورا الشهرة الكافية قبل روايتـه هذه وربما كان الإبداع بعض نشاطه الهامشى إلى جوار عمله الأصلى كأستاذ فى جامعه النفط بعبدان لكنه سرعان ما لمع فى سماء الأدب الفارسى إثر إصداره لهذه الرواية سنة ١٣٦٢ هـ . ش . (١٩٨٤) التى طبعت ثلاث طبعات فى خلال عامين كما تمت ترجمتها إلى اللغة الإنجليزية فى أواخر الثمانينات . وتدور الرواية التى بين أيدينا حول

محورين : إيران الثورة الإسلامية وما تعانيه من مشكلات فى الداخل وهجوم وحشى من الخارج وإيران المنفيين من الكتاب والشعراء والفنانين فى باريس وانفصامهم وضياعهم بعد انهيار العالم الذي مثلوه طويلا وعبروا عنه وصبيانيتهم فى علاقاتهم الشخصية وحياتهم الفارغة أو انتماءاتهم الأجنبية وانفصالهم الفكري والوجداني عن أمتهم مما نحس خلاله بتعاطف المؤلف مع بعض الشخصيات والتماس الأعذار لهم فيما تعانيه من ضياع وتحلل وتلاش وذوبان وانصهار فى ثقافة غربية وحياة غريبة .. كل هذا في أسلوب فنى راق وتعامل مع آليات الرواية لا شك أن الكاتب اكتسب مهارات من خلال تعليمه في الولايات المتحدة وترجمته لبعض الأعمال الأوربية . وقد استحوذت على الرواية عندما قرأتها لأول مرة سنة ١٩٨٦ وقرأتها أكثر من مرة وشدنى إليها ذلك الشجن المبثوث بين طياتها وذلك الحب الجارف من المؤلف لموطنه و ثقافة موطنه والبسطاء من مواطنيه كما أحسست من خلالها بصيحة تحذير من بعض الممارسات داخل إيران نفسها وبخاصة تلك التى تفرض التغيير على حساب الإنسان ... ولعل تلك النبرة قد تصاعدت فى روايته التى أصدرها أخيرا – ولم تصلنى بعد – و التى تسمى (خطاب إلى العالم) ويتناول فيها البحث المضنى لأم أمريكية كانت متزوجة من إيرانى وغادرت إيران بعد الثورة ، ثم عادت إليها فى معمعة الحرب العراقية الإيرانية للبحث عن ولدها التى كانت قد تركته مع أسرة والده الذى فقد حياته فى أحداث الثورة .. والكاتب لا يزال يعيش داخل إيران متفرغا

للكتابة بعد استقالته من الجامعة وأعماله ورواياته ترصد بدقة شديدة عملية التغيير المستمرة فى بنيات الشعب الإيرانى المختلفة .

وبعد فما عهدت فى من يصدر كتاباً أن يطيل .. والمقدمات الطويلة لا تليق بعمل أدبى يتميز بالرقى .. ومن ثم أترك القارئ مع الرواية آملا ألا أندم فيما بعد على اقتراحى على صديقى وزميلى الدكتور علاء بترجمتها ..

والله الموفق وهو من وراء القصد .

دكتور إبراهيم الدسوقى شتا
أستاذ اللغات الشرقية - كلية آداب القاهرة .



مقدمة المترجم

سبق لإسماعيل فصيح ، الروائى الإيرانى المعاصر نشره رواية اجتماعية بعنوان (دل كور) أو القلب الأعمى فى (٤٠٩) صفحة عام (١٣٥٢ هـ . ش / ١٣٩٢ هـ . ق) أى قبل نشره روايته مدار البحث (ثريا فى غيبوبة) بعشر سنوات وقيام الثورة الإسلامية والحرب العراقية الإيرانية بنحو خمس سنوات . وتدور الرواية الأولى حول أسرة إيرانية من الطبقة المتوسطة ربها تاجر ثرى ورث عنه أولاده الأربعة مع أمواله وعقاراته سجاياه الشريرة والطيبة وسردت فى أحداث غزيزة ووقائع معقدة تقربها إلى الرواية الواقعية الغربية فى القرن التاسع عشر . أما روايته (ثريا فى غيبوبة) فهى تصور أحوال إيران الاجتماعية والسياسية والثقافية بعد قيام الثورة الإسلامية (١٣٥٧ ش / ١٩٧٩) بأقل من عامين وإبان الأسابيع الأولى للحرب الخليجية الأولى . ورغم ذيوع هذه الرواية وتكرار طبعاتها بعد الثورة إلا أنها لم تكن العمل الأدبى الأول والوحيد الذى صور حالة الاضطراب والبلبلة والضياع التى كانت تعم الشارع والبيت والمجتمع الإيرانى فى

صيف عام ١٩٧٩ أى بعد شهور قليلة من استقرار السلطة فى يد الثوار وإعلان الجمهورية الإسلامية فقد تبلـــور ذلك فى القصـــة القصيرة (بزرگ بانوى روح من) أو (مليكة روحى العظيمة) للكاتبة (كلى ترقى). وتشترك الكاتبة مع صاحبنا إسماعيل فصيح، فى روايته (ثريا فى غيبوبة) التى تدور أحداثها فى نهايات عام (١٩٨٠) فى سمات – لعله هو الذى أفاد وتأثر بها لسبقها وسبق ظهور قصتها – منها وحدة الموضوع والجو النفسى القائم على الحزن والقتامة والضياع ، وصياغة الأحداث فى زمن المضارع ليضفى سمة الحالية والحيوية والتواتر السريع ، وتداخل السرد الوصفى بالحوار عند (ترقى) أو تداخل المشاهد المسرودة فى فرنسا بمشاهد الحرب الدامية التى سبقت بأسابيع قليلة فى إيران ، وتداخل حوار هذه المشاهد جميعها عند (فصيح) .

تدور أحداث رواية (ثريا فى غيبوبة) فى أماكن وأزمنة عدة بإيران ثم باريس مرورا بأرضروم واستانبول بتركيا . لكن الراوى (جلال آريان) فى خلطه المشاهد التى عاشها فى إيران إبان الشهور الأولى للثورة وأيام الحرب مع العراق بمشاهد رحلته يخلط الأماكن والأمان متعمدا ، فما أن ينزل بالقارئ فى فندق صغير باستانبول حتى يعود به مباشرة إلي مستشفى عبدان الذى وقع تحت قصف الصواريخ والطائرات العراقية ويشعر بحيرة القارئ

---

(١) محمد على سبانلو : نويسند كَان پيشرو إيران ازمشروطيت تا ١٣٥٠ چاپ سوم (تهران ١٣٦٩ ش) ص ١٨٣ – ١٨٨

(٢) القصة القصيرة والحكاية فى الأدب الفـــارسى ، دراسة ونمـــاذج . د . عبد الوهاب علوب (مصر ١٩٩٣) ص ٤١ – ٤٢

ويخشى انقسام الوحدة المكانية والزمانية فيذكر ليلة مبيته (ليلة الجمعة ٢٨ نوفمبر ١٩٨٠ م) بالفندق الواقع بشارع مصطفى كمال باستانبول ولكى نفهم أن بداية حركته وروايته من طهران باستقلاله أتوبيس سياحة فى سفر الأيام الثلاثة المضنية هو الثلاثاء (٢٥ نوفمبر). وحين يتعمد المؤلف خلط المشاهد والأماكن والأزمان يقف بالقارئ على ما يريده وهو إشعاره بالضياع والألم وجعله يقارن أحوال إيران المتفجرة المقاسية بأحوال العالم خارجها الذى يسوده والأمن والرفاهية دونما تصريح مباشر ، حتى لا يثير عليه المتشددين من الثوار والعامة .

لذلك اصطنع الرمزية فى خلق شخصيات روايته وأبطالها على وجه الخصوص ، فكل منهم تقريبا يمثل اتجاها أو ناحية من اتجاهات إيران المتناقضة . والمعروف أن إيران من هذه البلاد التي تتسم دائما بالتناقض والاختلاط فى كل شئ فيها. .فسكانها أو شاب من عناصر شتى عربية وفارسية وكردية وأرمنية وبلوچية وتركية وخزرية .. وأهلها متوزعون على مذاهب دينية شتى من تشيع وسنة وبابية وبهائية ومن يهودية ومسيحية . والخاصة ، منهم المغالى فى قوميته والمتسامح ومن هو بأقصي اليمين ومن هو بأقصى اليسار ومن يعشق اللذاذة ويفرط فى المجون ومن يتطرف فى الزهادة ويفرط فى حب الشهادة ، ومنهم من يموت صبابة فى (الحسناء) ومنهم من يموت شهادة فى (الحسين) وقل من توسط واعتدل . ورام المؤلف أن يرمز لكل أولئك بصورة خاصة أو بطل خاص لإيران العامّة ، فجعل أبطال روايته الأساسيين ثلاثة مثلوا فى الأغلب الجانب الإيجابى أو الصورة المنيرة لها وأعلى مكانتهم على من جافاهم من شخصيات ثانوية مثلت فى الأغلب الجانب السلبى أو الصورة المظلمة لإيران .

أما (رموز) إيران الثلاثة فهى :

١ - إيران (الأم) ورمز إليها (بفرنجيس) أخت الراوى (جلال آريان) التى حثته إلى السفر إلى باريس لاصطحاب ابنتها التى أصيبت فى حادث غير متوقع بها وأغمى عليها .

٢ - إيران (الحضارة) ورمز إليها بشخصية (ليلى آزاده) التى قابلها الراوى وأحبها ومالت إليه وتمثل الانطلاق والشباب والجمال والفن والشعر وتشير كل صفة منها إلى مناحى إيران بلاد الزهور والبلابل ، وضاق بها الحال على أرضها فالتمست الحياة فى باريس رمز الحضارة الحديثة .

٣ - إيران (الثورة الإسلامية) ورمز إليها بابنة أخت الراوى والأم وسماها (ثريا نقوى) وأسبغ عليها صفات النقاء والطهر والفداء والرواء وأخضع لها أعناق العقلاء المعجبين من الغربيين والشرقيين ثم أوقعها بعد حادث أليم فى غيبوبة لا تفيق منها حتى أوشكت على الموت .

- أما إيران (الأم) التى ولدت الثورة الإسلامية فهى الأرض والمكان وهى الزمان المتصل الماضى والحاضر والمستقبل . هى إيران الأرض الطيبة التى ما فتأت يجرى عليها مر الحدثان وغير الزمان فلا تتغير وتريم . اسمها (فرنجيس) ولعل هذا العلم أصله بالكاف الفارسية بدلا من الجيم وهو اسم ابنة آفراسياب وزوجة سياوش وأم كيخسرو وهم من أكاسرة إيران القديمة حسب الشاهنامة . ولعله ، كما نميل تحريف لاسم كوكب المشترى (برجيس) الذى تداوله الشعر العباسى .

ويرشح هذه النسبة إيثار المؤلف تسمية إيران الثورة بالثريا . والعلمان

فارسيان قديمان يدلان على القدم والعراقة والأمومة من ناحية والعلو والخلود والعظم من ناحية أخرى . ويضيف المؤلف إليها صفات الأم الرؤوم الصابرة على المرض الذى أقعدها والمتحملة فرقة أبنائها ، مقاومة لمكاره الأيام ومصائب الحرب مضحية بكل شئ لأبنائها ، مؤثرة كريمة تستضيف المعوزين والمحتاجين ، محافظة على التقاليد القديمة فتعمد إلى مواساة المصابين وتحضر مجالس العزاء وتشارك فى مجالس قراءة الروضة وتراعى الأصول والعادت الموروثة التى تؤلف بين القلوب .

أما أبناء هذه الأم الذين آثروا البقاء على أرضهم الطيبة وهم يصطلون بنار الحرب وشظف العيش وتنكر الناس وانقلاب الزمان فهم على أعراقهم المختلفة بلغ حبهم لأرضهم فيهم ما لم يبلغه حبهم للبقاء . منهم أسرة أرمنية لم تفكر فى الهجرة تحت قصف المدافع والطائرات العراقية وظلت صامدة حتى أنهت حياتها إغارة جوية . أما عرب عبدان التى صاوت جحيما للهجوم الجوى والبرى فمنهم من لم يجد فيهم نصح الناصحين بضرورة التولى إلى مكان أكثر أمنا وبعدا عن الموت وفضلوا الموت والشهادة عن ترك ديارهم . ويمثل هولاء (مطرود) و أخوه وابنه (إدريس) الذين ورد ذكرهم مرار . أما بقية سكان إيران وأبنائها فلم يقلوا عن هؤلاء العرب تضحية وإيثارا . والتقط المؤلف صورا لهم بثها فى روايته لاتقل عن صور التعزية ومشاهدها التى يبالغ الإيرانيون فى عرضها كل محرم ويعمدون إلى إضفاء كل دواعى الإبكاء والإيلام حتى تشهق الصدور وتنهمر الدموع وتشق الجيوب وتلطم الخدود . جو (التعزية) المؤلم سيطر على الرواية فى صورة سرد مشاهد الحرب الفظيعة والمآسى والفجائع التى

ذاقها أبناء إيران فى الحرب التى اضطروا إلى دخولها دون تأهب . متطوع غض الإهاب يقتل خطأ ثلاثة من إخوان الجهاد منهم أخوه الذى يحبه حبا جمّاً ظنا منه أنهم متسللون عراقيون . عامل بمصانع التكرير بعبدان يقصف منزله فتقتل أمه وزوجته وأولاده الخمسة ويصاب فيؤتى بالجميع إلى المستشفى ويرى وهو يمسك (بكارتونة) وجدها أثناء القصف والضرب وهو فى ذهوله ولا يدرى صاحبها ويريد أن يسلمها للممرض وهو لا يعرف أن بداخلها ذراعا مفصولا من كتف أحد أولاده القتلى .المجاهدون الذين يقتاتون بالفتات داخل منازلهم بعبدان يصارعون هجوم الهوام فيها وهجوم الطيران خارجها . الأم بطهران التى استشهد زوجها وابنها الأكبر واضطرت إلى العمل لتعول أولادها وتدعو الله لابنها الآخر بالشهادة وسجلت بناتها أسماءهن لمن يرغب الزواج بهن من معوقى الحرب ابتغاء للثواب إذا لم يكن بإمكانهن الجهاد . من جنفت الثورة عليهم وكانوا موظفين وخبراء أكفاء ففصلتهم عن وظائفهم فلم يحبوا ترك بلادهم وفضلوا البقاء والعمل فى أعمال متواضعة وبأجور زهيدة . حتى الحيوانات كانت راضية تحت سماء ملبدة بالطائرات والدخان وعلى أرض تهتز وتقصف وتميد .

أما الصورة السلبية الأخرى للأبناء بالداخل فمن مشاهدها آكلو الجيف فى عبدان أو نمور الحرب وهم الذين كانوا يغيرون على المساكن التى تركها أربابها مؤقتا وكانوا لا يحجمون عن سرقة أجهزة التكييف وما ثقل وزنه منها ، وأولئك الذين لم تستطع الحرب والظرف القاسى أن تلين قساوتهم فكانوا يسرقون المرضى والقتلى والشهداء فى المستشفيات ولا يعدهم المؤلف يفضلون القوات الباغية العراقية أو الفئران المتطفلة .

— وإيران الحضارة والثقافة بنت إيران الأم الوطن والأرض والتى سماها

المؤلف تسمية عربية وفارسية للتدليل على شقى هذه الحضـاره ومكوناتهـا الأصلية – الثقافة العربية والإسلامية والثقافة الفارسية – (ليلى آزاده) . لفظ ليلى له رنين عربى وشعرى وإسلامى . و (آزاده) صفة الانطلاق والتوثب والطموح والتحرر . هى إيران الشعر والفن والآداب عامة والفنون التى جدت كالقصة والرواية والمسرح والسينما . أبناؤها من الفنانين والكتاب الملتزمين المحبين لها بالداخل من كانوا يجتمعون كـل يوم مع (ليلى آزاده) على مقهى شارع (قوام السلطنة) . كـانوا يستلهمون ما يبدعونه من جمال إيران الطبيعى والإنسانى مدركين روافد الثقافة والفن والشعر ، ملتزمين صادقين حين يضفى المؤلف عليهم المحامد فى أعمالهم ، خاصة القصة الحديثة بعد الثورة التى لم تستمر وحسب بل استكملت مقوماتها من ناحية الشكل والمضمون ، يعقد المقارنة بينهم وبين مجموعة الأدباء والمثقفين المهاجرين المجتمعين بمقهى (لاسانكسيون) بباريس الذين تجمعوا على حب (ليلى آزاده) أو خيل لهم هذا وأنهم عيون الحضارة الإيرانية بالخارج وكفلاء الأدب والفن الإيرانى فى أوربا . هذه الحضارة (المهاجرة) المثابرة التى تشكو الغربة لا عن أرضها بل الغربة عن نفسها وأقرب أقاربها ، المرموز لها (بليلى آزاده) ، المشتتة الحائرة بين الأصالة والتغريب الفريسة لنهب الناهبين وابتزاز المبتزين والعملاء والسماسرة الإيرانيين بالخارج الذين يتاجرون فى كل شئ لقت ضربات شتى من أبنائها المهاجرين :

– ضربوا صورة إيران الحضارية فى شرفها بالاعتداء على (ليلى آزاده) وطعنها .

– ضربوها فى جمالها المعنوى بالمزايدة والتحايل عليها والتجسس

لأعدائها عليها. ورمز المؤلف لهؤلاء المعتدين بالضابط الكبير وجماعة (السافاك) والعملاء الملتفين حولها والمهربين للأموال الإيرانية إلى الخارج ، وتمثيل الجهلاء والأميين بصورتها فى المغترب .

– ضربوها فى أصالتها بتمثُّل التغرب الظاهرى فى الحياة وألوان العيش والطعام والشراب واقتباس الشكل والإطار الخاويين دون المضمون واللب الشريين فى صورة (نادر بارسى) أو التظاهر بالأصالة وطعنها فى صورة (صفوى) الذى حطم الأصالة الوطنية إذ دعا إلى القومية العالمية فى حين أنه يستفيد من خزانه إيران آلاف الدولارات كمنح دراسية لأبنائه . وضرب الأصالة الدينية حين ادعى الإيمان وكان يحمل معه السجاجيد مع أنه لا يصلى لكى يبيعها بأغلى الأثمان بأسواق أوربا . وهاجم الأصالة القومية حين وصف امراته المحافظة على تقاليدها بالجمود وعدم مجاراة العصر وتقنيات التحضر الغربى .

– ضربوها فى انتمائها ووجودها بالعمل مع الجهات الأجنبية وأجهزة المخابرات المعادية كما فعل (حكمت) .

– ضربوها فى ثرائها وجمالها المادى فى صورة الطلاب الدارسين فى باريس المفلسين الممزقى الملابس والأقذار المناظر و الذين كانوا يتظاهرون ضد إيران بباريس .

– ضربوها فى نهضتها العلمية بهجرة علمائها فى العلوم التطبيقية والنظرية وترك جامعاتها خاوية كما هاجر الدكتور آزاده ، والمهندس كاظمى، وغيرهما .

– ضربوها فى بساطتها بالتطرف والمغالاة فى الفكر والمذهب ورمز

المؤلف لذلك بشخصية (كريم بور) .

أما إيران الثورة ، فقد أعلى المؤلف شرفها ومقامها وسماها ثريا نقوى وربط بينهما صراحة على لسان الطبيب المعالج بقوله إن ثريا المغمى عليها هى نفس حالة إيران وصورتها الحالية الشابة الفتية الحسناء النقية البتول . تغذت الثورة بالعناصر القومية المثقفة التى تلقت تعليمها بالخارج والتى ، كما يرمز المؤلف ، بدأت مع رجوع هذه الصفوة المتعلمة إلى إيران فى بداية هذا القرن ومحاولتهم النهوض بالبلاد إلى الحضارة والتنور . لم تقنطهم القبضة الحديدية للحكم البهلوى ، فتعاون الوطنيون ورجال الدين لسحق الإمبرالية وأذنابها المنتفعين فى البلاط الملكى ولفيفه فى إيران . نجحت الثورة بقيادة رجال الدين وكانت لا تزال توطد أقدامها حين ابتليت بمكائد أعدائها فى الخارج والداخل وحركوا ضدها جارها فى الغرب فصب ويلاته عليها فترنحت فى البداية تحت ضرباته . ثريا الثورة كانت تتشبث بالحياة فى بداية غيبوبتها لكن المصيبة كانت من الفداحة بحيث أبقتها فى حالة بين الموت والحياة . أتباعها وأحباؤها الأوفياء يحاولون إنقاذها بكل مالديهم من مال وعلم وجهد ويصلّون من أجلها عساها تعود إلى الوعى والقوة والحياة والبهاء . تراها سوف تنهض من عثرتها وتطرد شبح الموت عنها ؟ ويرمز المؤلف إليهم (بقاسم يزدانى) وأعضاء البعثة القنصلية الإيرانية المخلصين بباريس .

ويقابل هذه الصورة الإيجابية للثورة صورة سلبية فى داخل إيران حين عمد حرس الثورة إلى اتهام الأبرياء وحبسهم والإفراج عنهم دون محاكمة وطرد الأكفاء والعقليات وتحدى غير المسلمين وغير ذلك .

وكما اصطنع المؤلف تكنيك تداخل المشاهد والأماكن والأزمنة

اصطنع تكنيكاً آخـر داخل هذا التـداخل وهو لزوم المقـارنة بين أحـوال الإيرانيين الفـارين من إيران والثورة والحرب ، الذين هربوا بأموالهـا أو هربوها وعاشوا عيش القصف والبذخ والمجون وأحوال إخوانهم المصابرين المعانين المُعَنَّينَ داخل متاريس القتال أو صفوف الوقود والمؤون لكى يظهر مبلغ التناقض لا فى الكماليات كالعلم والثقافة والحضارة بل فى ضرورات العيش وأقل القليل للحياة .

ويلحظ القارئ دقة المؤلف فى وصف شخصياته وصدقة فيه ، الوصف الذى يجعلها حية تمشى وتتنفس أمام القارئ ولا يظن أنها محض خيال والوصف الذى يلطفه بالفكاهة والسخرية وخفة الظل ، وبحيث يجسم ملامح الشخصية البدنية والعقلية . ولايسأم من استقصاء الوصف وبلوغ نهايته حتى أنه لا يترك دقائق الصورة الثانوية التى تبعد عن صورة الشخصية الموصوفة الأساسية لكنها تدخل فى إطارها العام . ويشفع هذا الاستقصاء الوصفى بالاستقصاء السردى للواقعة خاصة إذا كان من يسرد امرأة . مثال ذلك وصفه الدقيق لجسد التيمسار الضخم والسمسار النحيف الجاهل وطريقة كلامه ونظرته إلى بوابة التيمسار أو وصف زجاجات الشمبانيا فى سطليهما أو الوصف الدقيق للدكتور آزاده ولشخصيتى الزوجين الفرنسيين وطريقة حياتهما بما يبرهن على فهم المؤلف التام لطبائع النفس البشرية وأمراضها الخفية والظاهرة فضلا عن سماتها الظاهرة .

وقريب من هذه الدقة فى وصف الشخصيات دقته فى صياغة جمل حوارها ، فكل شخصية يجرى على لسانها لغة طبقتها كأن المؤلف أثبت من قبل ألفاظها ومصطلحاتها الخاصة . فحين يجرى الحوار على

لسان المثقف الأديب أو الدبلوماسى القديم أو العالم أو الطبيب أو الفيلسوف أو القارئ الألمعى أو التاجر الأمى أو المرأة الثرثارة أو المتسلطة ترى تفاوتا فى الحوار مع كل شخصية من هؤلاء ينبئ عن ذكاء المؤلف وسعة معجمه اللغوى ودقة صياغته .

وقد بث المؤلف قسما لا يستهان به من معارفه واطلاعاته عن الحضارة الغربية بعامة وحياة فرنسا وباريس بخاصة . فلم يقنع بعرضه معرفته التامة والدقيقة بمآكل القوم ومشاربهم وأنماط حياتهم ومعالم باريس ووصف شوارعها وميادينها وصفا بحيث يجعل القارئ كأنه يعيش فيها وهو لم يرها فى حياته ، بل ذكر ما هو أهم من ذلك وهو ثقافتهم وفكرهم وعلمهم . أتقن المؤلف اللغة الانجليزية وعرف الفرنسية وترجم عن الأولى بعض تآليفها منها ما نشرته دار النشر الحديث (التى نشرت روايته ثريا) فى مجال علم النفس حول السلوك المضاد من تأليف (أ . هريس) وقرأ كثيرا فى تشريح المخ ووظائفه وبنائه وأمراضه وعلاقته بالكون والحقيقة المطلقة ومركز الإنسان فى هذا الوجود والنظريات الفلسفية والصوفية فى الوجود وخالقه . ويعضد هذه المعرفة باستخدامه المصطلحات العلمية والطبية على لسان الأطباء والعلماء . ويبث معرفته بفنون العمارة الفرنسية على ألسنة المهتمين والمثقفين الإيرانيين فضلا عن الموسيقى والرسم والنحت ومذاهبهما والآثار والمتاحف وما بها والتاريخ الفرنسى بخاصة . ويزداد العجب حين يعلن المؤلف من البداية أن سائر الشخصيات والأحداث والمشاهد لهذه الراوية ومنها شخصية الراوى ، محض خيال وأى تشابه محتمل بينهما والشخصيات والحوادث الواقعية هو من قبيل المصادفة البحتة .

وكان المؤلف موفقا إلى حد بعيد فى بناء الحبكة الفنية للرواية فبينما

تنمو الأحداث بنحو تلقائي وطبيعي وتتشابك وتتعقد وتتضخم العقدة من فصل لآخر حتى تبلغ ذروتها فى نهاية الرواية ويطلقها بدون الحل المتوقع وتحقيق الهدف الذى أعلنه من البداية ، لم يترك للقارئ فرصة للاسترواح بين مشاهد الرواية وأحداثها فاختلق له المناسبات والوقائع المثيرة التى تربطه به ملتزما فلا يدعه يتركه حتى ينتهى تماما من قراءة الرواية . وقد ساعد المؤلف فى بلوغ هذا التوفيق موضوع الرواية نفسها ومايزخر به من إثارة وحماسة وشجن ووصف لمسار رحلته الشائقة وتنقلاته السريعة من مكان لآخر ، وتعرفه على أنماط متباينه من الشخصيات وما يتضمن ذلك من أحداث الحرب والضرب . وحين يشعر باحتمال ملل القارئ بسبب دوام البطلة (ثريا) فى غيبوبتها دون تقدم يذكر ينقل المشهد والحوار إلى الشخصيات المساعدة على المقهى أو الفندق أو حتى الشارع الفرنسى نفسه. وقبل أن يفتر حماس هذه وتضعف أدوارها يضحى الراوى بنفسه فيدخل غمار تجربة طريفة فى قصة جديدة غير متوقعة النتيجة . ثم يفاجئ القارئ أيضا بالنتيجة غير المترقبة التى ظل يداريها عنه من قبل ، وإن كان إحساس الضياع واليأس والغربة الطابع على الرواية منذ بدايتها يهيئ العقول لتقبلها ، فيقدم الحل الذى لم يستطع أن يصل إلى أفضل منه هو أو غيره وهو أن يعيش مغتربا الحياة كما هى لا كما ينبغى أن تكون وأن يضيع فى غمارها ويتوه فى لجاتها كشأن أغلب الناس .

المترجم

القاهرة فى أبريل ١٩٩٥

ثريا فى غيبوبة



- ١ -

أواخر خريف ١٣٥٩ هجرى شمسى ، أحد أيام الثلاثاء الباردة ، الثانية بعد الظهر تقريبا فى مدخل المحطة ، فى الناحية الشمالية الغربية (لميدان الحرية) بطهران ، يتداخل الباعة المتجولون وعربات الكارو ، وركاب الأتوبيسات وسط التراب والغبار ودخان الوقود والأصوات ونفير السيارات : (الكبدة .. الزين ! السيخ بتومانين !) ، (الساندويتش يا باشا ، ساندويتش البيض !) ، (لو سمحت يابيه خذ جانبا) ، (الفول ! كل الفول .. !) (البرتقال ، قشر ، برتقال شهسوار !) ، (البنجر المسلوق ما أحلاه !) (الهمبرجر ، السجق ! السندويتشات الساخنة !) (جقائب اليد ياسيد !) ، (لاتدفعنى ياوالدى !) (الجوارب الصوف ! القفازات والقلانس الصوف ! الخاصة بالسفر !) (الشاى الساخن !) (أوسع

الطريق ياسيد ، دعنى أمر يا أخى !) . انشغلت فى صمت فى البيع جماعة أخرى جلس بعضها فوق علب الصفيح أو الكارتون أو فوق الفرش ، أو افترشت الأرض وقد انتحت جانبا ، أحدهم يبيع الخبز الرقيق والجبن ، وآخر يبيع البيض المسلوق والفطير ، وثالث فى ناحية أخرى يبيع أيضا ، ومعه بعض أكياس النايلون ، اللب والفسدق واللوز والتوت الجاف والتين والحمص والزبيب وحلوى النقل .

أما الساحة بداخل المحطة التى افتتحت لتوها فهى لا تعدو كونها شيئا لا بداية له ولا نهاية ، واسعة مفتوحة ، ولاتزال فى الواقع جزءا من الصحراء . ما عدا جوانب منها نصب فيها الخيام المشمعة . لكن فيما يبدو أن الأتوبيسات المتجهة للشمال الغربى ، بل حتى تركية وأوربا تتحرك من هذه المحطة . وعلى مد النظر شمالا ، تحت السماء الزرقاء والسحب البيضاء ، تظهر جبال الألبرز الصافية التى علتها الثلوج . ويقطع هذا المشهد، فى المواجهة بضع سلاسل من العمارات الشاهقة المتلاصقة المتعددة الطوابق ، الرمادية والبيضاء . وهى بنايات على نسق ناطحات السحاب بنيويورك ، لكن التراب علاها الآن و لم تكتمل من فترة ما قبل الثورة ، وقفت عاطلة وباطلة وسط الرياح الخريفية والفضاء المتضرر من الحرب وبقيت مذهولة مبهوته . فالوحدات السكنية على سبيل المثال ، كأنها بلوكات ملاهى الـ (لجو) التى يركبها طفل حائر ثم يأخذه النوم فى منتصف اللعب ويتركها . وخلف ساحة المحطة يلقى بالقمامة . وفى الأمام أبعد قليلا ، دائرا ما يدور داخل الساحة الترابية ، فى الجوانب والأطراف نصبت بضع خيام مشمعة يشكل كل منها وكالة سفر صحراوية. فى كل زاوية نبتت شركة (تعاونية) كالفطر حين ينبت من الأرض بعد ليلة مطيرة . وخلف الخيام المشمعة تتحرك الأتوبيسات المسافرة وتقف .

إما الركاب فأغلبهم من الأقاليم أو الهائمين على وجوههم أو أناس فقط مثلى تركوا ديارهم لسبب من الأسباب . تناثر الأتراك والأكراد واللور والعرب الخوزستانيون ومشردو الحرب وغيرهم فى كل ركن . وحين أدخل المحطة أرى فى أحد الجوانب بضعة من الجنود يتناولون أقداح الشاى وقد تغيرت لحاهم وشواربهم وتمزقت أزياؤهم العسكرية ، وجلس ثلاثة من الأكراد منتحين بسراويلهم الفضفاضة وصداريهم شبه العسكرية وعمائمهم المكورة وهم يدخنون سجائر الونستون . كما جلس رجل عربى خوزستانى ومعه امرأته وأمه وسبعة من أطفاله يلفهم جميعا الذهول ولا يصدر عنهم فعل .

وأجد الخيمة المشمعة مقر شركة النقل التعاونية رقم ١٥ (ت . ب . ت) وهى أول خيمة على الشمال وأدخلها . وفى ناحية منها وضعت منصة صحراوية على أحد حافتها تعلن لافتة من الورق المقوى بخط بارز (المسافرون إلى إستانبول) . وأمام المنصة مكان خال فأبرز تذكرتى وبدون أن يتفحصوها يضعون علامة أمام اسمى فى القائمة الموجودة لديهم . ليس معى من الحقائب ما يضطرنى إلى تسليمها للشحن . . وعليها يسمح لى مراقب التذاكر بأن أحمل معى إلى داخل الأتوبيس حقيبتى وشنطة اليد الخاصة بى . وهذا الأتوبيس وهو (ماركة المرسيدس الفاخر) يبدو نظيفا لامعا إلى حد ما لكنه لا يزال على غير أهبة للتحرك مع أنه مفتوح البابين وانشغل سائقه وتابعه بشحن الأحمال فوق سقفه . وانشغل مع السائق فى جدال رجل طويل القامة له لحية وشارب ناعمان مجعدان ويلبس قبعة جلدية بيضاء التى يلبسها العلية وتضفى عليه مظهر (الزردشتى المقدس)

ومعه حقائب كثيرة العدد . وإحدى هذه الحقائب الضخمة تمزقت وهو يربطها بحبل . أقدم له مساعدتى حتى يرفعها ومعها بقية الحقائب إلى سقف الأتوبيس .

ويشكرنى هذا الرجل ، الطويل القامة ، ثم أعود إلى واجهة الخيمة وأقف على مقربة من مدخل المحطة وأشعل سيجارة وأنتظر .

وفى تلك اللحظة يرتفع صوت صفارة إنذار من المطار الذى لا يبتعد كثيرا عن آخر الشارع ، نداءات متقطعة وطويلة . ثم يقطع المذياع الموجود بخيمة الـ (ت . ب . ت) برنامجه العادى وكان يذيع التعليق على الأنباء لكى يعلن صوت صفارة إنذار إغارة جوية : (نوجه عنايتكم إلى أن الصوت الذى تسمعونه الآن هو إعلان عن حالة الإنذار أو علامة الخطر ومعناه أن إغارة جوية سوف تقع . غادر محل عملك وتوجه إلى المخبأ) . ثم يذاع من المذياع صوت صفارة الإنذار، ولا يهتم أحد ، ويستمر الناس فى أعمالهم كما كانوا لا يصدر عنهم غير جملات من الاستهزاء والسخرية . سكان طهران بعد شهرين من الحرب أصابهم عدم المبالاة والاكتراث .

ويتجه نحوى الرجل الطويل القامة ذو اللحية والشارب والقبعة والهيأة والمظهر الزردشتى . مع أنه تخلص من شرور الشحن إلا أنه لا يزال يحمل ثلاثا أو أربعا من الحقائب والشنط وبطانيتين ووسادة . يشعل بدوره سيجارة ويهز رأسه ويقول :

– (حالة إنذار !)

– (نعم)

– (لا أعتقد أنهم يهاجموننا ياسيد ، ما رأى سعادتكم ؟)

لا أرد عليه مجيبا

– (لا بد أنهم رأوا شيئا على راداراتهم؟)

– (لابد)

– (أو ربما أتت تقارير عن أمر مشكوك فيه)

أساله (أتممت شحن حقائبك ؟)

– (نعم . سيادتك مسافر إلى أوربا بالـ (ت . ب . ت) ؟)

– (إلى استانبول بالأتوبيس) أدير رأسى وأرمى بالسيجارة النصف المشتعلة بعيدا وأعود إلى دوامة أفكارى .

ويسألنى الرجل الملتحى (ماوجهة سيادتكم ؟)

– (باريس)

– (هل سيادتك مقيم بها ؟)

– (لا)

– (كيف إذن حصلت على تأشيرة الخروج فى خضم هذه المعمعة ؟)

رجل لحوح ، لذلك أذكر له بإيجاز واقعة تصادم إبنه أختى ومرضها الشديد. لا يبدى كبير اهتمام ويسألنى : (إذن سيادتك متجه إلى باريس ؟)

– (مثل ذلك)

– (مسافر لوحدك سيادتك ؟)

– (كيف فهمت ذلك ؟)

– (أفهم هذا من مظهر الرجل وحالته النفسية . أمضيت عمرا فى شركة الطيران الإيرانية فى العلاقات العامة)

– (صحيح)

– (هل تحب أن تتغذى ؟)

– (تناولت شيئا فى منزل أختى)

– (كأنهم هنا ليس لديهم علم بالمطاعم والكافتيريات) ويتفحص أطراف الفناء والمخيمات المشمعة .

أرد عليه بقولى (رأيت هناك فى المقدمة ساندويتشات كبدة وبيض) .

– (لا يا أخى لا يوثق فى هذه الساندويتشات)

صوت صفارة الإنذار كان صمت مؤقتا .

ويقول ذو اللحية والشارب الزردشتى (لنذهب ، والله أن من الأفضل أن نتخلص بأقصى سرعة من مكان العدم هذا) .

المرأة العربية التى افترشت الأرض ناحية لا تحرك غير رأسها بلا صوت وتخبط عليه بحركة هادئة على التوالى .

ونعود إلى جانب الأتوبيس ما شيين ونقف منتظرين لأنه ليس من مكان مهيأ للجلوس . ويحدثنى ذو اللحية المجعدة عن الأوضاع السيئة الصعبة .

وأسأله (وأنت كيف حصلت على تأشيرة الخروج فى هذه المعمعة العصيبة ؟)

- (جواز سفرى مختوم بخاتم الإقامة بباكستان . أمى تقيم بها . أرسلت لها الجواز فختموه)

- (صحيح !)

(..... أخذت أيضا تأشيرة أمريكا . زوجتى السابقة وابنى وابنتى يقيمون فيها . يؤشرون طبقا لمقرراتهم لمن ليس لهم الحصانة السياسية والحصانة الدينية ، فمنحت لنا) .

ولا أفهم قصده من عـــدم (الحصانة الدينية) ولا أحـــب أن أفهم .

ونصعد الأتوبيس فى النهاية الساعة الثالثة والنصف ويدير السائق محركه ويشاء الله أن أجلس بجوار الزردشتى الطاهر ، يجلس هو بجوار النافذة وأنا على الطرقة . وقبل أن يستقر فى موضعه يرتب البطانيتين والوسادة تحته (إذا كان لا يمكن السفر الآن بالطائرة فلا أقل من أن نكون مرتاحين) . وعلى الكرسى المقابل جلست سيدة شابة ومعها طفلها الصغير وطالب مسن قصير القامة غليظها يدرس فى ألمانيا .

وقبل أن ننطلق إلى عرض الطريق يرحب السائق بدماثة الخلق وحلاوة الطبع الآذربايجانى بالركاب . أمامه كافة أنواع الصور المغلفة والسجا جيد والقيطان والزهور والمعلقات المكتوبة ومذياع وعلبة منديل ورقية وحاجات أخرى . وبين صورة أمير المؤمنين وصورة ابنه الصغير شعر مكتوب بخط النسخ التعليق ترجمته : ليلة بالبيت ومائة بالغربة - فإلام تجرنا أيها المرسيدس الملعون ؟ قال : (أقدم لكم نفسى . أنا المخلص للسيدات والسادة عباس أغا المشهور بأشك عباس أغا مرندى ، تحت خدمتكم . كل طلباتكم

أوامر . وهذا هو مساعدى حسين آغاجل فى خدمتكم أيضا . أرجو أن تنقضى الرحلة بسعادة وسلامة على جميع السيدات والسادة بحق علىّ سلطان الرجال صلوا على جمال محمد وآل محمد) . يصلى المسافرون بصوت مرتفع . يصلى على النبى وآله أيضا ذو اللحية المجعدة لكنه يعود إلى الضحك ويطلب عباس أغا مرندى مرة ثانية وثالثة بصوت أكثر ارتفاعا الصلاة لأئمة الإسلام والمقاتلين الفدائيين ..

وعند بوابة خروج المحطة بعد تفحص رخصة السائق والأتوبيس يخرج المرسيدس (ت . ب . ت) فى النهاية ويتحرك على الشارع المجاور والموازى للطريق الخاص المتجه إلى الكرج ويمر من أمام عمارات ضاحية أكباتان ليسلك هذا الطريق .

ويتوقف عباس أغا بعد عشرة كليو مترات ليتزود بالوقود . ويصل طول صف السيارات الواقفة للتزود بالوقود إلى نحو ثلاثة كيلو مترات ، لكن بما أن الأتوبيسات المقلة للمسافرين مستثناة من التقيد بالدور فى الصف يدور عباس أغا ويأتى أول الصف بظهره ، وبعد تأخر عشر دقائق يتم تزويد الأتوبيس بالوقود .

فى هذه الفترة يحكى لى ذو اللحية والشارب الطاهر الزردشتى – الذى ذكر أن اسمه وهاب سهيلى – عن حياته التى استمرت سنوات عدة فى شركة الطيران الوطنى الإيرانى وأنه أخيرا أخرج فى حركة التطهير وأقيل من منصبه وأنهم (انتشروا) داخل بيته وحملوا معهم بعض كتبه وألبوماته واعتقلوه هو نفسه شهرا ونصف شهر فى معتقل (أوين) إلى أن ظهرت براءته فأخلوا سبيله بدون محاكمة . وفضلا عن زوجته ، وزوجته السابقة وأولاده المقيمين فى بريطانيا وأمريكا ووالدته المقيمة بكراتشى أيضا فله أربعة

أبناء وابنة أخيه المتوفى يقيمون كذلك فى ألمانيا .

وحين أدور بعينى فى الأتوبيس أرى جميع ركابه تقريبا لهم نفس الحالة ، فباستثناء حالتى وواحد أو اثنين من الطلاب ، فإن الباقى حمل معه ماله وأمتعته وسافر أو عاد ليأخذ أمتعة أكثر له . فسهيلى الذى يهاجر من وطنه حمل على حد قوله حتى بلاط حمامه . السيدة كيومرث بور أستاذة الميكروبيولوچى التى درستها فى أمريكا تسافر للحاق بزوجها فى باريس ، ترضع وليدها خلف حجاب إسلامى غير معقود عليها بإحكام والذى لايعدو أن يكون ألعوبة لأنها بعد إرضاع طفلها كأنها لا تهتم إذ ذاك بغير مجاذبة الطالب المسافر إلى ألمانيا الغليظ القصير أطراف الحديث .

وحين نغادر محطة الوقود كان الغروب بدأ يهبط على الطريق . وبعد نحو كيلو متر واحد صدمت سيارة نقل وقلبت وجلس سائقها عبد الله بجانب نحو ثمانين كيلو جرام من البصل المتناثر فوق طرف الطريق الترابى. قروى عجوز جلس القرفصاء بجوار سيارة البصل وأحاط رأسه بيده كأنه لايدرى كيف يتصرف حيال هذا الوضع . تمر السيارات على يمينه وشماله ولايأبه به أحد . منظر البصل المتبعثر وعربة النقل المقلوبة والعجوز العاجز يغدو لأغلب مسافرى الأتوبيس سبب ضحكهم .

- ٢ -

مضت ساعتان من الليل ويتوقف عباس أغا أمام مقهى كبير خارج تاكستان (لتناول العشاء والصلاة) . ربضت بضعة أتوبيسات فى نفس الموضع على نفس الحالة . يخرج مسافرونا جميعا ويشترى أغلبهم من صاحب المقهى الذى يعلو الناس عن رأسه وكتفه بونات العشاء . يتقدمنى سهيلى .

قال : (سيد آريان ليس لديهم غير الكفتة طعاما وشرائح اللحم فماذا نفعل؟) فرددت (كلاهما ، كلا الاثنين مقبول) .

– (كفتتهم لابد أنها لية الخروف . ولانعرف الشرائح من أى لحم) .

– (مزاجك رائق ياسيد سهيلى) .

– (سوف آكل ولو كان مسقيا بأمعاء جراد صحراء مغان) .

ويضحك سهيلي (إذن لو تكرمت بالبحث في جيبك عن مائة تومان فكـــة ؟ اعطني لكي اشترى بونين . لأنه لم يبق معي غير جنيه استرليني ودولار ثم نتحاسب بعد ذلك)

- (بالتأكيد) .
- (أنت ضيفي على العشاء) .
- (أشكرك) .
- (تحب الشاى أم العصير ؟) .
- (الشاى أفضل) .
- (إذن اثنان من شرائح اللحم وكوبا شاى وزبديتان . مارأيك ؟) .
- (عظيم) .

أعطيه المائة تومان ويشتري بونات الطعام والزبادى . وحين يذهب وحقيبته بيده (للتطهر) آخذ أنا الطعام إلى مقدمة المقهى المزدحم وأحمل بعض الرقاق والزبادى والبصل وأجد مكانا خاليا فى أحد الجوانب . وليس من خبر عن الصوانى .

ويأتي سهيلي ويجدني ونجلس للأكل. شواؤهم ليس سيئاً في الحقيقة. أرزهم لو سخن لكان ممتازا . ويأتي اثنان من القرويين ويجلسان بجوارنا ويتناولان الكفته . إنهما لا يتناولان الأرز بالخضار كما يتناوله الناس ، أنهما يتعشقان الأرز بالخضار . لا يبتعد رأساهما عن طبق الأرز والخضار إلا بمسافة التقبيل ويتناولانه بلُقَم الخبز المدورة ويحملانه إلى فميهما ، يبقى بعض الطعام فى فمّيهما ، ويعود بعض آخر إلى حضن الطبق ، قام

بين فميهما والأرز بالخضار العلاقة والاتحاد ، يلعقان أصابعهما أيضا . لا يحتاجان إلى وساطة الملاعق . سهيلى يتناول بدوره الأرز الأبيض بالشوكة .

قال (سوف استقل من استانبول إحدى طائرات الشركة الأمريكية إلى كراتشى أولا ..) .

– (صحيح) .

– (كيف سوف تسافر حضرتك من استانبول إلى باريس ؟) .

– (معى تذكرة شركة الطيران الوطنى الإيرانى ، لكن سوف نرى) .

– (معك تذكرة الخطوط الجوية الإيرانية التى لا تعمل ؟ مطارات إيران مغلقة) .

– (قيل أنهم اتفقوا مع الخطوط الجوية التركية على أن تنقل مسافرى الخطوط الايرانية فيما يبدو) .

ويسأل (تذكرة حضرتك مدفوعة بالكامل ؟) .

– (لا ، فيها ٤٠ ٪ تخفيض) .

– (حضرتك موظف بالحكومة ؟) .

– (فى شركة النفط فى الجنوب) .

– (هل يمكن أن أرى تذكرتك ؟) .

فأريها له ويقول (أنها غير قابلة للتحويل ومقفولة . لكن لدي معارف في استانبول وسوف يقومون بالواجب من أجلك . ننهى الموضوع لو كان عندهم قرار مستجد بنقل من معهم تذاكر « الخطوط الإيرانية » . كم من الوقت قررت الإقامة باستانبول ؟ أنها مدينة جميلة على غير العادة) .

– (ليس لدي قرار بالمكوث ، أسافر فى نفس اليوم إن أمكن) .

– (هل أنت قلق علي إبنة أختك ؟)

– (لابد من الوصول إلى مستشفاها بأقصى سرعة)

– (ماذا حدث لقدمك ؟ إنك تعرج . هل أصبت في الحرب ؟)

– (لا شئ . إنه عِرق)

– يضحك (أقول لك أن الشر بعيد بأمر الله وبالأمل في الله الواحد ، وسوف ينقضي كل شئ لكم ولابنة أختكم على كل خير وسعادة هناك)

– (لا أدري)

يشعل كل منا سيجارته ويأتى الجرسون بالشاى لنا ويقبض ثمنه ويسألنى سهيلى (كيف وقعت هذه الحادثة ؟)

– (أى حادثة ؟)

– (هذه التى وقعت لإبنة أختك)

– (لا أعرف بالضبط . علمنا من خلال رسالة وبضع مكالمات تليفونية تلقتها أختى من أصدقاء ثريا أن ثريا كانت عائدة بدراجتها من منزل صديقة لها حين كان الشارع فيما يبدو منزلقا فتتدحرج وتسقط عند ناصية شارع) .

– (وهل أصيب دماغها ؟)

– (فيما يبدو)

– (وكم مضي عليها وهى مريضة ؟)

– (أسبوعان أو ثلاثة وهى في غيبوبة)

– (بهذه البساطة ؟)
– (بهذه البساطة)
– (كم عمرها ؟)
– (ثلاث وعشرون ، اثنتان وعشرون)
– (عجيب ..)

وأصعد زفرة (أجل ، رجل مثلى يبقى حيا سليما وسط عبدان ومنطقة الحرب ، يصل من وسط عبدان ومن داخل مناطق النخيل إلى « تشويبدر » ليلا راكبا قاربا قديما بمحرك ويبلغ ميناء ماهشهر قاطعا مائة كيلو مترات أو يزيد تحت القنابل المتساقطة وقصف المدافع .. وتسقط امرأة شابة فى الاثنين والعشرين داخل منطقة باريس من على دراجتها ..)

– (عند القدر يعمى البصر ياسيد آريان)
– (نعم ، يبدو هذا ياسيد سهيلى)
– (والآن أنت مسافر لكى تعود بها إلى طهران ؟)
– (وليست وهى فى غيوبة بلا شك ، لكن أختى تود إن أعود بها فى النهاية إلى طهران)
– (إن شاء الله الشربرَه وبعيد)
– (على الله)
– (كن على ثقة .. والله تعالى هو المعين)

نصعد الأتوبيس فى حدود العاشرة مساء . ويطرق هذه المرة أغلب الركاب فى صمت ويخلدون كلهم تقريبا فى السبات وينظم سهيلى البطانيتين والوسائد بأسفل منه فوقه . وأعجب له أنه يهتم بنفسه واستعداداته ممتازة (لو تكرمت ياسيد آريان ناولنى تلك الوسادة الصغيرة من فوق هناك .

أعتذر إليك كثيرا ، فقد سببت لك الليلة مشقة بالغة) ويضع الوسادة الصغيرة حائلا بينه وبين النافذة لكى تقع رأسه على موضع لين إذا انزلقت.

الفضاء والصحراء مسودان ويتقدم الأتوبيس متأوها . بجانبى سرعان ماراح سهيلى فى سبات عميق . لا يأتينى النوم ومع أنى تجرعت كبسولاتى ورأسى بها دوار فإن شيئا يدور داخل جمجمتى . فى الخارج كأن الليل ساكن والدنيا هادئة.

لكن الأمر يختلف داخلى. الليل الساجى والعالم الهادى هو ماخرج عنى أو ماكان أسفل وسادة وهاب سهيلى أو ما انزلق وسقط خارج النافذة . ليلة من تلك الليالى التى يسافر فيها الأتوبيس والأتوبيس هو الليل والليل شئ خامل يتحرك . ليل جلال آريان . رجل يقرب من الخمسين من عمره والذى يتأرجح هذا العام بين الوجود والعدم . حين يسير كأنه تشارلى شابلن حين يسير فى أفلامه البطيئة الحركة . وجهه مثل مقطع عرضى للوجه الكامل لشئ هو بين أردشير المتعدى ومكتشف مربى الجزر . حين يتنفس فصدره كالخنزير المصاب بالربو. وفوق ذلك فهو حسن الشكل وسليم وعلى سجيته .

ونصل تبريز فى الثالثة صباحا . شوارعها خاوية وكل مكان فيها بارد وجوها به ريح وعاصفة ثلجية . يقف عباس أغا بالأتوبيس أمام جراج الـ (ت . ب . ت) ويصعد حوالى ثلاثة من المسافرين الجدد . لا يزال أغلب المسافرين من طهران يغطون فى النوم . إلا السيدة كيو مرث بور تأخذ طفلها وتجلسه ليتبول بأسفل على حافة جدول . الليلة شهادة الدكتوراه فى البيولوجى التى حازتها لا تساوى عدما . تحت نور عمود الكهرباء يشع من أساورها الذهبية وفوران بول طفلها نوع من أطياف النور .

- ٣ -

نعبر صحراء آذربيجان الغربية الصافية فى تباشير الصباح ونتجه إلى حدود بازرجان . الجو الآن مثلج ويرتفع بتثاقل نور النهار . الصحراء والتلال عارية وتبدو جميلة عند أول أشعة الشمس المنبسطة . وقفت الأشجار كأشباح الموتى هنا وهناك . حينا يطير طائر يتماوج جناحاه وسط هبوب الرياح الشديدة التي تهب من ناحية روسيا كقارب صغير وسط الطوفان ورياح السحر . يذكرني هذا بثريا .

حين نتجاوز (ماكو) كان الجو لا يزال منيرا ويقف عباس أغا للتزود بالوقود . كأن ماكو أصبحت حانا من شدة البرد وزادت كدحا بل أن الشارع الأساسى بما فيه من عمارات ومحلات ومنازل منحوتة فى الجبل يبدو أكثر خواء وحقارة . وقف سكانها من بداية الصباح مصطفين يحملون

علب الكرتون الفارغة يتعقبون النفط أو جلسوا يثرثرون أو استسلموا للنوم . أو في صفوف أخرى أمام المخابز ومحـــلات البقالـــة ينتظرون الخبز والمؤونة أو راحوا فى النوم . أتجرع كبسولات الصباح بكأس الماء الذى أحضره لى مساعد عباس أغا . وبعد مدة يستيقظ شيئا فشيئا وهاب سهيلى الذى من غير حسد نام ملء جفنيه بجوارى . لا أقدر على الكلام لكن لا يمكن إيقاف محرك سهيلى .

– (صباح الخير)

– (لام عليك)

– (صبحكم الله بالخير والعافية)

– (اختصر تحيتك ياجناب سهيلى بمقص الرقابة)

يضحك (هل تعرف أين نحن ؟)

– (تجاوزنا ماكو)

– (إذن لم يعد أمامنا حتى بازرجان قدر ماركبناه)

– (المفروض أن نصلها السابعة والنصف أو الثامنة)

– (هل تجرعت جراية الصباح ؟)

– (جراية الصباح ؟)

– (ما تلك الكبسولات الطويلة البرتقالية ، أليست جافرين ؟)

– (لماذا ، جافرين آر – اكس . ثلاث مرات فى اليوم)

– (من أجل انسياب الدم فى العروق وثبات نسبة الأملاح هى أفضل علاج . أخى بعد أن أصيب بالمرض كان يتناول منها . حافظت هذه

الكبسولات عليه حيا سنوات لعلك تعرف ولابد أنه قيل لك إذا أخذت هذه الكبسولات فلن تمس قط مشروبا . الكحول والجافرين أحدهما عدو مهلك للآخر)

فقلت (نعم ، قيل هذا) وأتذكر وعدى لفرنجيس .

ثم يقول سهيلى (ياسيد آريان ، سلمت يداك أريد أن تناولنى تلك الحقيبة الجلدية السوداء فوق هناك) .

وندخل حوالى الساعة الثامنة حدود بازرجان ، وقد سبقنا عشرة أو خمسة عشر أتوبيس ركاب ومئات الشاحنات والركاب باتت فيها ، ومبنى ترانزيت بازرجان مكون من دور واحد كبير وقديم بحيث نرى باباً صغيرا ضيقاً تركه أمير الحرس موارباً .

ووقف مئات المسافرين أمامه يهمهون . ولا يرى من الشرطة غير بضعة من الشباب الصغار السن من (حزب الله) ذوى خلق وأدب ، يحملون مدافع الرشاش (ج ٣ واوزى) يساعدون الناس ويفتشون .

والمعلوم جيدا أنه لابد من الانتظار هنا ساعات وربما أياما . سهيلى الآن فى كامل يقظته وترتيبه فقد نزل مثل غيره من الأتوبيس — ساكنا ومضطربا — وانهمك فى جمع ركام حقائبه وتنظيمها وعقد عفشه . وكان عباس أغا ومساعده قد انتهيا لتوهما من فتح عقد العفش وإنزال الأحمال . ويقوم عباس أغا بنفسه بجمع جوازات سفرنا ويشق بها ومعه أوراقه صفوف الخلق المزدحمين حتى يصل إلى صالة الترانزيت . وحمل تعليمات منها بأن يحمل كل مسافر سائر عفشه وأمتعته إلى صالة الترانزيت . ورفع رجل مهيب ذو شارب كث من أمام باب ضيق صوته بخشونة قائلا : (على من

لديه عملة زائدة أو ذهب أو مجوهرات أن يسلمها ويتسلم إيصالا عنها ، وإلا فإن ظهر أنه يحمل بعضها سوف يعود من حيث أتى) . والمسافرون إلى الخارج الذين كانوا امن سنوات ثرثارين مليئين بالادعاء ينتظرون الآن جميعا كأن على رؤوسهم الطير لا يسمعون ولاينطقون . لا يصدرون صوتا . لا يريدون إلا أن يسافروا بأى طريقة . هم فى وضع اضطرارى فلا السادة بقوا سادة ولا الهوانم بقين هوانم أيضا . مجرد جزء من جماعة . (فليتقدم المسافرون على « إيران پيما » ثم يليهم المسافرون على « ميهن تور » . وتقف السيدة كيرمرث بور ومعها طفلها بجانبى فقد تركها الطالب الموفد إلى ألمانيا وذهب لمصالحه . لم يعد بقلب هذه المرأة المسكينة أدنى شجاعة كل قطعة من عفشها مبعثر فى ناحية . قالت (هل قرأت كتاب أندريه جيد « الباب الضيق » ؟

– (لا) .

– (يقول : حاول الدخول من الباب الضيق ..)

– (أنت ليس عفشك كبيرا . على سهيلى أن يحاول بأقصى مالديه..)

ولايضحك سهيلى وإنما يكتفى بهز رأسه لكنه غير مهتم شارد الفكر.

ثم تقول السيدة كيومرث بور : (لا يقصد « جيد » العفش وإنما النجاة .)

– (صحيح) .

– (كانت أخت لى أستاذ بالجامعة ، أقيلت الآن ومنعت من الخروج . ولى أخت أخرى معتقلة ولا نعرف عنها خبرا) .

وبعد ساعات يأتى الدور فى النهاية لمسافرى (تى بى تى) وندخل بطريقة أوأخرى من بين المتزا حمين الذى تجمدوا أمام الباب الضيق بسبب التدافع العشوائى . ويطول بنا الأمر عامة حتى ندخل في النهاية عفش سهيلى من يد إلى يد . والقاعة كبيرة نسبيا تنتهى بطرقة تفضى إلى قاعة أخرى وهنا يسود السكون والنظام (النسبى) مع وجود صفوف عدة . صف لتسلم جواز السفر وآخر للتفتيش الذاتى وثالث لتفتيش العفش وآخر لتسليم المجوهرات وخامس للخروج ودخول صالة ترانزيت تركيا . وأقف فى صف تسليم الجوازات القصير .

جلس ولد صغير السن قد أخضر منبت شاربه وله عينان خضراوان حساستان خلف مكتب .

– (أين أسباب السفر إلى الخارج ؟)

– وأقول له . . .

– (هل تسافر بمفردك ؟)

– (أجل) .

وأمسك بيدى صورة من المذكرة المعتمدة المختومة بخاتم جمهورية إيران الإسلامية الصادرة من وزارة النفط ، شركة نفط إيران الوطنية ، اعتمدت من لجنة تحقيقات مشكلات موظفى المناطق المضارة من الحرب بعبدان وخونين شهر والموجودة بطهران إلى الجهات المسؤولة برئاسة الوزارة الكائنة فى إدارة الجوازات ليقدموا التسهيلات اللازمة لإيفاء الضرورات الجبرية للمذكور (الذى هو أنا) .

وقد وقع عليها وكيل وزارة النفط . وأريها للأخ .

– (ماهو عملك بشركة النفط

– قلت ..

– (قلت لى من الذى اعتمد الموافقة على سفرك ؟)

فأذكر له اسم وكيل الوزارة الذى اعتمد ورقة الموافقة على سفرى إلى الخارج من وزارة النفط برئاسة الوزراء .

– (لماذا لم يعتمدها الوزير بنفسه ؟)

قلت إن وزير النفط أسره العراقيون .

ثم يسلمنى جواز سفرى مختوما قائلا (تفضل) .

– (كل شئ تمام ؟)

– (رحلة سعيدة) .

ويمتد صف التفتيش الذاتى أمام مكتبين أحدهما للأخوة والآخر للأخوات . وبعد التفتيش الذاتى يدخل الناس صف تفتيش العفش ، فيقف كل منهم بجوار عفشه ويدفعه أمامه حين يتقدم . وفى المكتب الخاص بتفتيش الأخوة جلس ولد صغير دقيق البنية لا يتجاوز فى الظاهر الثامنة عشر أمامى كأنه ابنى . ومن غير أن ينظر إلى بدأ يتحسس بطانة ملابسى والبروز الأعلى بكتفى معطفى ويعيد نفس الأسئلة السابقة عن إذن السفر والعمل ومرافق السفر وغير ذلك ويذكرنى بالولد (سيد مطرود) فى عبدان ، لكن هذا الولد أكثر ذكاء وأناقة . وحين يفتش حذائى ويتحسس بأنامله كعبها يسألنى : (أحوالك على مايرام ؟)

– (آه ، ليست سيئة) . ويبدو مجهدا وكليلا .

(وأنت كيف حالك ؟) فلا يجيب ويكتفى بالإيماء برأسه .

قلت : (أنت تقوم بعملك على نحو جدى كثيرا ، لكن استرعى نظرى أمر)

ولا يهتم كثيرا ، وإنما ينظر إلى بقليل من التوجس

– (أى أمر ؟)

– (ليس قصدى انتقاد أسلوب أداء الأخوة ،لكنى تنبهت الى أن المسافرين الخارجين من التفتيش الذاتى يذهبون إلى أمتعتهم ويمكنهم أن يأخذوا أشياء منها ويخبئونها فى جيوبهم .ألا تظن أنه من الأفضل أن يتم التفتيش الذاتى بعد ذلك ؟)

فيقول : (أيدينا قصيرة . . نحاول أن نغير فى المؤسسة هنا . نريد أن نبنى ممرا جديدا فى هذا الجزء) . ولايقوم بتفتيش فردة الحذاء الأخرى (تفضل)

– (تم كل شى)

– (فى أمان الله)

فأشكره، وأخرج ، وكان سهيلى عليه الدور بعدى واصفر لونه كالكركم وأحاول أن استنبط السبب حتى شارباه ارتفعت نسبة الشيب فيهما ووقفا نحيلين رقيقين .

سألنى (هل يفتشون بدقة ؟)

فأرد : (كما يحب قلبك ويشتهى)

فيترك سهيلى دوره لمن بعده ويخرج من الصف ويذهب نحو أمتعته

ويبدل معطفه وحذائيه . قال لى بعد هذا ونحن فى استانبول أنه أخفى فى بطانة معطفه الأول ثلاثمائة وثمانين ألف جنيه استرلينى شيكات سياحية وألف دولار . وأدخل صف تفتيش الأمتعة وبما أنى لا أحمل إلا حقيبة ملابس صغيرة جدا ومامعى من مال بالحد القانونى أخرج سريعا وأدخل صالة الترانزيت والسيدة كيومرث بور تناقش شرطة حزب ا لله فى قسم الجمارك لأنهم أخذوا كل ذهبها ومجوهراتها وأعطوها وصلاًبها ، وهى لاتزال تحترق بنارها ، لكن هذا لا يفيد . صالة الترانزيت بوسطها منصة دائرية على شكل نعل كبير تنثنى من طرف الصالة الأول ثم تعود إلى الانثناء فى طرفها الثانى . وتنفتح أبواب الطرف الأول على أرض إيران وأبواب الطرف الثانى على أرض تركيا بقول عباس أغا مرندى .

ولا أرى سهيلى حتى قبيل الظهر حين يدخلُ من ركن صالة ترانزيت تركيا . ولم يعد الآن إليه لونه ووجهه وحسب بل تهلل وجهه ، يبدو أنه مر بكل أمتعته .

لكن أول سوء الحظ الآن كان مع موظفى تركيا الذين لم يراعوا أدنى درجات النظام والترتيب فقد بدأوا بتأخير المسافرين جميعا قائلا أن الموظف الأساسى ترك مكتبه لإجراء مكالمة تليفونية .

ثم انقطع التيار الكهربائى (ويتزود كلاقسمى مبنى الجمرك من شبكة الكهرباء الإيرانية) فيلقون هذا الخطأ على عنق إيران . يقولون انقطع تيار كهرباء إيران وكأن هذا أكثر نكات العالم إضحاكا فيلوكون أحاديثهم بالتركية عن ذلك ويضحكون . وبعد ذلك يأتى مفتش جديد ولابدّ أنه يريد إيذاء الناس فأول كلامه الذى ترجم لنا إنه على الجميع أن يكونوا مطعمين

ضد الأوبئة فى إيران . ويرفع المسافرون الإيرانيون الذين لفوا السبع لفات مع موظفى الحدود الإيرانية أصوات الاعتراض (لماذا لم يقل لهم من البداية أحد ذلك ؟) . ولا يأبه الموظف التركى باعتراضهم . لابد أن تكون الجوازات مختومة بختم الخلو من الأمراض إلا من يحمل معه شهادة التطعيم . وهذا أمر فى المصلحة . وتمر مدة فى المجادلة ، لكن الموظف التركى يصر تماما على موقفه . ويمسك الجوازات بيده ويحركها فى الهواء قائلا :

لابد أن تعود هذه الجوازات وتختم بختم الخلو من الأمراض . وجوازى أيضا من بينها . فتقول السيدة كيومرث بور (لن أعود ! ...)

ويقول سهيلى : (لن أعود ولو قطعوا شريانى الأكبر . كان عليهم أن يقولوا لنا من البداية ..)

وبعد ذلك يصيح رئيس الموظفين الأتراك بالإنجليزية (لابد أن موظفى إيران قالوا لكم ذلك . لابد أنهم طلبوا منكم ذلك من البداية) . ولم أكن سمعت شيئا عن هذا المطلب فى جمرك إيران . فتقول السيدة كيرمرث بور (إلى أى حد غباء هؤلاء .. ألف رحمة على موظفينا !)

ويقول سهيلى (عيب !) . ويتفوه كل واحد بشتمة . لكن المحاولة مع الموظف التركى لاجدوى منها . وآخذ الجوازات ثم أعود بعد أن أترك حقيبتى الصغيرة مع سهيلى . أرجع إلى قسم حدود إيران واستفسر هناك وأسأل هنا وأشرح المشكلة للموظف الإيرانى المسؤول عن الحجر الصحى القابع فى ظلمة إحدى القاعات بنهاية الممر . ويفهم قبل أن أتم كلامى فليست فيما يبدو هذه أول مرة فيأخذ جوازات السفر وهى فى حدود خمسة

عشر أو ستة عشر ، ويفتحها جميعا على آخر صفحة ويرتبها فوق بعضها ثم يبدأ فى ختمها وإمضائها بسرعة . وهو رجل فى الأربعين سمين ومتين القوام ويبدو أنه أبعد واقعية عن عمله فى حجرته المظلمة فيتجه إلى قائلا (هذه الجوازات لن تصاب ثانية بالوباء) فحأرد (بالتأكيد) .

– (تفضل) .

– (شكرا يادكتور) .

– (هاه مع السلامة) .

وحين أعود ويغمرنى نور صالة الترانزيت أوزع الجوازات على أصحابها ويتضح أن كل الأختام بها غير ظاهرة فى حوافها فيضحك الجميع ولايهتمون ، لأنه ظهر الآن مشكلة جديدة فى صالة الترانزيت فالساعة هى الثانية عشرة وأغلق الموظفون الأتراك صالة حدودهم ولن يفتحوها قبل الثانية والنصف لأنهم لابد من ذهابهم لتناول الغذاء وأقفلت الأبواب فى نهاية الصالة التركية ووضع عليها السلاسل والأقفال .

ولهذا ننتظر ساعتين بداخل صالة الترانزيت خلف صالة تركيا . وتجمع أغلب المسافرين معنا بالأتوبيس خلف البوابة المقفلة بالسلاسل . وتجلس جماعة أخرى وتأكل شيئا . ويهدى بعضهم لغيرهم الفاكهة والنقل . وتعتلى مجموعة أخرى المنصة وتملأ استماراتها . وابن السيدة كيومرث بور نائم على ركبة الطالب المبعوث إلى ألمانيا الذى يفترش الأرض . وأما السيدة نفسها فقد جلست هى الأرض أيضا وعيناها شبه دامعتين لكنهما جافتان وانشغلت مع طالب آخر بتغيير الليرات التركية والماركات الألمانية والفرنكات الفرنسية . وأجلس بجوار سهيلى الجالس بجانب تل أمتعته وأشعل آخر

سجائرى (الروسية) . ولا أسألة عن كيفية خروجة بكل هذا العفش وهل خرج بعملته أو أخذت منه . إن كثرة أسفارة وتجاربه وقضاءه فيما يبدو سنوات فى الشركة الجوية الإيرانية ومعاملاته مع موظفى الجمارك وقيادته للرحلات الخارجية قد زاد ذلك من خبراته .

ويقول سهيلى : (تفضل ياسيد آريان .. انتظر لحظة .. نحن الآن لسنا على أى أرض فلسنا فى إيران ولا فى تركيا) يتحدث هذا بسعادة .

فأرد (مبروك)- (ناس بلا أرض ..)

- (ياسهيلى بيه نحن الآن مُشَرّفون داخل صالة الترانزيت التابعة لمنطقة بازرجان)

- (لا .. لا هنا ولاهناك .. فى هذا العالم المجنون . نحن جميعا داخلون ياعزيزى آريان) .

- (لا تحدثنى متفلسفا وحياة أولادك ياسهيلى بيه)

- (لا ياحبيبى صاحب السعادة . هذا هو نفس حالنا . كل البلاد وكل الدنيا حالها خراب وغير مفهوم وغير دائم ..)

- (لا تغضب ياسيد سهيلى . بعد ساعتين يأتى الموظفون الأتراك ويفتحون البوابات ثم تنهض سعادتك وتغادر بالسلامة إلى كراتشى ثم إلى واشنطون . بعد أسبوع يكون كل هذا ذكريات بالنسبة لك وتقول كل شئ داخل حفلات الكوكتيل ..)

- (يفتحون فى الثانية ؟)

- (فيما يبدو)

– (ماذا يأكلون طوال هاتين الساعتين ؟)

– (محشى بكباب الحلة)

ويضحك سهيلى ويخرج سيجارة من علبة سجائره الونستون ثم يشعلها بولاعتـه الذهبيـة التى لا أعرف حتى الآن أين أخفـاهـا ، ثم عـزم علّى (بسيجارة) فقلت إنى إطفيتها لتوّى . ثم قال : (يجب أن أرسل برقية عند وصولى استانبول إلى ابنى فى لندن ليرسل لى حوالة مالية . فإننى فعلا مـفلس . وأنا مـدين لك أيضـا بمال . ولابد لى من بعض المال لنفـقـات السفر إلى باكستان كذلك)

– (قلت ليس معك غير الدولار والاسترلينى)

– (أوه .. نعم فى البنك)

– (صحيح) .

– (أبعث إلى ابنى فى لندن بسرعة لكى يرسل لى حوالة)

ولا أدرى إن كـان يقـول لى هـذا أو يقـول للسـيدة كيومرث بور أو الطالب المبعوث إلى ألمانيا .

– (أظن أنك ذكرت أن ابنك فى لوس أنجلوس)

– (ذاك ابنى – أما هذا فهو ابن زوجتى من زوجها الأول)

– (صحيح)

– (أنه أفضل من ابنى ياعزيزى محبة واتزانا . مهندس بترول . كان يشتغل فى (الأوبك) فى لندن . والآن يشتغل للعربية السعودية) .

– (إذن فـمن هو الذى ذكـرت أنه فى فيـرجـينيـا ؟ ظننت أنه ابن زوجتك من زوجها الأول)

— (لا ، أنه روبرت ، صـهـرى ، أمـريكى ، تزوج من ابنتى هنا فى طهران . وبنتى خبيرة كمبيوتر آى بى ام)

— (اسمها فيرجينيا ؟)

— (لا اسمها فيروزة . وروبرت يعمل الآن عند أخى زوجته وهو ابنى البكر من زوجتى الأولى)

— (من فضلك أعطنى هذه السيجارة لأشربها الآن)

فيضحك ويمد إلى العلبة (صدعت رأس حضرتك الشريفة !)

— (لا ، لكن معدتى الشريفة مضطربة)

— (عندى بعض الجوز والفسدق بأسفل العفش اسمح لى فأنا مستعد لفتحه ..)

— (لا .. لا ، سوف نخرج من هذا المكان سريعا ثم أتناول شيئا)

وحدود الثالثة والنصف أو الرابعة يخرج فى النهـاية آخر راكب من ركاب أتوبيسنا من صالة الحدود التركية . وأظن أن أغلب المسافرين لابد أنهم يشعرون مثلى بالجوع والإرهاق ، لكنهم ، وعلى غير المتوقع ، سعداء مستبشرون وفرحون. وعقدت الأحمال والمنقولات مرة أخرى والأتوبيس على أهبة الانطلاق . وأرى عباس أغا مرندى داخل المرآة ، مبتسما وهو يدير محرك الأتوبيس ويجذب إليه يد الفرملة ولا ينطق بحرف . فقط يذكر أنه يوجد على بعد اثنين أو ثلاثة كيلو مترات مطعم كبير فيه الأكل (وكل شئ) ويصفق أغلب المسافرين .

ونتقدم فى داخل الأراضى التركية بعد تناول الغذاء والاستراحة قبل الغروب والجو لا يزال باردا وتتجه الشمس بسرعة نحو المغيب والغروب . ولا

أشعر بأننى فى بلد مختلف . نفس نفير الأتوبيسات ونفس المسافرين . السهول والتلال منبسطة وعارية، والتلال المتموجة الشكل هنا هى استمرار لنظيراتها فى إيران . نفس الطبيعة هنا . والطير أيضا هائمة وسط الرياح . سهيلى الآن أكثر سعادة ونشاطا . أمسك بورقة وأخذ يحسب سائر النفقات التى أنفقناها مشتركين أنا وهو من طهران حتى الآن وقمت أنا بدفعها مثل العشاء والغذاء وغيرهما . ويكتب الأرقام باللاتينية بخط جميل جدا ويحسب بدقة . ثم يقسم حاصل الجمع على اثنين ويخرج من حقيبته كل ماالديه من الليرات التركية ويعطيه لى . وكان قد فك بعضا من العملة وهو بالجمرك ولا أريد أن أخذ منه مالالكنه يصر ويقول الحساب حساب مع العم والأخ. وحين أضع ما أعطانى من نقد داخل حقيبتى يسألنى

– (صورة من هذه ؟ أليست أختك ؟) لايكف أبداً عن فضوله .

– (لا إنها ثريا)

– (جميلة جدا . إن شاء الله سوف تتحسن)

– (الأمل فى الله)

– (من يدفع تكاليف المستشفى هناك ؟ تأمين)

– (لا أدرى . لابد أن أبحث الموضوع حين أصل . يبدو أن الطلاب يعالجون بالتأمين الصحى طالما هم بالجامعة . لكن ثريا تخرجت من ثلاثة أشهر وكانت تريد العودة حين صادفتها الحرب وأقفلت المطارات . ثم حدثت لها الحادثة)

– (إذا لم يكن لديها تأمين فماذا تفعل ؟)

- (أدفع من جيبى !)

- (عندك هناك عملة صعبة ؟)

- (لا ، ليس عندى شئ . أختى أيضا ليس معها . لابد أن نسوى الموضوع)

ماشاء الله لايكف عن الكلام .

- (صعب .. إرسال النقود) .

وأطرق سهيلى هنيهة ثم يقول : (لابد أن أختك كانت تود من قلبها أن ترافقك فى السفر) .

- (لا يمكنها) .

- (لم يسمحوا لها ؟ أليس لديكم شهادة من المستشفى ؟)

- (طبعا ، كانوا سمحوا لفرد واحد)

- (لماذا لم تسافر أختك بنفسها ؟)

- (أختى مصابة بعرق النسا ، ومقعدة تقريبا)

- (قلت قبل إن زوجها مات)

- (أجل، كان طبيبا بشركة النفط ، أصيب بالسكته والعمر الطويل لك!)

- (الدنيا ماهى الامعبر أيها المحترم آريان)

ويهدينا الطالب الألمانى الباقلاوة ويخلصنى من شر تحقيق سهيلى لفترة.

ونقضى تلك الليلة فى (أرضروم) فى فندق (هيلون) الصغير الذى

يمتلئ بالضوضاء والحشرات ونأخذ أنا وسهيلى حجرة بسريرين يظل فى داخل أنابيب تدفئتها الجنود العثمانيون حتى الصباح فى الحرب والطعان . ويتألف مبنى الفندق من أربعة طوابق أو خمسة به درج خشبى ضيق وغرف متسعة طلقة ، وكان كلما خرج شخص من الطرقة أو صعد الدرج يذكرنى هذا المبنى الخشبى بنواح مذابح الأرمن . وأتناول أقراصى وأظن أننى سوف أنام جيداً ، ونتحرك فى الصباح بعد إفطار متعجل . وينفصل عنا الطالب المبعوث إلى ألمانيا والسيدة كيومرث بور القاصدة باريس وبضعة نفر آخرون من المسافرين فهم سوف يأخذون الطائرة .

ونقضى اليوم التالى بأكمله مسافرين فى الأراضى التركية وننام الليلة الثانية فى (أنقرة) فى فندق لايفضل كثيرا فندق هيلون أرضروم . واليوم التالى بنفس الوتيرة . وكل المناطق التى مررنا بها تماثل مناطق إيران كثيرا ، الطرق المهشمة ، الأشجار العارية ، المدن الصغيرة والقرى ، كمدن إيران الصغيرة وقراها ، أغلبها جميل لكنها غائصة فى الفقر والطين والوحل . الأودية خاوية والحدائق أقفرها الخريف ، وتمتلئ الطرق بالشاحنات العسكرية . ولِبْسُ الجنود من (أحذيتهم) إلى خوذهم وأسلحتهم ومهماتهم العجيبة الغربية كلها مصنوعة فى أمريكا . كانوا يوقفون الأتوبيس كل بضعة كليو مترات ويفتشون كل شئ . وكان الأتوبيس يتحرك ببطء حينا فى حوالى المدن الأكبر ، لأن ناقلات الجنود والدبابات تروح وتجىء إلا أن عباس أغا مرندى يتوقف مرة كل بضع ساعات حيثما يحب ويشتهى. فهو محب للبشر والانطلاق ويعجبنى هذا فيه كثيرا . كنت أود أن أعرف ماعنده فى طهران خلفنا وأى حياة يمضيها ، أو أضيفه

ليــــلة فى مكان ما بأى شئ :

ليلة بالمنزل ومائة بالغربة / إلام تجرنا أيها الاتوبيس الذى لا أب لك . حيناً كـان يغنى هذا البيت الشـعرى بلحن أغنيـة (هايدة) ويرد عليـهـا مشاركان حين تغنى : فى بداية غرامنا كم كان حديثنا شاعريًا .

على أية حال يصل بنا بعد ثلاثة أيام من السفر بأى شكل ونحن فى غاية التعب والإرهاق إلى آخر نقطة لنا فى تركيا أى استانبول ويعود من وجهته مسافرا أيضا .

نزلنا فى بداية الليل أمام جاراج (تى بى . تى) باستانبول فى جزء مـزدحم من المدينة ويغصّ بالفناق الكبيـرة والصـغيـرة . واختـفى كل من المسافرين تحت ضباب الليل بعجلة أو بتأن . وندخل أنا وسهيلى ، كما كنا بالسفر ، فندقا صغيرا قريبا من الجاراج وقابلنا أناس ذوو أدب وحلاوة طبع وظرف كـأغلب الأتراك ، وحين أدركـوا أننا إيرانيـون عـاملونا بحب ولطف وأنزلونا بحجـــــرة بهـــا ســريران (فخمـان) . والحجرة تتسع كثيرا عن غرفة التليفون . لكن الشئ الوحيد الذى أريده بعد حمام طويل هو أن أروح فى سبات عميق طويل .

— ٤ —

فى ظلام الليل كنت بالدور الأول من المستشفى رقم ٢ لشركة النفط الوطنية الإيرانية ، فى عبدان بقسم العيادات خلف المكتب الذى كان لفترة غرفة مدير المستشفى أو كما يعرف بـ (ward Master) . أتوا بنا الليلة مؤقتا إلى الغرفات المطلة على مجمع الماء لبعدها فيما يبدو عن طلقات الرصاص ودانات مدافع الهاون . ومع أن حالتى أفضل الآن إلى حد ما وكنت أعاون أثناء النهار حتى بضع ساعات فى حمل الجرحى ونقلهم أو حمل الموتى أو دفع نقالات المصابين والكراسى ، لكن الصداع المؤلم بدأ منذ عصر اليوم فى جعل رأسى ثقيلة وأذهب لأمدد جسدى . بعد ذلك فى الغروب حين أخذ العراقيون يضربون مجمع النهر بالصواريخ من الطائرات العمودية وتحطم أغلب زجاج الأبواب والنوافذ فى هذا القسم من المستشفى ،

ظلت أصوات الانفجارات الهائلة تلف طوال الليل داخل رأسى . تلك الليلة ذاتها السوداء التى أصابت فيها قنبلة ابنة السيد (كاتوزيان) أمام منزلها وهى بداخل سيارتها ، وأتوا بها بعد ذلك إلى الغرفة المجاورة بعد أن قطعوا قدمها .

كانت الليلة بطولها عاصفة وظلت تزمجر خارج النوافذ الرياح الشديدة الهادرة ، بينما تعالى عواء الكلاب من مكان واحد ، وتدخل الرياح والمطر علينا من خلف الشبكات الحديدية والزجاج المكسور ، ولا تجدى أوراق الصحف والكرتون التى ثبتناها على النوافذ . وكان تبادل النيران شديدا يسبب الغشيان حينا خاصة فى الطرف الأيمن للمبنى الذى لا يبتعد كثرا عن الشاطئ والحدود العراقية . وأتمدد وقد تجرعت كثيرا من الأقراص فى الظلمة بلا حس ولا حراك ، لكن النوم يجافينى وأسمع أصوات العاصفة والقنابل والمدافع وحينا تختلط فى بعضها الأصوات بحيث لا يميز السامع بين انفجارات المدافع والصواريخ زمجرة الرعود . وحينا يضئ أغلب الحجرة برق شديد خلف النافذة . وأرى المطر والدخان كأنهما معلقان بسماء المدينة الملتهبة التهابا بين أشجار العرعر . ولا تكف بنت كاتوزيان التى لم تمر أكثر من بضع ساعات على عمليتها الجراحية عن صراخها إذ علمت أن فوق قطع قدمها قد قتل أبوها وأصيبت أمها فى بطنها بشظية من قنبلة .

وتشتد العاصفة بعد منتصف الليل ويدخل المطر فى خرير الغرفة ، ولابد أن الغرفة المجاورة أسوأ حالا لأن بضعة المرضى بها ومنهم ابنة كاتوزيان نقلوا إلى الطرقة . وهدأ قصف المدافع وتبادل النيران الشديد بعد ذلك لكنه مايزال يسمع أصوات طلقات الرشاش والمدافع فلا تزال الحرب دائرة حتى فى جنح الظلام . وأشعر بالآلام تجتاحنى والنوم غادرنى بسبب أقراص

الصداع ، لكنى أدرك أن آلامى أمام معاناه ابنة كاتوزيان المعذبة لا تعد شيئا، فقد استمرت نوحاتها الهيستيرية الفاجعة وهذيا نها وصراخها باللغة الأرمنية طول الليل .

وفى صباح يوم الجمعة ٧ آذر ١٣٥٩ هـ . ش الموافق ٢ نوفمبر ١٩٨٠ م فى مدينة استانبول بفندق أبرولار ذى الثلاثة نجوم ويجوز أنه أربعة نجوم فى شارع مصطفى كمال لا تجد خبرا عن انفجارات عبدان ومائها وشهدائها . وانتهت أيضا أصوات محرك أتوبيس (تى بى تى) ولغط ركابه وصوت عباس أغا مرندى وليس غير وهاب سهيلى الذى نهض من نومه على السرير الذى بجوارى وغسل وجهه ورأسه وحلق لحيته لكنه أبقى على شاربه ملمعا وأخرج من حقيبته ملابس فاخرة وتهيأ على أبهى منظر ، وأخذ يمشط شاربه أمام المرآة ، وكان يتنغم من تحت شفتيه بصوت خافت ناعم متوافقا مع حركات يده بالمشط .

وحين رأى أنى صحوت ألقى عليه تحية الصباح ثم قال :

– (أى صباح جميل هذا .. ياسيد آريان . اسمح لى أن أتناول معك إفطاراً محترما فى مدينة استانبول الرائعة) .

– (صباح الخير . على عينى)

– (إفطار محترم ، لا زبالة مثل الزبالات التى كنا نأكلها داخل تلك المقاهى التى كان يقف بنا عليها بالقوة الحمار عباس أغا)

– (موافق) ثم أسأله (لابد أن أسارع بالذهاب الى مكتب الطيران الوطنى الايرانى) .

(اليوم الجمعة . هل يعملون ؟)

– (يعملون اليوم ، فأيام الأحد هنا هى أيام العطلة)

– (إذن لابد من الذهاب حالا) وأقوم وأجلس .

– (كيف حال ر أسك يا سيد آريان ؟)

– (بخير)

– (البارحة كنت تقوم فازعا كثيرا من نومك – هل كانت أحلامك مفزعة ؟)

– (لا شى)

– (كانت أنفاسك تتزدد داخل صدرك ، وكأن نواحا طويلا كان يفزعك من النوم – فعلا كان ينهضك من فوق الوسادة)

– (آسف ، أزعجتك)

– (لا ، معذرة ، وأنما هذا هدية قتال عبدان)

– (ماهديه قتال عبدان ؟)

– (هذه الكوابيس وهذا الفزع فى النوم)

– (بعضها .. كيف حالك أنت ؟)

– (بخير ، أشكرك) .

ولم أتفوه بكلمة عن أحلامى . بلغ الحال بى بسبب الليالى الأولى للحرب بداخل المستشفى أننى لم أكن أقوى على و ضع رأس على الأرض ولا يدأمخى الملعون فى الهياج . ويسترسل سهيلى : (أنا تحت أمرك ، لى معارف هنا أيضافى الخطوط الجوية الإيرانية) . وأتذكرأنه قال أنه أمضى

زمنا يعمل فى هذه الخطوطوغيرها ، فأرد (قيل لى فى طهران أن الخطوط الإيرانية اتفقت مع الخطوط التركية أن تنقل مسافريها عبر أوربا ، يجب أن أتحرى هذا الموضوع) .

فقال (يمكن أيضا أن نستفسر عن هذا الموضوع من موظفى الخطوط الإيرانية، فأنا أعرف بعضهم هنا . وأنالى سابقة فى هذه الأمور . وعلى أن أحجز تذكرتى لكراتشى . تأشيرة دخولى أمريكا جاءت فى القنصلية الأمريكية بها . حصل عليها لى أصدقاء من واشنطون . لكنى لست متعجلا لكن بما أن سيادتك على عجلة ويجب أن ترى قريبتك المريضة فى باريس فنبدأ بك أولا)

– (شكرا لك)

– (لكن نفطر أولا إفطارا شهيا معك !)

– (أتحب أن تطلب أن يصعدوا بالإفطار لنا هنا ؟)

– (لا ياعزيزى ، تفضل وارتد ملا بسك وننزل إلى المطعم .. عدنا الآن إلى الحضارة !) وبعد ساعة تقريبا ، بعد تناول عصير الفاكهة وثلاث بيضات محمرة مع المقانق والطماطم والخبز والزبدة والمربى والجبن والقهوة التركية الكثيرة تحسن حال سهيلى (وله معدة تهضم الحديد كما يقول) كثيرا عن أول مرة . وأتى معه أيضا بآلة تصوير أفلام نصف متر ماركة (كانن) واستفسر من عامل الفندق عن محل بيع الأفلام (السوبرايت) ، قلت له (الأفضل يا سهيلى بيه أن نسرع بالخروج إلى مكتب الطيران الإيرانى)

– (أجل ، أنافى خدمتك)

- (هل تعرف عنوانه ؟)

- (لا أذكـــره الآن ، لكن بمقـــدورى أن أســـال عنه مكتب الاستعلامات بالفندق أو من داخل دليل التليفونات . ثم نخرج . وأريد أن أشترى فيلما أو إثنين من السوبرايت ، فمناظر هذه المدينة جنّنتنى ، ولم يكن لدى فرصة فى المرات السابقة لكى التقطها ، لكن هذه المرة ليس لدى غير الوقت ..)

- (تفضل نمشى) .

ويقع مكتب الطيران الإيرانى فى شارع (الجمهورية) ، فنستقل إليه سيارة أجرة .

ومع سهيلى حق ، فالصباح جميل وصاف ، ويصعد بنا التاكسى من شارع (الشعب) داخلا شارع أتاتورك ، وبعد عبور كوبرى أتاتورك يتجه إلى شارع الجمهورية . وعلى حافتى الماء وقفت الأبنية الشاهقة المتينة بطرزها المختلطة المتداخلة من الشرقية والغربية ، القديمة والحديثة (من الحضارات العثمانية والبيزنطية والرومانية والحضارة الأتاتوركية وناطحات السماء الأمريكية) وقف كل منها بجوار الآخر .

وفى الناحية اليمنى منا يقف كوبرى (غلطه) ، وبعده ، مضيق البوسفور يمتد بهدوء تحت السماء الزرقاء التى يعلو بها قليل من السحاب السميك الأبيض . ما أجمله ، لا يضيرنى لو مكثت هنا أياما أخر لو لم يكن فكرى مع ثريا بالمستشفى فى باريس .

ولما نصل مكتب الطيران الإيرانى كانوا قد فتحوا من فترة . لكن

المكتب خال صامت ساكن ويأخذنى سهيلى بعد السلام والتحية واحتضان كل الموظفين تقريبا إلى موظف جالس لا يعمل وأمامه جهاز كمبيوتر (U.R.Y.) ، فيسلم عليه ويحتضنه أيضا .

– (لا تذب الذباب أو تجلس بلا عمل أيضا ياسيد آذرى ، هه)

– (لا يا سيد سهيلى .)

– (السيد آريان له خدمة عندك)

– (آه ، على عينى) يقولها آذرى بلهجة تركية جميلة ، وقد ارتدى بذلة فاخرة جدا من الجباردين ، وقميصا أبيض بياقة منشاة لامعة ورباطة عنق (كريسيتان ديور) . ومسبحة جميلة من الكهرمان بين أصابع يده اليسرى .

قال سهيلى (مسافر إلى باريس ومعه تذكره الطيران الإيرانى ، وقالوا له فى طهران إن اتفاقا عقد هنا فيما يبدو على أن تنتقل الخطوط التركية من معهم التذاكر الإيرانية ، فلو تفضلت بحجز مقعد له)

ولايقول آذرى غير (من فضلك التذكرة والحواز)

فأعطى آذرى الجواز والتذكرة فيأخذهما ويتفحصهما (التذكرة مخفضة أربعين بالمائة من شركة النفط) ويهز رأسه . ويذكر سهيلى بعض كلمات من ورقة الموافقة على سفرى إلى باريس . ثم ينظر آذرى إلى ويسألنى (متى تسافر ؟) فيرد سهيلى (السيد آريان يود السفر بأسرع ما يمكن)

وأقول (اليوم إذا أمكن ، وليس علىّ غير أن أعود إلى الفندق و أحمل

حقيبة ملابسى) ويرد آذرى (عندهم طيران كل يوم فى الساعة الحادية عشرة والنصف والثالثة والنصف إلى باريس) .

– (اليوم الثالثة والنصف مناسب جدا)

ويرفع آذرى سماعة التليفون.

وحينما كان سهيلى يثرثر مع موظف آخر فى أحد الأركان يحجز آذرى مقعدا لى بمكالمة قصيرة بالتركية والانجليزية . رحلة THY 616 (شركة الخطوط التركية) بوينج ٧٢٧ التحرك من مطار (يشيلكوى) باستانبول الساعة ١٥/٣٠ ظهيرة اليوم بلا توقف ، الوصول إلى مطار أورلى الساعة ١٨/٥٥ بعد ظهر نفس اليوم . ويكتب هذه المعلومات على ملصقة برتقالية اللون ويلصقها بتذكرتى ويختمها ويقدمها إلى بكلتى يديه .

يقول ضاحكا (أوكى ؟ ..) وتأخذ الأمور من لحظة إلى أخرى إيقاعا أشد حماسة .

– (تمام ؟)

– (مع السلامة)

– (ممنون)

– (جعلت فدا سعادتكم)

– (هل من مقررات أخرى ؟ تسليم الجواز ؟ إذن بالخروج ؟)

– (لا ياسيدى . هنا لا يعرفون هذه الألاعيب الروتينية المدوخة)

– (هل المطار بعيد من هنا ؟)

– (على بعد عشرين تشيلو متراً .. تأخذ تاتشيا)

– (أوامر أخرى ؟)

– (أن تسافر إلى باريس بأقصى ما يمتشن)

– (إن شاء الله)

(مع السلامة سيادتش)

– (شكرا ياسيد آذرى)

وحان وداع وهاب سهيلي أيضا . ويضغط سهيلي على يدى بداخل يديه ويتمنى لى من صميم روحه وقلبه أن تتحسن حالة بنت أختى برحمة الله الرحيم المعين . ويوصينى بوصايا كثيرة أخرى ويتمنى أن نكون على اتصال فى المستقبل حين يسافر إلى أمريكا وأعود أنا إلى إيران . وحين نريد أن نتبادل العناوين للاتصال مستقبلا نجد أن ليس لنا فى هذا الوقت عنوان أو مكان على الحقيقة . فأنا شردتنى الحرب ويحتمل ألا أعود إلى عبدان حيث بيتى بشركة النفط . ووهاب سهيلي قد هاجر من وطنه وعليه فلا عنوان لى فى هذه الدنيا غير بيت أختى فأعطيه له ويقبلنى . وتشع شعرات حاجبيه السوداء والبيضاء وعيناه البنيتان الفاتحتان . ولا أصدق الآن أنه وضع فى بطانة معاطفه وجاكتتاته القديمة (٣٨٠ ألف جنيه استرلينى) شيكات سياحية وأوراق الدولار النقدية . كما لم أكن أصدق أن تأشيرة أمريكا كانت تنتظره فى القنصلية الأمريكية فى كراتشى ، كما لم أكن أصدق أنهم انسالوا داخل بيته عليه وحبسوه فى (أوين) . وبعد احتضان يودع أحدنا الآخر .

وأعود بتاكسى إلى الفندق ، بعد دفع الحساب وحمل حقيبة ملابسى

الصغيرة أصل للمطار مبكرا نحو ثلاث ساعات . وفى مطار يشيلكوى يقال لى فى أحد شبابيك (الطيران التركى) أن رحلة الطيران رقم ٦١٦ المتجهة إلى باريس سوف تتحرك في الثالثة والنصف . وأنا أول مسافر يراجعون أراقى قبل الطيران وبعد هذه المراسم أدخل صالة الترانزيت . وأتحدث بالهاتف من إدارة الاتصالات الصغيرة بالمطار إلى (فرنجيس) وأعرفها وقائع سفرى ورحلة طيرانى وأنى سوف أصل باريس السادسة مساء ذاك اليوم ويسعدها ذلك وأعدها أنى سأعيد الاتصال بها بعد أن أرى بعينى ثريا .

وأشعر أنا نفسى سريعا بالاطمئنان . ولا يبقى غير ساعتين على الطيران وأذهب إلى فرع البنك وأغير كل ليرة تركية ونقد إيرانى بقى بجيبى إلى فرنكات فرنسية . ثم أشترى كتابا من مكتبة صغيرة بصالة الترانزيت . رواية (كلاب الحرب) تأليف فردريك فورسايت الروائى الإنجليزى . وأجلس فى ركن أحد المطاعم العديدة وأتناول فنجاناً رائعا من القهوة التركية المُرّة وأشغل نفسى . وفى الثالثة ينادى على مسافرى الرحلة ٦١٦ . وبعد أن يصف اثنان من موظفى الخطوط التركية سائر المسافرين ويحافظا على استعدادهم يراجعان كروت الصعود ويصحباننا فى طابور واحد وسير منتظم إلى بوابة الخروج رقم ٢٦ وإلى داخل الطائرة . وفى الثالثة والنصف تماما ترتفع الطائرة بهدوء وترسل الشمس الزاهية والحارة بأشعتها من النافذة الصغيرة والبيضاوية الشكل . الجو صاف والسحب تتعلق بأسفل والأرض بأسفل منها . وعلى ارتفاع اثنين وثلاثين ألف قدم عن الأرض يصفو الهواء دائما . وحين نعبر سماء بلغاريا ويوغوسلافيا يقدم لنا وجبه للغذاء طيبة تشمل مشهيات الأطعمة البحرية والدجاج والأرز المفلفل مع القهوة

الممتازة والساخنة ، وبعد الغذاء أخرج كتاب (كلاب الحرب) وأبدأ فيه . ويدور فيما يبدو حول بضعة نفر من العملاء العسكريين المستقلين الدوليين الذين نصبّ عملهم على التعاون مع المسؤلين الإنجليز وقلب الحكومات الإفريقية الواهية . لكن لا أستطيع أن أركز فكرى وأمضى متزنا إذ يضغط تفكيرى فى ثريا بشدة على مخى كله .

ونعبر فى وضح النهار سماء النمسا وألمانيا .

وفى ضوء الشمس وقت الصباح يؤتى بالجثث إلى قسم الأطفال الذى انقلب الآن إلى صالة طوارئ المصابين ، جثة عباس ومرتضى والباقين . كل منهم فوق نقالة مستقلة. وأدفع أنا نقالة مرتضى إلى حجرة العمليات . وكان الدم لا يزال يتدفق من حلقه .

وهما أخوان أرسلا من تعبئة للمستضعفين بأليكودرز إلى الأهواز . كانا قد تلقيا تدريبهما فى اللواء الثالث للجيش فى (كمبلو) لمدة ستة أسابيع . عباس ومرتضى شبستانى ، كان عباس فى التاسعة عشر وقد عشق الاستشهاد ، فترك عمله كصبى ميكانيكى ودخل الخدمة العسكرية . وكان مرتضى يصغره بثلاث سنوات ترك السنة الثالثة فى المرحلة الإعدادية كان يحب كثيرا أخاه وكان يتأسى بعباس أخيه فى كل عمل يعمله فالتحق مع أخيه الأكبر بجيش العشرين مليونا . وفى الثالث من شهر مهر دخلا عبدان وكانا يخدمان فى لجنة مسجد زنكوبى بالقرب من إدارة ملاحة جمرك عبدان . وفى ليلة التاسع عشر من مهر كان مهر عباس ومرتضى وبرفقتهما أربعة حرس آخرون فى التحصينات أمام حديقة المنزل رقم واحد فى (بريم) بمواجهة نادى النفط على شاطئ النهر .

وكان هؤلاء الجنود الستة يتناوبون الحراسة كل ثلاث ساعات . وكان مرتضى وحارسان أكبر سنا منه من لجنة (حسينية أصفهانيها) يقومون بالحراسة من التاسعة حتى الثانية عشرة ليلا بالرشاشات (ج ٣) و الـ (آربى جى سبعة) والقنابل اليدوية . وكانت ليلتها من الليالى المحتمل إمكانية هجوم العراقيين فيها على قطاع النهر . لكن حتى منتصف الليل لم تقع حادثة إلى حد أن مرتضى كان غلبه النوم وهو بداخل تحصينه وهو ينتظر تغيير نوبته فى نصف الساعة الأخير ، جلس على ركبتيه والرشاش فى يده وقد أسند رأسه نائما على رشاشه . وكان رفيقاه الآخران فى التحصين متيقظين مفيقين مع أنهما كانا يشعران بالتعب فى الدقائق الأخيرة ، أحدهما نجف كريمى ولد رقيق من أحمد آباد ، وكانت عيناه على مبنى قاعة (أنكس) التى كان الجنود فى المطبخ يستقرون وراءها . كان نجف ينتظر عودة المناوبين الذين سوف يتسلمون دورهم منهم .

ولم تبق غير دقيقتين أو ثلاث ويبلغ الوقت الثانية عشرة منتصف الليل حين كان مرتضى لا يزال نائما . ويرى نجف ظلالاً تتحرك فى الظلام . تظهر الظلال أولا من خلاف السور الكبير الآجرى لأنكس ثم تتقدم متسللة من ناحية أشجار البقس بموقف السيارات . يعرف هياكل رفاقه وهيآتهم . عباس شبستانى فى المقدمة ثم يتلوه سيد مصطفى خبازى ثم جعفر جراغى. انتهى الانتظار الطويل والمرهق . ويضرب نجف على كتف مرتضى شبستانى بمرفقه (استيقظ ، أتوا) . وفى ثانية واحدة يقوم مرتضى من نومه مبهوتا فزعا (أتوا ؟) (نعم ، لا تخف ، وراءنا ، تحت البقس !)

ويتقهقر مرتضى ويطلق نيرانه ، ويستشهد الجنود الثلاثة بتتابع طلقات

رشاشه (ج ٣) أولهم أخوه عباس .

في ذلك اليوم فى الصباح الباكر تأتى الجثث الثلاثة إلى المستشفى وأرى مرتضى لأول مرة فكان من بين الجرحى حاول أن يقطع عنقه بخنجر. ولد صغير السن لم يبلغ حتى السادسة عشر ليس غير الشعر الناعم أسفل أذنيه .

ويعزى أحد أخوة الجهاد مرتضى ويطمأنه أنه لم يكن مقتصرا فى نظر الله وحكمه ورحمته وبلغ أخوه بإرادة الله فيض الشهادة .

والطريق الوحيد الذى يمكن مرتضى أن يلحق بأخية عبّرَه هو أن يلقى الشهادة فى سبيل إفناء الكفار البعثيين ويدخل الجنة .

— ٥ —

نهبط بمطار (أورلى) والوقت مقبل على الظلام . وبعد أن ندخل أنفاق المطار أتتبع متعجلا اللافتات المكتوب عليها بالفرنسية (الوصول) . قلبى يدق بشدة وبدور وسط عقلى شئ كعجلة طاحونة تآكل حجرها . وأصل إلى قسم مراقبة الجوازات . وحضرت الاستمارات التى ملأتها بعد أن أعطوها لى فى الطائرة وجواز سفرى وبه تأشير الثلاثة شهور المعتمدة لدخول فرنسا . ويراجعها ضابط الجمرك . كل شئ مضبوط ؛ لا يسألنى سؤلا ويوقع على الجواز ويختمه وخاتمه تك ، تك . انتهى (مرسى مسيو !) ولا أتأخر ثانية . وبعد هذه المراسم أدخل القسم الأمامى للصالة والتقط حقيبتى الصغيرة من قسم الأمتعة . وأخرج قبيل الغروب . الجو بارد وتلطم وجهى ريح آخر الخريف الشديدة الباريسية . وأتجه من أمام نفق المطار نحو

موقف التاكسيات حين أواجه السيد (نادر بارسى) الشاعر والمؤلف والمترجم والكاتب المسرحى والفنان المسرحى والسينمائى الإيرانى. وكان فى طريقه الى دخول صالة المطار ومعه زوجته الممتلئة ، وأعرف بارسى في طهران من سنوات مضت سنوات بعيدة جداً ، وبيننا علاقة طفيفة ، ونتصافح، وبعد التسليم والترحيب يقدمنى الى زوجته (سارا) ويقول إنهما أتيا لاستقبال أخت زوجته القادمة من أمريكا . وقد لبس كلاهما ملابسه الفاخرة ، ارتدت زوجته معطفا من الفراء أسود ورماديا وقبعة كاردينالية . أما بارسى فقد ارتدى معطفا طويلا جلديا أسود وكاسكته ذات زغب وأنا بمعطفي الشمعي القديم الشبه العسكرى لا أزيد عن الشيال المهلهل الذى يحمل حقائبهم ، وأبدأ فى وداعه .

– (حسنا يا نادر) .

– (هربت أنت أيضا بجلدك ؟)

– (نعم)

– (إلى اين أنت ذاهب ، أين محل إقامتك ؟)

– (أنا فى طريقى إلى المستشفى ، ولا أعرف فى الحقيقة محلا للإقامة)

– (المستشفى ؟)

– (بنت أختى وقع لها حادث تصادم وهى فى غيبوبة منذ أيام عديدة وحالتها سيئة وانفطر قلبى عليها فأرسلونى لأرى ماذا نفعل)

– (كيف سمحوا لك بالمغادرة وسط ظروف الحرب وإغلاق الحدود هذه ؟)

- (الحمد لله)

ويضحك بارسى قائلا (حسنا ، أتمنى أولا أن تتحسن حالة بنت أختك ياجلال ، وأظنك الآن على عجلة من أمرك ، أنظر هذا رقم هاتفى .. خذه واكتبه فى أى مكان فى دفترك . واتصل بى غدا عصرا)

يذكر لى الرقم وأدونه بظهر غلاف تذكرتى

- (وهو كذلك)
- (على عينى)
- (الإيرانيون هنا كثيرون ، تعال وتعرف عليهم)
- (طبعا)
- (نقعد معا بعضا من الوقت لنجدد ما مضى ، ربما ضحكنا قليلا ، ولماذا لا نضحك ؟ ما شى ؟)
- (ماشى)

ثم يقول بارسى (انظرى ياسارا ، الشئ الوحيد الذى يعرفه هذا الرجل فى هذه الدنيا ماشى وعلى عينى ، ولو قلت له ياجلال آريان إحمل على رأسك جوال مسامير واصعد قمة جبال قاف لأن هناك رجلا يلزم تابوته مسمار لقال لك : ما شى ، على عينى .. فتعالى لنراك)

وأسأله (هل ترى ، ليلى آزاده ؟)

- (نعم ، ليلى موجودة هنا أيضا مع أنها كانت مريضة لفترة ، لكنى سمعت أنها عوفيت وغادرت المستشفى)
- (حسنا لابد أن أترككما) .

– (إذن لابد من الاتصال بنا بالهاتف)

وتقول زوجته أيضا (أجل لابد من الاتصال)

– (على عينى)

– (أراك ..)

– (مع السلامة)

ويدخل هو وزوجته النفق وأبحث عن موقف التأكسيات ويبدأ قلبى فى الخفقان وتنتابنى حالة من الضعف . وأسرع وآخذ تاكسيا واذكر اسم المستشفى للسائق ، والبقية معروفة .

– (مستشفى ڤال دى جراس ، من فضلك)

– (أجل ياسيدى)

وحقيبة يدى وملابسى صغيرتان ولايلزم وضعهما بشنطة السيارة ، ولا يتطلب هذا التاكسى ذو المقاعد الأربعة مسافرا آخر فافتح الباب ويتحرك .

وجثم الآن الغروب على باريس وأخذت قطرات المطر تتساقط ويسرع سائق التاكسى ولا أعرف مساره ، لكن بعد مدة ندخل منطقة مرور مزدحم ، وبعد نصف ساعة تقريبا أتعرف على شارع (مونپارناس) وبعد بضع دقائق يقف التاكسى على مقربة من المستشفى وأشعر باضطراب الضعف بداخلى. ويدلنى السائق على مدخل المستشفى فى تقاطع شارع (مونپارناس) وشارع (سان جاك) . وأجره التاكسى بضعة وستون فرنكا فأعد سبعين وأعطيها له وأشكره .

ويشبه المبنى الأصلى للمستشفى كأنه كنيسة أو قصر عتيق ، بقبته السوداء على الطراز القوطى وهو واقع تحت ظلال النور الكهربائى الذى ينيره بنحو غير مباشر وتحت المطر ، يشبه مبنى فى أفلام « (الفريد هيتشكوك) التى تمتلى إثارة أكثر من مستشفى . وأنا بدورى فى تلك اللحظة بمظهرى وشكلى المتشرد ، وحقيبتاى بيدى لايبدو على منظر السعادة التامة أو الجاذبية .

وبالسؤال والاستفسار أصل فى النهاية إلى مكتب الاستعلامات . تجلس ثلاث من النسوة بالغرفة وأفهمهن بفرنسيتى العاجزة من المريض الذى أريده ومن أكون ومن أين أتيت ولماذا جئت .

وتستمع إلى كلامى هذه المخلوقات الثلاثة وإحداهن راهبة . ثم ينظرن إلى باهتمام متزايد وكأنى هبطت من المركز العام لبلايا الأرض والسماء فى العالم خاصة حين يسمعن أنى خرجت من إيران بالأتوبيس . وفى نفس اللحظة تدخل إمرأة كبيرة السن أخرى بلباس الممرضة أحاطت كأهلها بمعطف أرجوانى ويبدو أنها أنهت عملها وتريد الانصراف . فتشير واحدة من هذه النسوة الثلاث فى مكتب الاستعلامات إلى نحو هذه الممرضة الداخلة توا وتقدمنى إليها بأنى (السيد القادم من إيران) و (خال المريضة التى فى الغيبوبة .) .

والممرضة السنة ، جورجيت لوبلان ، ممرضة القسم الذى تعالج فيه ثريا . فتقول أيضا (يا الهى) وتبادر إلى تحيتى . ثم تقول أن ثريا للأسف لا تزال فى غيبوبة إلا أن الدكتور (بول مارتن) أنهى علاجه لها . مضت ثلاثة أسابيع على حدوث هذه (الحادثة المأساوية) وهم لم يعلموا بالضبط

حتى اليوم دقائق حدوث الواقعة ، يبدو أن ثريا سقطت على الأرض بدراجتها واصطدمت على أثر انزلاقها بأسفلت الشارع . أو ربما وقع لها حادث تصادم وإن كان يبدو هذا للنظر بعيدا لكنه (محتمل) . قال سائق السيارة التى وجدها وقص ما رآه أن هذه البنت الشابة أغمى عليها ولم تصب إلا بجروح سطحية فى جبينها وصدغيها . ويأتى بها هنا فى تلك الليلة (مدام كريستيان) و (مسيو فيليب شارنو) وهما من أصدقاء المريضة وكان عنوانهما فى حقيبة يدها . وكانا فى الأغلب فى تلك الفترة يقومان بزيارتها . وأقول (أجل سمعت باسميهما) فهما ممن أخبروا أختى بالواقعة .

وتعرف جورجيت لوبلان بهذه الواقعة ، لكن ، أوه هذا محزن جدا أن ثريا لم تفق أبدا لكى تشرح بنفسها ما حدث لها ، يا للأسف ، أليس هذا مفزعا ؟ كيف الحال الآن ؟ نفس الحالة ، ياللأسف . نفس الظروف . وأود إن أمكن أن أرى ثريا ولو للحظة الليلة وأعلم أننا فى وقت متأخر لكنى قطعت خمسة آلاف كيلو متر سفرا لهذا الأمر وتوافق جورجيت بحب وتفهم وتسوقنى إلى هناك بنفسها . وأضع حقيبتى فى جانب وأمشى برفقتها .

وفى طريقنا فى المصعد حتى صعودنا الدور الثالث تتحدث جورجيت بانطلاق حول الإغماء وأسبابه والظروف المختلفة لمريض الإغماء وآثاره الجانبية على جسم المريض ويتبدل القلق والهبوط الذى تجمع فى صدرى منذ دخولى فرنسا فى لحظة إلى موجة من الألم الذى لا يمكن تقريبا تحمله حين أدخل حجرة ثريا وأتقدم إلى سريرها ... لحظة الواقع المر .

كانت ثريا هناك ، أو من كانت يوما بنتا شابة وجميلة هناك ممددة على سرير بجانب الحائط بعيدا عن الشباك . ولا يظهر غير وجهها وأحد

ساعديها من تحت المحفة والبطانية . وجهها ممتقع شاحب . بدت بأسفل حدقتي عينيها المغمضتين حلقات زرقاء وسوداء . استند ساعدها الهزيل الطويل إلى الملحفة . ساكتة صامتة لا حراك بها .

إبرة المحلول تصل بعرق بوسط ساعدها ومن جنبها تخرج أنبوبة أسترة البول وتنتهى بكيس من (النايلون) بأسفل سريرها ويمتد من أنبوبة الأوكسيجين لسهولة التنفس خرطوم ضيق يدخل القصبة الهوائية من أنفها . واشتد تساقط المطر خارج النافذة وأخذ يضرب النوافذ . ولا أسمع بعد صوت جورجيت لوبلان. وأتقدم وألمس يد ثريا . يدها باردة كالقدح الصدفى السميك الصلب . لا أتصور وجود ضغط الدم أصلاً أو حتى الدم ، لكن نبضها يدق بسرعة . وانحنى وألثم جبهتها الباردة . فى تلك اللحظة لا أتذكر فرنجيس أختى .. ينحصر كل فكرى فى هذا المخلوق . ويحترق شئ داخل عينى وأحاول أن أسيطر على نفسى .

وأعود وأنظر إلى الممرضة ، فتقول (محزن جدا أيها السيد .. أعلم ذلك)

فأرد عليها : (شكرا يامد موازيل لوبلان. هل يمكن أن أقوم بشئ الليلة ؟)

– (لا لا يمكنك أن تأتى بالغد وتتحدث مع الدكتور مارتن) . وترتب معطفها على كتفيها وتغادر الغرفة . (تعال صباح الغد)

– (حاضر ، لا بد من المجئ بالغد وسوف أقوم بدفع تكاليف العلاج)

– (لا أتصور قط أن هذا أمر عاجل واضطرارى لا أظن ذلك . ملأت مدام ومسيو شارنو استمارتها تعهد وضمان . سوف أعطيك تحت عنوانهما ورقم تليفونهما .. إذا لم يكونا معك بالطبع)

– (شكرا . معى العنوان ورقم التليفون)

ونقابل بالمصادفة فى الطابق الأول الدكتور مارتن الذى قدم بسبب شكوى بعض مرضاه وتقدمنى جورجيت لوبلان إلى الدكتور .

– (دكتور مارتن ، لو سمحت أقدم إليك السيد آريان خال المريضة المغمى عليها ثريا أتى الآن من إيران . السيد آريان ، الدكتور مارتن)

ويمد الدكتور مارتن يده إلى (آه ، كيف حالك ، سعيد بمقابلتكم !)

– (وأنا أيضا يادكتور)

– (مرحبا بك في فرنسا)

– (سعيد بمقابلتك يادكتور)

ومارتن رجل في الأربعين أو الخمسين قصير القامة نصف أصلع كثير الكلام مثل جورجيت لابلان وكسائر الفرنسيين ويبدأ بسرعة في الحديث حول وضع ثريا وظروف مريض الإغماء عموما . ولا أفهم أغلب كلامه ، ولا يرجع هذا إلى أن معرفتى بالفرنسية سيئة وحسب بل لأن لم يتبق لمصباح عقلى وشعورى تلك الليلة أدنى زيت . أتيت طوال هذا السفر من ميدان الحرية ومحطة طهران التى تضرب فيها الفوضى والتشتت حتى مستشفى دوفال دوجراس بأمل واه. أما الآن فقد فقدت ثانية خاصية السمع والحواروالتصرف كالبشر والتفاهم معهم . وليس الدكتور مارتن بالذى يكف عن الكلام الآن . وبعد أن يذكر أنه على اطلاع تام بحالة إصابة مخ ثريا ودرجتها ، يظهر أن مثل هذه الحالات ليس لها وضع خاص ، وكل عامل يمكن أن يؤثر في تغيير حالة المريض .

ثم يسألنى : (هل صعدت ياسيد آريان ورأيت ثريا أم لم تصعد ؟)

– (صعدت يادكتور)

– (هل أحسست برد فعل لديها ؟)

– (ما قصدك يادكتور ؟)

فتحدث الدكتور بالإنجليزية قائلا (هل أمسكت يد ثريا وتحدثت معها؟)

–*(أجل يادكتور ، فعلت هذا)

– (هل بدا منها رد فعل ؟ أو أصدرت حركة ؟)

– (لا أظن)

– (هل أنت متأكد تماما ؟)

– (لا أظن أنها شعرت بشئ – أو على الأقل لم أنتبه إلى شيء)

– (إصعد فوق من فضلك وكرر هذا الفعل فى وجودى . وأحب أن أسجل هذا المنظر بجهاز SSR وأشاهد ، هل لديك وقت ؟)

– (طبعا)

– (حسن جدا ، هلم بنا)

ونصعد أنا والدكتور ثانية برفقة لوبلان ويحضران بمساعدة ممرضة أخرى وأحد الفنيين جهازا إلى غرفة ثريا ويوصلون بسرعة يديها وسائر جبهتها وجانبى جمجمتها بوسائل الاتصال بالجهاز . وأحس بالقلق البالغ بسبب أن تواجدى تلك الليلة فى المستشفى بعث إلى الحركة والمحاولات . فيطلب منى الدكتور أن أمسك يد ثريا وأتحدث معها ، أتحدث معها فى

أكثر الموضوعات خصوصية وعاطفة ، وأفعل ما طلبه الدكتور وأتحدث مع ثريا نحو خمس دقائق وأمسح برفق على وجهها ويدها وأقبلها . وبعد مدة يخرج الدكتور الشريط المسجل من داخل الجهاز ويقول أنه لابد أن يشاهده بدقة . ولكن لم يحدث فيما يبدو ما يتوقعه من نتيجة مطلوبة . ويشكرنى ويشايعنى حتى باب المصعد .

وأكرر شكرى لهما وأؤكد لهما أنى لا أقصد فى هذه الظروف الحالية بأى حال إخراج ثريا من المستشفى إلى أن تحدد حالتها ونتفق على معاودة المستشفى بالغد وأبحث الوضع المالى (أى دفع فاتورة المستشفى) . ولا يعلم الدكتور مارتن وجورجيت لا بلان عن الوضع المالى شيئا . ويبدو أن ثريا لا يشملها التأمين الحكومى لأنهما كانا يتحدثان عن موضوع النفقات بشك وعدم تيقن . عظيم ! وألقى على الدكتور تحية المساء . لكن الدكتور مارتن يصافحنى بحرارة ويتمنى لى إقامة طيبة فى باريس ويبدي سعادته لقدومى إلى فرنسا لرؤية ثريا . شكرا ألف مرة . وبعد دقائق عشر أخرج بحقيبتى من المستشفى .

وينهمر المطر لكنى أتقدم مترجلا من جانب شارع سان جاك . أصابنى ذهول وأصر على المشى تحت هطيل المطر . هذا الجزء من باريس أعرفه من عهد بعيد وأمشى من شارع سان جاك حتى أدخل ميدان لوكسمبورج . ثم أسير بعد سان ميشيل داخل شارع مسيولوپرنس الضيق المظلم وفندق (پالما) الذى أذكره . وهذا الفندق به حجرات خالية دائما يشبه المقبرة ويقع فى الحى اللاتينى . وحين أدخله ينزل الماء من كل جزء منى . ولايزال (سوموتجو) هنا أيضا . موظف قديم بالاستقبال له وجه

أبيض كالعجين،لا يعرف كم سنه . ويقف (سومو نجو) خلف المنصة ويعطينى غرفة . لو كان الوقت غير الوقت والليل غير الليل ولم أكن وعدت فرنجيس لاقتضى الظرف أن أذهب وآخذ بما أمر به الحكيم وآتى إلى ركن الفندق فأدفئ نفسى بنار الفحم لكن هذا هيهات !!

- ٦ -

وحين أنهض من رقودى فى الصباح كان هواء باريس لا يزال غائما كئيبا وشارع (مسيو لوبرنس) مخنوقا . وترتعش خلف نافذتى أطراف الأشجار العارية أمام الرياح ولا أرى شيئا آخر من حالة المنظر ووضعه .

وبعد أن آخذ دشا وأحلق ذقنى وأرتدى ملابسى آتى وأجلس بجوار النافذة وأفتحها وأدع الهواء المتجدد يدخل منها . وأتنفس أنفاساً عميقه وأبدأ فى أن أرى ما يمكننى عمله . أريد أولا أن أكتب إلى فرنجيس رسالة طويلة مفصلة . اتصلت البارحة بها تليفونيا لكنى أشرح لها الآن حالة ثريا كما رأيت بالأمس بالمستشفى وأكتب أشياء كثيرة لها الآن لم أستطع تفصيلها بمكالمة البارحة . وأحاول أن أكون باعثا على التفاؤل قدر الإمكان دونما كذب . ولكنى حين أنهى خطابى أرى هل يموج بالأمل والسعادة

بحيث يبعث على البكاء . قلت فى أحد المواضع (عزيزتى فرى : ليست حالة ثريا خطيرة ، بل أظنها تبعث على الأمل إلا أنها تشكل نوعا من الصدمات يجعلنا نتوقع كل شئ — حتى أن الوضع قد يزيد سوءا. وأنا نفسى لا أعرف معنى كلامى هذا !) وأنهى خطابى بالتقبيل ودعوات الخير وأطوى الرسالة داخل مظروف وأكتب العنوان وألصق المظروف وأضعه وسط جواز السفر وأوراقى الأخرى داخل حقيبتى اليدوية وأنزل بقميص جديد وبلوفر فاخر جديد صنعته فرنجيس . وأضع داخل الحقيبة علبة الأقراص التى لابد أن آخذها قبل الغذاء .

فى فندق (بالما) المتألق يحسب الإفطار مع أجرة الحجرة ، لكن القائم بالخدمة لا يعمل . يأتى المسؤول عن الاستقبال وهو المسؤول عن (المطبخ) أيضا بصينية الإفطار يحملها بنفسه . ولا يسأل غير (شاى أم قهوة؟) . وبقية الإفطار محددة : الخبز الفرنسى والكرواسان والزبدة والجبن والمربى التى تعبأ فى علب صغيرة . لبن بالشاى أو بالقهوة .

ومسؤول الاستقبال اليوم هو نفس العجوز دوفال ، فهو صاحب الفندق ومدير العمال ورئيس مجلس الإدارة والساعى والجارسون بمعطفه وبنطاله المتداخلة طياته ، وبابيونه ، وكاسكيتته وغليونه الأبدى . أقول (قهوة) فيتقدم بالصينية داخل الحجرة الصغيرة بجوار النافذة . الخبز ممتاز والزبدة ومربى الكريز . كذلك ، التهمها كلما عثرت عليها .

وبعد الإفطار أخرج وأدخل متمشيا شارع سان ميشيل وأجد مكتب البريد على ناصية شارع (دانتون) . فتح المكتب لتوه فأدخل واستفسر عن أحوال بريد إيران الجوى . وأوضاع بريد إيران الجوى ليست على ما يرام ،

فليس لإيران وجود خارجي بسبب استمرار الحرب الإيرانية العراقية وقفل المطارات الإيرانية ويرفض البريد الجوى المرسل لإيران . أقصاه أن يسافر بالطائرة من باريس إلى (أرضروم) ومنها يرسل بالبر إلى إيران ويستغرق نحو عشرة أيام أو اثنى عشر . وأضع خطاب فرنجيس فى صندوق البريد وأخرج على قدمى من هناك إلى محطة (أوديون) ومنها بالمترو أصل أولا إلى محطة (شاتليه) ومنهــا إلى محطة (فرانكلين روزفلت) وأنزل وأمشى حتى أول شارع (مونتنى) حيث (بنك إيران الوطنى) فرع باريس .

وفى البنك قامت ضجة من الطلاب المفلسين الخاويىّ الوفاض . وأفتح حسابا مؤقتا به بمبلغ الفرنكات المذكور داخل جواز سفرى بتحرير دفتر صغير وصورة فوتوغرافية وتفصيل بيانات لكى أستفيد به بمرور الوقت . وأكتب شيكا لحامله بعشرة آلاف فرنك لمستشفى ثريا لأعطيها لهم تحت حساب ، ولو بلغت فاتورة الحساب حتى الأمس نحو (١٤٢) ألف فرنك فاللعنة على خواء اليد !

وحين أخرج من البنك تقارب الساعة الحادية عشرة والنصف . ويظهر أمامى إيرانى بطول شجرة البقس ويشرح لى أن حالته الاقتصادية سيئة وأنا أشعر بالمقدرة الاقتصادية المتحسنة فأنفحه بناء على ذلك ورقة بخمسين فرنكا ، لكنى على أية حال سرعان ما أخرج من المنطقة لكثرة آكلى الجيف والمشردين والمتسكعين . وأصل على قدمى من البنك حتى ناصية شارع جورج الخامس ، وفى المنعطف أظهر على نفسى الثراء بمعطفى الواقى من المطر الفخم ذى الثلاثمائة فرنك . وأصل بتاكسى (سيتروين) إلى تقاطع شارع مونبارناس وشارع سان جاك . ولا يزال الجو غائما كئيبا

ولا يفارق مخيلتى منظر ثريا فوق سرير المستشفى ، غير أنى أشعر شعورا طيبا بالثقة والاطمئنان . وأشعل سيجارة جديدة ، ويعبر التاكسى شارع جورج الخامس وتقاطع شارع نيوريوك ومن أعلى أحد الكبارى وبعد نحو ثلاثة انعطافات يصل إلى شارع مونبار ناس . وأنزل أمام مستشفى فال دوجراس ويبدو اليوم مبنى المستشفى القديم بقبته السوداء وأعمدته القديمة وممراته الهلالية بغير لون وبالطراز الباروكى أكثر عبوسا من البارحة كأنك تدخل صومعة الراهبات والرهبان وليس مستشفى عصريا مع أن فاتورة حسابه البالغة (١٤٢٠٠٠) فرنكا عصريا جدا ، هذه هى آثار الأقدام النتنة لحكومة (جيسكار ديستان) الرأسمالية .

وفى الممرّ (٣) أرى جورجيت لابلان تخرج من المصعد المعدنى الذى يمتلئ ضجة وضجيجا ورداء تمريضها يقتحم العين ببياضة وترانى وتتذكرنى فتبتسم ابتسامة عريضة وتتقدم نحوى بنحو كأنها تريد أن توزع قبلاتها على الناس. وجهها كشريحة البطيخ التى شقت لتوها وعيناها صغيرتان فاتحتا الخضار كحبتى زيتون أخضر .

– (حسنا ، كيف حالك اليوم ياسيدى ؟)

– (بخير ، شكرا ، كيف حال ابنة أختى ثريا ؟)

– (كما هى) تقولها هازة رأسها .

– (لم تتغير ؟)

– (لا .. تريد رؤيتها أولا ؟) وأخاف أن تكون رؤيتى لها خلافا للتعليمات فأقول :

– (أريد أن أضع شيكا فى الحساب . ليس كبيرا)

– (حسن جدا .. أشكرك ألف مرة . أوه ياإلهى .. نسيت خمّن من هنا الآن ؟)

– (من هنا ؟)

– (مدام كريستيان شارنو موجودة ، هل تحب أن تتعرف عليها ؟)

– (شارنو ؟ أوه ، نعم السيدة والسيد شارنو ..)

– (الزوجان الشابان صديقا بنت أختك) وأظن أنها ذكرت أنهما فى غاية الإنسانية (أتيا أثناء هذه الفترة لزيارتها مرات كثيرة . وتعرف أيضا أنهما كانا مهتمين بها . السيدة شارنو موجودة اليوم)

– (بلا شك)

– (جميل ، أليس كذلك ؟ !)

– (أحب أن أتعرف إلى مدام شارنو)

– (طبعا . مدام شارنو الآن عند ثريا) .

ولا أعرف معنى كلمة (خزانة) بالفرنسية لدفع الحساب فى المستشفيات الفرنسية ولا أميل إلى أن أزيد حرفا آخر عما ذكرته حول تسديد الأجر أمام جورجيت لا بلان فى مستشفى على شكل معبد الرهبان المسيحيين واسمه مستشفى المبرة ، وأظن أن كلمة (السيد المدير) أسهل .

وأسألها (هل يمكن مقابلة مدير المستشفى بعد ذلك وأتحدث معه بشأن دفع هذا الشيك ؟)

– (حول دفع الشيك ؟)

– (أجل)

– (أوه ، طبعا ، لا بد أن ترى السيد ماكادام)

– (أجل مسيو مكادام)

– (نفس المبنى ، الدور الأسفل حجرة ١٢)

– (شكرا)

– (حسنا ، بالتوفيق)

– (كيف حال الدكتور مارتن ، هل يمكنني رؤيته اليوم أيضا ؟)

– (الدكتور مارتن أيضا فوق)

– (شكرا) .

ولا تزال واقفة وترمقني .

– (مدموازيل ، هل من أمر آخر تذكرينه لي عن بنت أختي ؟)

– (لا ... للأسف ليس غير ما ذكرته لك بالأمس . ينبغي الصبر حيال مثل هذه الأمور ثم نرى . أننا على أمل أن تتحسن)

– (شكرا)

– (مع السلامة) . (انتبه فقد تكون السلالم مزلقه)

– (أجل ، حاضر) .

وأصعد إلى الطابق الثالث من سلم عريض لمع مزايكه بمادة منظفة خفيفة . كان قسم (OPD) (قسم المرضى المترددين) بمستشفى عبدان يفضله في هذا أيضا . كانت صالة (أوبي دي) في اتساعها صالة مطار

يقوم بالعيادة فيها اثنان وعشرون إخصائيا من كافة التخصصات وصيدليتان تخصان العمال والموظفين .

وكانت الأرضية والحجرات حتى غرف التواليت تنظف ثلاث مرات في اليوم وترش بمضاد للعفن وكانت الأرضيات والجدران تلمع حتى أنها تبرق . لكن حالة قسم (أوبى دى) تغيرت حين نقلونا إليه في غروب ذلك اليوم بعد أن قصف المبنى الأساسى للمستشفى بالصواريخ .

والممر الطويل للطابق الثالث بمستشفى قال دوجراس خال تقريبا . وتدخل احدى الممرضات المبتدئات إحدى الغرف بصينية الدواء المدفوعة بعجلات . ويدير أحد العمال بلباسه الأبيض آلة التلميع المغطاه بالدهان على الموزايكو . وعلقت صورة ممرضة ذات شعر ذهبى وعينين زرقاوين وضعت أصبعها على شفتيها المدهونتين بأحمر الشفاه قائلة (سكوت !) وجلس بآخر الممر الدكتور مارتن يتحدث لامرأة شابة دقيقة القوام أو أن المرأة تتحدث إليه . ويرانى الدكتور ويهز من بعيد يده لى .

يتذكـــــرنى من الأمس وأدخــــل مكتبه النظيف البراق وانتحى جانبا حتى يأتى . وتظهر من النافذة ذات الزجاج الطويل فقط أعالى الأشجار وبها قليل من الأوراق الباقية التى ضربها الخريف وشقت الشمس فجأة جوف السحب فتصب أشعتها الساطعة .

أقوم بمساعدة اثنين من الطلاب المسعفين فى قسم (أوبى دى) أول الليل ويؤتى بين الجرحى بامرأة أحد العمال بطفلها . طفلها حديث الولادة يرقد بجانب أمه التي أصيبت قدماها الاثنتان بشظايا قنبلة وترقد غائبة عن الوعى . التصق الطفل بعنق أمه متيقظا ، التقم ثديها يرضعه .

وجه الأم يخفيه عباءتها ، أما قدماها أو ماكان قبل ذلك قدميها احترقتا داخل جوربيهما وتحول لونها بالدم المتجلط الى الأحمر والأسود والداكن . اختلط جورب قدمها فى لحمها وعظمها واحترق دائر عباءتها أيضا وتبقع بالدم المتجلط . امتلأت أرضية صالة (أوبى دى) الليلة بالوساخة والقذارة وعمت رائحة الدماء المنعقدة كل مكان فيها . تحطم كل زجاج النوافذ الطويلة التى كانت تطل على (sick line) ويدخل منها الدخان الأسود . أرقدوا أكثر الجرحى بجوار الحائط حتى يأتى الطبيب ويكشف عليهم . أغلب الجرحى ينطقون بالشهادتين ويقولون لا إله إلا الله وينوحون . غطي أنينهم ونواحهم وبكائهم كل مكان . الكهرباء مقطوعة لكن إحدى مولدات القوى (٤٨٠ واط) تنيرالصيدليات وغرفات هذا الجانب . وجانب النوافذ مظلم ، وفى أحد الأركان بجوارى ، يرقد أحد أفراد إدارة الأمن أصيب دماغه من أحد الانفجارات يهذى بصوت عال عن إحدى آلات صناعة الثلج . يبدو أن آلة صناعة الثلج هذه التى فقدوا مفتاحها أتوا بها من مطعم (أنكس) وتركوها على حافة النهر ثم نقلوها الى مقر الإصلاحات داخل قسم البترو كيميا . ويقترب صوت خطوات الدكتور مارتن والسيده المرافقة له .

– (آها! مسيو.. صباح الخير . كيف حالك ؟) ·

– (صباح الخير يادكتور مارتن)

– (حسنا ، كيف حالك اليوم ، ألست مرهقا؟)

– (لا ، شكراكيف حالكم يادكتور ؟)

– (بخير ، مرسى ، كلاكما بالتاكيد يجب أن يتعرف على الآخر)

وتنظر نحوى المرأة الدقيقة البنية بابتسامة وتطلع . ارتدت سرو الا (جينز) ومعطفا أمريكيا ذهبي اللون . انعقد شعرها الأسود على ظهرها ذيل حصان ولها عينان لامعتان جميلتان . يخاطبنى الدكتور (مسيو .. نسيت اسمك الأول) وأعرف أنه نسى اسمى كله .

– (جلال – آريان)

– (اعذرنى يامسيو آريان) ثم يتوجه إلى المرأة الدقيقة الجرم (مدام كريستيان شارنو اسمحى لى أقدم لك مسيو جلال آريان ، فهو خال ثريا إذا لم تخنى الذاكرة) وتقول كريستيان شارنو ضاحكة (أوه ، أجل ، صحيح . أنا أعرفه جيدا من صورة له أرتها لى ثريا . كانت تتحدث عنك كثيرا) وأهش لكريستيان شارنو وأبش لها ، وتقول :

– (أنشانتيه مسيو آريان ، سعيدة بك ياسيد آريان)

وأرد عليها أيضا (انشانتيه مدام) يدها بارزة العظام لكنها قوية كأيدى القرويين ويقف إذ ذاك الدكتور ساكنا سعيدا ويدع شارنو تحاورنى ، تقول :

– (ماذا يحدث فى إيران ياإلهى ؟)

– (الثورة والحرب .. وأشياء كثيرة أخرى)

– (ياربى !)

– (الأخت لو بلان قالت لى أنكما راعيتما ثريا ومددتما يد المساعدة إليها هنا)

– (ياه ، لم نفعل شيئا . كانت ثريا صديقتى كنا نذهب معا إلى الجامعة، طبعا أنت تعرف . كنا نذهب إلى السوربون . وبعد تلك الحادثة المؤلمة أقل ما يمكن فعله لثريا أن نأتى بها إلى هنا .. ما أسوأها وأفظعها من

حادثة .. كانت تستعد للعودة إلى إيران . كانت تود أن ترجع طهران عن طريق البر ..)

– (أجل ، أمها فى غاية القلق والتعب) . ثم أتحول إلى الدكتور :

– (دكتور ، كيف حالها اليوم ؟)

– (لا جديد للأسف ..) ويدخل فى إيضاحات أخرى . يبدو أن حالة ثريا لم تعد تتأثر تقريبا بأكثر العلاج والأدوية . ثم يسألنى :

– (قلت البارحة أنك لا تود نقلها من هنا .. أليس كذلك ؟)

– (بلى ، بلى فى الحقيقة هو كذلك ، وعلى أية حال فمطارات إيران كلها مغلقة ولو كانت أمها تود أن أنقلها ، لكن هذ فعلا ليس فى الإمكان)

– (جميل جدا .. قرار حكيم . حسنا يجب أن أذهب)

– (مرسى يا دكتور)

– (حسنا ، مع السلامة)

ويذهب الدكتور وأدخل بلا اختيار غرفة ثريا . لاتزال ثريا فى الغيبوبة وانفصال عن واقع الحياة نائمةتحت الملحفة بركن الحجرة بعيدا عن النافذة فى سبات عميق طويل .

وجهها الجميل يبدو اليوم كأنه ورقة قش سوداء . أكثر سوادا من الأمس . وعلي (التابلوه) أو اللافته بأسفل سرير نومها علامات عجيبة وغريبة على لا أستطيع فهمها . وكريستيان شارنو خلفى وتتحدث . نسيتها . تقول :

– (الأفضل عدم نقلها من هنا ، فحالتها ليست بخير .)

– (أجل أرى ذلك)

– (حسنـا ، يجب أن أذهب لأن ولديّ الصغيرين بمفردهما داخل السيـارة ، وقفت لأتحدث مع الدكتـور ، تأخـرت للأسف . أطيل دائمـا الحديث . أوقفت سيارتي أمام عداد مكان انتظار السيارات بجانب الشارع وانتهى وقتها . أين تقيم؟)

– (فندق بالما بشارع لورنس ... طبعا عنوانه مكتوب بدليل التليفون)

– (متى جئت ، بالأمس ؟)

– (أجل ، أمس)

– (هذا عنواني ياسيد آريان أود أنا وفيليب أن نراك . أثاث ثريا وبعض حاجاتها الثمينة خاصة مصوغاتها الذهبية عندى ولابد من مجيئك لتسلمها) . وتعطيني قصاصة ورق كتبت عليها عنوانها (كتبت أيضا رقم التليفون ، اتصل بنا قبل مجيئك ، أو يمكن لفيليب أن يأتي اليك ويجيء بك بسيارته . نحن نسكن في « سان رمي» على بعد سبعة عشرا كيلو مترا بأطراف باريس . المترو يصلها . سان رمي ..) وتتحدث بسرعة وعجلة تهيل على المعلومات حتى وقفت مشدوها . ولابد أن فيليب هذا زوجها فأرد (مرسي حتما سوف أتصل بكم بالهاتف)

– (إسمع . غدا عطلة الأسبوع لابد أن تتصل بنا لدينا الليلة ضيوف . اثنتان من أخواتي آتيات بأطفالهما ، وأنا من الآن أحس بالصداع ، لكن فيليب يحبهما . تعرف أن في فرنسا يقولون عن أخت الزوجة أنها الأخت الظريفة . فيليب يشتغل في رابينسون لكنه يذهب كل يوم إلى مكتب

شركتهم الآخر في بورت دوفرساي . بورت دوفرساي قريباً من هنا .. ولايبعد كثيراً عن فندقك . شارع لورنس جنب محطة أوديون ، أليس كذلك ؟ يمكن أن يصحبك فيليب ويأتي بك . الساعة السادسة أو السابعة بعد الظهر مناسبة جدا جدا) .

وكان عليها أن ترفع رأسها لكي تحادثني ، لكن هذا لم يكن عيبا ولم يوقف سيل كلمات كريستيان شارنو كانت الفرنسية على الدوام (سريعة) عليّ ولو تحدث بها واحد غير كريستيان شارنو . لا أفهم كثيرا من كلامها لكن على أية حال فهمت الدور المطلوب ولا أحب أن أعطلها وقد تركت طفليها الصغيرين (لابد أنهما دون الخامسة وإلا ذهبا إلى المدرسة) بمفردهما في السيارة فأسترسل قائلا :

– (مرسى ، أجل ، سوف أتصل بكم)

فتقول : (يوم أن وقعت الحادثة الفظيعة بقيت ثريا عندنا حتى العصر وكانت في طريق عودتها إلي باريس بدراجتها حدثت لها هذه الحادثة . ولحسن الحظ كان عنواني بداخل حقيبتها فأتينا أنا وفيليب فوراً إلى عيادة طـــواريء (مونبارناس) ونقلنا ثريا إليها . لم يهتم البوليس ، هم لايعرفون غير أن يخلصوا أنفسهم من المشاكل ، يجمعون العناوين ويكتبون تقاريرهم . وللأسف لم يكن لثريا أي نوع من التأمين فقد انتهت دراستها آخر يوليو ، فوقعت أنا وفيليب استمارة ضمان تسديد النفقات . إذا لم يكن فيليب موجودا الله يعلم ماذا كان حدث لثريا المسكينة) ثم أقول : (سوف نظل أنا وأم ثريا مدينين لكما للأبد يامدام شارنو وسوف أتكفل أنا هنا بكافة النفقات . الآن ليس لدينا الكثير من المال هنا ، لكننا سوف ندبره . على كل حال نحن شاكرون لضمانكما . لا يفعل كثيرون مثلما فعلتما)

- (لاتقل هذا)

- (غدا أتصل بكم بالتليفون وأشكركم كما يجب الشكر .. مع السلامة)

- (لا يلزم أن تشكرنا .. كانت ثريا أفضل أصدقاء حياتي كم كانت ممتازة نزيهة الأخلاق مع التجربة القاسية بفقد زوجها فى ثورة إيران وتغلبها على كل شيء فهى متمتعة بالرزانة والتعقل السليم بالحياة . كانت لنا نعم الصاحب والصديق الفاضل الذى لا نظير له .. ظلم ومخجل فى الواقع أن مثل هذه الحادثة قدرت من نصيبها . حظ سيء . يجب أن أسرع ولداى بداخل السيارة وحدهما . أتمنى ألا تكون الشرطة ألصقت على سيارتى مخالفة . كان فيليب يتجنن ، إذن سوف تتصل بنا بالهاتف ؟) .

- (أجل ، حتما)

- (غدا ؟)

- (أجل غدا ؟)

- (جميل جدا ، مع السلامة إذن)

- (مع السلامة)

- (فى أمان الله ياسيد آريان)

وحينما ترحل كريستيان شارنو أعود إلى غرفة ثريا . سريران من الأربعة أسرة خاليان مريض السرير الثالث نائم . رائحة (الديتول) تشم من الغرفة . وأجلس فترة أخرى فوق رأس ثريا . أحتوى يدها فى يدى . وجهها الجميل الداكن مثلما كان فى أيامها الأولى حين جاءت الدنيا . صغيرة غامضة منعقدة اللسان . أهمس لها ثريا .. انهضى انهضى يابنيتى . أنا خالك

جلال . خالك الحبيب . نعود معا إلى طهران .. إلى فرنجيس . أنت لاتحبين أن تبقى فرنجيس وحيدة متألمة وسط هذه الأحوال المضطربة .. قومى يابنيتى . انهضى ياحلوة .. ولا فائدة .

وأذهب إلى مسيو ماكادام بالطابق الأسفل غرفة رقم ١٢ وأدفع الشيك لحساب ثريا .

ومسيو ماكادام قليل الكلام . لكنه يؤخرنى ساعة فى تسويته لكشف الحساب وتسليمى وصل الدفع الحقيقى . يقول أتمنى أن تتضح بأسرع مايمكن قواعد دفع بقية الحساب ... القواعد قواعد. وحين أخرج فى نحو الثالثة بعد الظهر من المستشفى تبدأ ثانية عاديات رأسى وأفكارها فأتقدم ماشيا وأسير فى شوارع سان جاك نحو قصر لوكسمبورج . ثم أصل أول شارع مسيو لوبرنس . أتضور جوعا وعطشا . لكن الوقت متأخر جدا للغذاء ومتقدم جدا للعشاء . على كثب من الفندق يقع أحد محلات بيع السندوتشات الذى يشبه السلسلة لماكدونالد الأمريكى . فأقول أذهب وآكل سندوتشا كبيرا منه (بج ماك) بالبطاطس الفرنسية ، فلا أجد غير بضعة من السواح الأسبان والهنود السود متفرقين داخل المحل ، وليس به مقاعد للجلوس وعليه أتوجه للفندق وأبتلع أقراصى بكوب من اللبن بالشيكولاته أحضره سوموبخو . ثم أتمدد على سريرى وأشعل سيجارة . على أن أفعل شيئا بأسرع ما يمكن لتدبير نفقات المستشفي . كان نادر بارسي أول من رأيته فى باريس والآن هو أول من أفكر فيه .

نادر بارسى ابن حى (بامنار) وأبوه المرحوم غلام رضا البناء وكان وقتها يذهب إلى المدرسة الثانوية وفى الثانوية كان نادر رئيسا لجماعة المسرح بالمدرسة كما كان رئيسا لجماعة التربية الرياضية ، لكنه كان دائم

العراك مع الجميع . وبعد أن ضربه على طائى (علقة) فى الملاكمة ترك جماعة التربية الرياضية . وفى عام ١٣٣٥ سافر نادر على نفقة الحكومة المعطاءة الإيرانية إذ ذاك وبعد سنوات سبع من حصوله على إعانة النفقات المدرسية ، كان يقول إنه حاز على درجة الماجستير فى شعبة العلوم وأظن أنها فى الأدب الكلاسيكى الجديد . وحين رأيت بارسى فى طهران مرتين كان (محررا) فى أحدى مؤسسات النشر لكنه لا يزال فى حالة من الأخذ والرد ، ونصب لنفسه بتأليفه بضع قصص قصيرة ومسرحيات اسما ومكانة خاصة بين طبقة الشباب الذين افتتنوا بنثره (محطم التقليد) . أنشأ مؤسسة صغيرة للنشر لحسابه أمام جامعة طهران وكان يؤدى فى الصالات المدرجة لمسرح الجامعة مسرحياته . وكان ترجم بضع قصص قصيرة لهمينجواى أيضا . ثم دخل التليفزيون وسافر على نفقة التليفزيون الإيرانى إلى فرنسا ومكث بها ستة أشهر وأخذ دورة بها . ثم شرع بعد ذلك فى صناعة أفلام قصيرة فنية . ثم أعلنت الصحف والمجلات أن أحد أفلام نادر بارسى فاز فى مهرجان نيويورك . وكنت وقتها أعمل فى مصانع البترول بالجنوب فلما سمعت بفوزه فرحت ، لكنى بما أنى أعرف نادر من الأساس وكنت أشك دائما فى الفوز فى المهرجانات الأجنبية استفسرت عن فيلم نادر بارسى مرة من أحد أساتذة جامعة نيويورك اسمه (بل كوينتان) وكان مدعوا لأحد سمنارات شركةالنفط وكان المسئول كذلك عن ذلك المهرجان ، لم يكن (بل كوينتان) فقط يتذكر نادر باريسى جيدا وأكد أن فيلمه (ذكر) أنه فيلم جيد بل تذكر أيضا أن بارسى ليلة أن منحوه الجائزة تعارك مع أحد المحكمين (جاك ماكوى) بل ضربه تقريبا. بعد ذاك في أوئل سنوات الخمسنيات ظهر كممثل ضيف في بعض الأفلام التى كان

يكتب فيها اسم نادر بارسى بآخر الإعلانات تحت عنوان (وباشتراك..)

بعد ذلك قام هو بنفسه بإنتاج بضعة أفلام شباك يعاونه بماله وشهرتة أحد الفنانين المشاهير فى السينما الايرانية كان يقطب جبينة - إذا ذكره - ويقول (يا أرحم الراحمين) وتزوج نادر نحو ثلاث مرات وأنجب ولدين اسمهما (هوم) و (تهماج) ويعلم الله من أى شاهنامة استخرج اسميهما وكان ولداه يدرسان فى مدرسة داخلية فى لوزان بسويسرا .

أعطى رقم تليفون نادر بارسى إلى مسئول الاستقبال بأسفل فيصلنى به . ترد زوجته . أحَيِّ وأذكر اسمى وأنى أريد أن أكلم السيد بارسى هل هو موجود؟

- (وصل الآن بالصدفة)

- (هل يمكن أن أكلمه ؟)

- (قلت اسم حضرتك ..) . هذه الأخرى فضولية كثيرا وأكرر ذكر اسمى واترك السماعة على أذنى صامتا حتى أسمع صوت نادر .

- (مو عليكم كما يقول جوين واين)

- (سلام يا نادر)

- (كيف حالك يا جلال خان ؟)

- (متعب)

- (أحك لأعرف ماذا فعلت ؟ متى تأتى لأراك ؟ ماهى حالة بنت أختك ؟)

- (نفس الحالة ، كما هى)

– (قصدك ماذا ؟)

– (فى غيبوبة كما يذكرون)

– (الست أنت نفسك فى غيبوبة ؟)

– (لست أنا وحدى فى غيوبة ، أجدادى وآبائى هم الآن فى غيبوبة)

ويضحك .

– (ما أخبار دفع الحساب والأجر ؟)

– (أعطيتهم شيكا بعشرة آلاف فرنك فقالوا مرسى ألف مرة)

– (دائماً يقولون مرسى ألف مرة حين يأخذون النقود)

– (لابد أن أحصل على مبلغ من المال يانادر)

– (من طهران ؟)

– (نعم . من أى مكان)

– (ماشى ، تعال الليلة إلى مقهى سانكسيون ، يجتمع بها أغلب الإيرانيين ونتحدث سويا)

– (أين ؟)

– (مقهى دولا سانكسيون . لوجئت التاسعة أو العاشرة أفضل)

– (وأين تقع ؟)

– (نهاية الطرف الشمالى لشارع سان جاك قبل أن تصل إلى الشارع المطل على النهر أمام سينما « ريفولى » ستجدها حتما)

وأدون بعض المعلومات .

- (الساعة العاشرة؟)

- (نعم الساعة التاسعة والنصف ، العاشرة ، تعال فنحن موجودون . هناك مكان اللمة) .

- (ماشى ، آت)

- (هل رأيت ليلى آزاده)

- (لا ، كيف لى أن أرى ليلى آزاده ؟)

- (قلت ربما رأيتها وربما كنت تبحث عنها أمس)معلوم أنه نفسه يحب أن يرى ليلى آزاده .

- (لا .. فقط كنت أود الاستفسار عن أحوالها) ثم أسأله (قلت أنها كانت مريضة وراقدة بالمستشفى ، ماذا جرى لها ؟)

- (لا أعرف ولا أحد يعرف . كل ما أعرفه أنها أجرت عملية جراحية ، لكنهم حجزوها طويلا . أبوها وأمها هنا أيضا . يعيشون فى مرسيليا . أختها هنا أيضا . ليلى تعيش لوحدها . لا نفهم كل ماحدث لها)

- (عظيم ، إذن أراك)

- (تعال العاشرة إلى سانكسيون)

- (ماشى ، أحاول)

- (لا تحاول .. تعال وشاهد الجيل المحترق (من قرن إلى قرن)

- (وما الجيل المحترق هذا الآخر ؟)

– (الجيل الضائع The Lost Generation كما يقول همينجواى)

– (على عينى)

– (تعال ، المهم سوف ترى الشعب المغترب ، يجتمع أغلبهم هناك بالليل، بعيدا عن الوطن ، يتشاكون ويشرحون أحوال أنفسهم ووطنهم ..

استمع إلى النّاى حين يحكى ويشكو آلام الفراق

منذ أن قطعونى من الغابة والناس فى نواح بسبب صراخى)

– (أنها أرواح القتلى هى التى تنوح فى الخط الأول فى أحمد آباد حين يطلع عليهم الموت من صوت انفجار قنبلة)

ويصب بارسى فاحش سبابه على مسبب الحرب ومؤسسها بما لايمكن ذكره . فأضحك وأقول :

– (إذن العاشرة . داخل مقهى نواح الغربة)

– (أجل ، العاشرة ، مقهى سانكسييون) وأودعه ، لكنه من الأدب أو من الملاطفة معى إلى حد ألا يقفل السماعة أولا ، فاستودعه الله وأقفل السماعة . ثم أتمدد وأعقد يدى على جبهتى .

وأحاول أن أجسد فى مخيلتى شكل ليلى آزاده كما كنت أعرفها منذ ثلاثة عشر عاما ثم رأيتها مرة أخرى منذ ثمانية أعوام هنا . ولا أستطيع ، ولا ينتقش فى ذاكرتى غير وجه ثريا الشاحب الممتقع بركن المستشفى .

آتى منزلى من الشارع الخلفى لمصفاة النفط بعربة (لاندروفر) أخذتها من موظفى الإسعاف . لابد أن أجمع شهاداتى وأوراقى وبعض الكراكيب من أجل انتقالى الاضطرارى إلى طهران ، وأطوف فى شارع

أحمد آباد وأصل إلى شارع البتروكيميا الرئيسى ، ومصفاة النفط كأنها غول راح فى سبات الموت ارتفعت سحب الدخان من جسده المحترق . شارع البتروكيميا الرئيسي والشوارع الملتوية فى (بريم) كأنها فى رقدة الموت . المنازل تكون كلها مهجورة . أغلبها بأثاثها ، ونهبها اللصوص وضباع الحرب . الجدران والأسقف هنا وهناك حطمتها القنابل وقذائف المدافع . الحدائق موحشة جافة والأشجار محطمة . ولو سقطت شجرة على أثر نيران العدو وسدت الطريق فلم يكن موجودا من يتجشم مشقة تنحيتها . بل الكلاب والقطط ارتحلت .

ومنزلى على ساحل شط العرب ولا يبتعد عند الحدود العراقية أكثر من سبعمائة أو ثمانمائة متر . آخر مرة عدت فيها إلى منزلى كانت قبل الآن بشهر لكى أخرج منه بالقوة (مطرود) راعى بستانى وابنه المريض (إدريس) وأصحبهما إلى مكان أكثر (أمنا) فى خط (١٢) بأحمد آباد . لم يكن لهما بيت يذهبان إليه. لا يملكان موضعا يروحان إليه .كان منزلهم الغرف خلف حدائق المنازل فى (بريم) ويتعيشان على قليل الراتب الذى كانا يأخذانه منى . يموتان إن خرجا عن عبدان .

ويسمع صوت تبادل النار فوق رأسى وحوالى المنطقة ، لكن شيئا منها لا يصيبنى . وأقف بالسيارة أمام بوابة الحديقة وأخرج منها . لاتزال جدران المنزل سليمة مع أن الزجاج تحطم على أثر القنابل التى سقطت داخل الحديقة . وتعوى الكلاب فى مكان قاص . افتح باب المنزل وأدخل . لا كهرباء . المنزل مظلم . ليس فى المواسير ماء أيضا . أغلب الأثاث بموضعه.

موقع منزلى يقترب إلى شارع خرمشهر ويقترب إلى شاطئ شط العرب نيران العدو إلى درجة أن اللصوص وضباع الحرب لم يكن يجرأون على

سرقته . لكن الأمر ليس بالخطير عند فئران النخيل . أتوا . أعدادهم الآن بالمنزل يجولون ويصولون . خرجوا من قصرية التواليت الجافة وبدأوا هجومهم . فوق الكراكيب المخزونة بالمطبخ ، مضغوا والتهموا إحدى المراتب وبضعة من الموبيليا بل والكتب . يا له من منظر . لكنى أتيت لهم مسلحا . لعلمى بأن هجوم الفئران وقع على أكثر المنازل الأخرى فقد جلبت معى باكوموت الفئران وأقفل باب الحمام والفناء وأبدأ فى الهجوم المضاد . أنشر سم الفئران على كافة أرضيات المنزل وحينا أرشه على رؤسهم . وتأتى جماعاتهم من مكان لآخر وتأكل منه وتسقط وتموت . وأهنأ قلبا بهذا . وأحمل حقيبتى وأبدأ فى وضع ما أريد حمله فيها . لابد أن أسارع بالعودة. يمكن أن يطل العراقيون فى أى لحظة . استطعت أن أرسل إلى ديار العدم فئران النخيل والمجارى بالدى دى تى لكن إيران لم تخترع حتى الآن دى دى تى لفئران النخيل أتباع صدام حسين الملعون .

ويظهر أمامى خيال رجل ويسقط قلبى من الفزع وحين أدقق فى النظر أرى أنه (مطرود) بقوامه النحيل ووجهه الأسمر وشاربه الفاتح .

– (أنت أيها السيد – سلام) السلام العبدانى بكسر السين .

– (مطرود ! يالرضا الله – ماذا تفعل هنا ؟)

– (عدنا ياسيدى)

– (جئت لتعيش هنا)

– (ها أعددت الشاى ياسيدى . هل لك فى كوب منه ؟)

– (ألم تعد بأنك سوف تكون على الأقل فى خط ١٢ عند أخيك. لم تبق بأغا جارى وطلعت وعدت هنا غافلا عما يجرى ، وهيأت الفرصة

لكي يقبض عليك العراقيون في الطريق ويأسروك ويذهبوا بك . لابد أن تعود إلى خط ١٢ . هنا خطر عليك جدا) وثارت أعصابي بسببه .

– (ضربونا هناك . ويضربون كل يوم هناك . هنا أفضل)

– (هنا بإمكانهم أن يضربوكم بقذائف الكلا شينكوف من الحافة الأخرى للنهر !)

– (الأعمار بيد الله)

– (أين إدريس ؟)

– (إدريس ابني ساكن في منزل المهندس نوربشخ)

– (إدريس هنا ؟ يالطيف اللطف !)

– (أين أتركه طيب ؟ لا يبقى في مكان . لابد أن يكون معي . فهو قليل العقل)

– (تركوا لكم منزل نور بخش ؟)

– (ها إشرب كوب الشاي)

– (لابد أن تعود فورا إلى خط ١٢)

– (إيه ، أين نذهب ؟ إذا حل الأجل فلا بد أن نرحل ، أجل لابد من الرحيل)

– (هنا لا يوجد ماء)

– (الصنبور بآخر الحديقة أوطى . ماؤها كالبرق ، لكن قليلا من الماء يأتي . لا مشكلة)

– (مطرود ، انظر ، لابد أن أسافر إلى طهران . مضطر . وقع لابنة أختى حادثة . وأنت تعلم أنهم ليس عندهم أحد . وربما أضطر إلى ألا أعود إلى عبدان إلا بعد شهرين أو ثلاثة ، لكنى لا أحب أن تبقى هنا ...)

– (هل تطردنا ؟)

– (أى كلام هذا يا مطرود ؟ هذا المنزل ملك الشركة . ملك الجميع . لكن هنا خطراً هنا منطقة حربية)

– (وماذا نفعل ؟)

– (تذهبون إلى مكان آخر)

– (إلى أين نذهب ؟ كل البلاء نصيبنا نحن الفقراء)

(كيف حال أخيك ؟)

– (رحل ..)

– (ماذا ؟)

– (رحل عن الدنيا ، ارتاح ، تساوى منزله مع التراب أيضا)

– (آسف ، يامطرود ، وابنه الذى كان فى خسرو آباد كيف حاله ؟)

– (رحل هو الآخر)

– (استشهد ؟)

– (ها ، اجلس ياسيدى لآتى لك بقدح من الشاى)

– (مطرود أقول لك أن السماء تمطر قنابل وقذائف مدافع وصواريخ وأنت تقول أجلس واشرب كوب شاى . أقول اترك هذا المكان واعتصم بمكان آخر وتقول اجلس واشرب كوب شاى أقول فكر مرة فى ابنك إدريس وتقول أجلس واشرب كوب شاى . لابد أن ترحل إلى الأهواز أو

مسجد سليمان وتلك المناطق حتى تنتهى الحرب)

– (لا مكان لنا)

– (سوف يلوح لك مكان)

– (ولدنا فى هذه المدينة ونموت فيها)

– (هل يوجد أحد فى هذه المنازل المحيطة ؟)

– (لا ... المهندس نوربشخ رحل أيضا)

– (نوربخش قتل أيضا ؟)

– (لا . ذهب إلى طهران . ما هذه الفئران ؟)

وحين أشرح له حكاية الفئران اللعينة إذ بانفجار مزلزل يهز البيت حتى أنى ظننت أنه لابد أنه أطار اللاندروفر عربة المستشفى فى الهواء . وأتقدم لأرى . العربة لا تزال موجودة . وإدريس بجانبها أيضا يرتدى حذاءَىّ التنس ويحمل حقيبته الأمريكية التى كان يبيع منها وقتا سجائر الونستون . بغنائه العربى الذى لا معنى له . الذى يتغنى به على الدوام . أخذ ينظف بمنديله اللاندروفر . بجسمه الضخم وهيأته المذهولة وعينيه البلهاوين يكمل المشهد فى أرض البقس المحترق والأشجار المقطوعة .

وحين أعيد فتح عينى فى فندق (بالما) كان قد حل الظلام وهدأ بخارج النافذة ضجيج الشارع إلى حد ما . وأنظر فى ساعتى . التاسعة والثلث . أنهض وأمس بيدى رأسى ووجهى وأرتدى ملابسى . وفى التاسعة والنصف أجلس على السرير وأشعل سيجارة أخرى وأنصت إلى أخبار إيران الموجهة إلى الإيرانيين بخارج البلاد (حسب توقيت طهران الثانية عشرة)

تنحصر الأخبار على حرب إيران والعراق . حرب الإسلام للكفار الصداميين.
أكملت القوات العراقية حصار مدينة عبدان وجعلت من المناطق السكينة لهذه (المدينة المقاومة صانعة الشهداء وشعبها الأعزل) من كل ناحية موضع هجومها بمقذوفات المدافع و الصواريخ والقنابل والهجمات الجوية .
وصلت طلائع (عملاء صدام حسين الكافر الأمريكى) حتى عشرة كيلو مترات من الأهواز ودز فول لكنها ووجهت بالمقاومة الشديدة للحرس الإسلامى وجيش الجمهورية الإسلامية والشعب صانع الشهداء .

نجحت (القوات الإسلامية) فى تحطيم ناقلة آلية تحمل جنديين ودبابة للبعثيين الكفار وقتلت مئات من (المخدوعين نظام صدام حسين العفلقى) .

– ٧ –

أشرفت الساعة على العاشرة مساء حين خرجت من الفندق . أنثنى من شارع لوبرنس إلى داخل شارع سان ميشيل الرئيسى . الهواء بارد لكن السماء صافية تملؤها النجوم . ويهب نسيم عليل من النهر فى الطرف الشمالى للشارع ولا يبتعد كثيرا . ولا يزال الشارع ينبض بالحركة المزدحمة. عشرات المقاهى والمطاعم ودور السينما تشع بالنور ويملؤها الضجيج والعجيج والزينة الباهرة . وتهب رائحة الكستناء والهمبورجر والبطاطس من مطعم ماكدونالد وتطوى منعطف الشارع وتدخل الطريق . موعد لقائى بيارسى العاشرة .

وأثناء الطريق يخزنى دوار عجيب فجأة أسفل جبهتى ، دوار غير عادى. وأستند إلى الحائط على ناصية تقاطع شارع دزكول ، وأنتظر حتى

يمضى الألم أو أمضى أنا . وأنا بالمستشفى خاصة فى أوائل إقامتى به كان ينتابنى هذا الدوار حينا كان يغيبنى عن الوجود وقتذاك لفترة . لكنه ظل فترات لا ينتابنى . لكن الليلة يسبب لى دوخة غير عادية وآلاما شديدة .

وأتابع سيرى بأى شكل وأجلس فى ركن خلف إحدى الموائد الصغيرة للمقهى الذى يشغل قسما من الشارع . و لا يسوؤنى أن أجلس هكذا منفردا بالخارج مع وجود البرودة والهواء الهاب .. سحبت مائدة أو اثنتين من الموائد المستديرة والصغيرة لكن غالب الناس مختفون داخل المقهى ولا تزال رأسى تدور .

ويتقدم نحوى عامل عجوز لكنه أبيض مشرب بالحمرة يلبس معطفاً خمريا علق بساعده فوطة بيضاء وكأنه خرج يزحف من وسط مكتبة (بالزاك) . لا تزال الفوطة البيضاء معلقة بساعده اللعين .

– (نعم ، مسيو ؟)

– (قهوة اسبرسو من فضلك)

– (اسبرسو)

باريس مهد الحضارة .

أنسب نفسى إلى الإنسانية . وأخرج كتاب (كلاب الحرب) من جيب معطفى وأفتحه على الصفحة التى وصلت إليها فى القراءة . جمهورية الزنزبار الصغيرة الأسطورية أصبحت ألعوبة فى أيدى الإنجليز . السير جيمس مانسون أحد تجار لندن يكتشف عن طريق جواسيسه أن بأحد جبال زنزبار – جبل الكريستال توجد مناجم من الذهب الأبيض تقدر ببضعة مليارات من الدولارات ويصمم مانسون أن يقلب حكومة زنزبار

ويحل محلها حكومة عميلة له بمساعدة جيش صغير من المرتزقة المحترفين الدوليين من أمريكا وأيرلندا وألمانيا وفرنسا وإنجلترا .. لكن بعد أن يخمد أول الثورات الداخلية ضده ثم يدخل عملاؤه يجد أتباع مانسون أنفسهم سريعا في مواجهة موظفى الاستخبارات الروسيه (كاج ب) ويفهمون أن الغرب لا ينفرد وحده باللقمة إذا كانت سمينة جدا .. لكن الليلة وأنا بباريس وأقرأ بداية الفصل الثامن وقد جلس اثنان من العملاء بعد الاتصال بالهاتف بالسير جيمس مانسون ويريدان الحديث حتى أننى لا أستطيع إتمام قراءة الجملة الأولى من الفصل . ولا تريحنى رأسى . فتفكيرى فى ثريا فى المستشفى يزحف فوق ما بقى من مخى . الصداع ونسيم الليل البارد والوحدة والإغماء وكلاب الحرب وهموم ثريا .. أحاديث جورجيت لوبلان والدكتور بل فرانسوا مارتن وهيئة سرير ثريا الأبيض وجسدها المغمى عليه يموج كل هذا وسط عقلى . يشرح الدكتور مارتن الاصطلاحات الطبية العميقة .

(الغيبوبة) حالة فقدان الوعى (تشبه النوم) تحدث إثر اختلال وظائف المخ يمكن أن يكون إغماءً مؤقتا ويمكن أن يدوم ويميت ! وليس بمقدور أحد أن يعلم كم من الوقت يطول . وحالة الغيبوبة التى تستغرق أكثر من يومين أو ثلاثة ويتسبب عن اختلال خلايا المخ وفسادها دليل صدمة شديدة ، واحتمالا، قاتلة .. وثريا فى حالة إغماء منذ ثلاثة وعشرين يوما . ويمكن أن تستقر الخلايا المختلة بالقشرة المخية (السوبر ال كورتكس) أو فى أجزاء أعمق منه (ديفيسه مالون) وهى محور المخ المركزى .. مسكينة ياثريا .. أرفع رأسى وأنفث دخان سيجارتى السميك فى هواء الليل

البارد القاسى . أشعر بدوار . عم الآن كل جمجمتى ورقبتى ووصل حتى أسفل أذنى .

وتأتى فارعة قد حمراء شعر وتجلس على المنضدة الصغيرة فى الجانب الآخر وتضع حقيبة يدها بركن من المنضدة . وتبدأ ببطء فى خلع قفازيها القليلى البياض . أحاول ألا أنظر إليها منظرها أشد ضعفا من شديدى النحول والضعف ويعلم الله كم من الشديدى النحول فى باريس . وتطير إلى تحية المساء وأضطر إلى خفض رأسى فى رد تحيتها وأبعثر شيئا على وجهى يمكن أن يكون ابتسامة . وتخرج سيجارة من داخل حقيبتها وتضعها وسط شفتيها . ثم تبحث داخل حقيبتها عن الثقاب المفقود . ليس لديها ثقاب . فتخرج سيجارتها من فمها وتبدأ فى السعال . سعالها أسوأ من سعالى إنه نواح المصاب بالزهرى نفسه . ألا فليرحم الله الأتوبيسات الحارقة للوقود الردئ للشركة المتحدة وسط مرور ميدان الثورة بطهران .

تقول بإنجليزية متعسرة (you have light ? — ألديك ثقاب ؟)

أشعل لها عودا وأقول بالفرنسية (هل أنت فرنسية ؟)

— (Mais oui !) طبعا فرنسية .

وتبدو أسنانها التى بلون القهوة وعيناها كعيون المرضى بفقر الدم أو أسوأ تبدو صفراء ذات صديد جاف . ولا يعرف كم عدد غضون وجهها لكثرتها . لكن نحافتها الشديدة وأسنانها السالفة الذكر وسعالها المخيف كل ذلك يصرخ بأنها على الأقل اشتغلت عشرين سنة فى مهد الحرية والديمقراطية فى العالم (فى أقدم حرفة بهذه الدنيا) .

— (ألا تحب أن تطلب لى مشروبا ؟)

– (ماذا تشربين ؟)

– (une Bloody Mary)

– (اسمير نوف وعصير الطماطم ؟)

– (بالضبط)

– (البلادى مارى متعب للمد موازيل الصغيرة)

– (المداموازيل الصغيرة هى أملك)

ويأتى الجرسون بقهوتى الإسبرسو ويضع أولا أمامى منديلا ورقيا ثم الفنجان وطبقا صغيرا وبأسفل الطبق الصغير ورقة صغيرة عليها ثمن القهوة وأتعاب الخدمة ثلاثة فرنكات وخمسة وستون سنتيما .

– (وللمدام ؟)

– (بلادى مارى من فضلك)

ويكرر الجرسون الأمر بلا اهتمام ويذهب

وتسألنى (أنت لا تشرب ؟)

– (لا ..)

– (لماذا ؟)

– (لأسباب كثيرة ... منها أمر الطبيب)

– (ما موضعه فيك ..)

– (عذرا ؟) لا أفهم الكلمة الفرنسية التى قالتها

فتسأل كمدرس النحو أو مثل من يخاطبون قليلى الفهم

(ما موضع الألم ؟)

أرد : (جمجمتى) وأشير بأصبع إلى رأسى (رأسى متألمة)

وتضحك (رأسى أيضا متألمة) ثم تفرك يديها وترتعش من البرد قائلة:

(Ru .. C'est froid ! برد !)

– (البلادىء مارى يدفئك ؟)

– (أبدا ، أتمنى ذلك)

– (حسنا)

ولا يسوؤنى أنها ظهرت فجأة وسط ليل الوحدة ، وتفهم أننى بدأت أهتم بها لأول مرة ، فتبتسم ، كأن فى طبيعة الفرنسيات ركب رادار مجهز بكمبيوتر يقتفى أثر (الميراج) لمثل هذا الاجتذاب .

وتسألنى (من أين أنت ؟)

– (من أين تفضلين أن أكون ؟)

– (ألست أمريكيا ؟) وترمق الكتاب الانجليزى (كلاب الحرب) ويأتى على دور الحديث : (الأمريكية هى أملك)

– (أظن أنى معجبة بك)

– (الله يساعدك)

– (مرسى)

– (بماذا ينادون عليك ؟)

– (آدل)

ويصل مشروبها فلا تتعامل آدل معه بتلك الرقة ، بل ترفع الكأس كما كان يفعل فتوات طهران قديما حين يشربون الكأس دفعة واحدة فَتَعُبُّه دفعة واحدة . أو لابد أنها تظن أن الشراب جراية الحكومة بإمكان أن يأتى فى أى لحظة جنود الفرق الأجنبية لينهبوه من أمامها ثم تقول :

(Alors , comment vous applez - vous ? حسنا الآن ما اسمك)

وأرد عليها (اسب) أى حصان .

– (ماذا ؟)

– وأكرر الاسم

فتقول (اسب .. اسم جميل وسهل) ولكنى لا أعتقد أنها اقتنعت .

وأنظر فى ساعتى واعتذر لها بأننى لا بد أن أقابل أصدقاء آخرين على مقهى (لاسانسكيون الساعة العاشرة . فتقول (أوه ، طبعا) وأنها مستعدة لأن ترافقنى إن أحببت ذلك . فأجيب حسب العادة وبسبب اللياقة (أجل ، من فضلك) وسرعان ما أصبح نادما كالكلب .

وندخل سائرين شارع سان جاك ونتقدم ويدور الشارع من خلف ساحة جامعة السوربون والمنطقة يختلط فيها العمارات الحجرية القديمة للجامعة والمقاهى والمطاعم ودور السينما والملاهى الليلية . وتأخذ آدل فى قص قصة حياتها لى . فهى من أهالى قرية صغيرة قريبة من (بورجيه) ولا أتذكر اسم القرية . تعيش فى باريس منذ سبع عشرة سنة لا (عمل) لها آخر . والحكومة لا يكفى ألا تعطيها مرتب الرعاية الاجتماعية ، بل أنها تستدعيها كل شهر لأسباب مختلفة وتقوم بفحصها وتهددها أنها سوف تلغى رخصتها إلا إذا اعتنت أكثر فى المحافظة على صحتها وحافظت على

نظافة شقتها . وتتحدث بعجلة ولا أفهم معنى بعض كلامها ، لا أذكر إلا أنها كانت تستخدم فى كـــلامها كلمة فـــرنسية بمعنى (الـراز) فى اصطلاح العامة صفة لكافة الأسماء الخاصة والعامة تقريبا .

وتستخدم مرارا عبارة (I make nice love) التى أفهـمـا – طبعا – جيدا . ويمر بنا بناصية الشـارع الجانبى بعد دار السينمـــا بائع متجول يبيع أطعمة ساخنة على عربة يد بعجلات . وتتباطأ خطوات آدل . وتتسع عـيناها شـــراهة . (J'ai faim) .

– (هل أنت جائعة ؟)

– (أموت من الجوع)

وعلى جانب العربة الأبيض مكتوب بخط بارز :

HAMBURGERS ET HOT DOGS

وأظن أن آدل تقول (تأثير من مظاهر أمريكا وثقـافتـها البراقة – فى حضارة فرنسا العريقة) .

ونتقدم ونقف أمام العربة .

وتقول آدل (من فضلك شطيرة بالمقانق بالخردل الزيادة) ثـم تقول لـــى (خردل انتاج بورجيه – ممتاز جدا . Un peu trop fort' ca حريقا قليلا)

– (جميل)

– (هل تحب ؟) وتمد بقطعة يدها

– (لا ، كلى أنت) .

وبعد تقاطع شارع سان جاك بشارع سان جرمان الرئيسى بقليل أشاهد اللافتات الكثيرة الارتفاع والقدم لمقهى دولا سانكسيون . وكانت آدل قد انتهت لتوها من ابتلاع شطائر مقانقها ومسحت بيدها خيشومها وفمها ورأسها ووجهها حين ندخل المقهى .

ليس مقهى لا سانكسيون خلافها لشهرتها الكثيرة الذيوع مبنى خارقا للعادة . فى الواقع ما هو إلاحظيرة ثعالب قديمة غير منتظمة ولا مرتبة كأنهم لم يقوموا بترميم جدرانها وستائرها من عهد ثورة فرنسا الكبرى حتى الآن بل لم يقوموا بتنظيفها . لكن قلب آدل يدق طربا . والمبانى الداخلية للمقهى تشمل بضع غرف وصالونات متداخلة وبها بضعة بارات ومنضدة للطعام وغير ذلك . وتنتشر موسيقى الروك الأمريكية من أحد أجهزة

الأسطوانات الآلية وأدير نظرى هنا وهناك حين تقول آدل (نتناول شيئا أولا ، أليس كذلك ؟) .

– (طبعا)

أثار شهيتها مقدمة أحد مناطق الطعام على شكل فترينة تمتلئ بالأطعمة البحرية المختلفة .

وأسمع خلفى صوت نادر بارسى بفرنسيته الملكونة والفاضحة

– (مساء الخير يامسيو جلال آريان !)

– (مساء الخير يامسيو بارسى)

ثم يستأنف بالفارسية (تفضل إلى مائدتنا ، هناك مكان ، وعلى المائدة المشاريب والطعام وكل شئ)

– (ماشى)

– (هات معك رفيقتك أيضا)

– (طبعا)

وينظر نادر بارسى إلى آدل بإعجاب وقليل من الدهشة . أما آدل وقد ارتدت تحت النور الساطع للمقهى نظارة غامقة غليظة وشع بياضها وقامتها الطويلة وشعرها الأحمر الضارب إلى الذهبى فقد بدت جذابة جدا . ويقودنا بارسى حتى مائدتهم بنهاية المقهى بجوار ساحة الرقص الصغيرة .

تجمع حول المائدة نحو تسعة أزواج إيرانيين رجالا ونساء . ويقدمنى نادر بارسى إليهم جميعا من يسميهم نفسه (الجيل الضائع) ويقدمهم لى بصورة سريعة . عرفت أربعة منهم اسما ولا أظن أن أحدا منهم كان يعرفنى

أولهم الدكتور أحمد رضا كوهسار الكاتب والأستاذ الجامعى وزوجته . الثانى بيجن كريمبور شاعـــر الشعر الحديث الإيرانى وزوجته . ثم مجيـــد رهنمايى صـــديـق (هويدا) المحب للفنون ، ورضا مجيدى الفنان وأمين المكتبة الخاص (بفرح) ومعها زوجتاهما الأجنبيتا المظهر . ثم الأستاذ جلال كشاورز المترجم والمتخصص فى الزرد شتية الإيرانى المعروف ومن المؤسسين الأوائل لـ (حزب إيران الجديد) وزوجته . أيضا سيادة العقيد جواد علوى وامراته من عائلة كشاورز. وكانت موجودة أيضا السيدة (هما علايى) المترجمة ومعها زوجها من كبار الموظفين وعضو مجلس الإدارة السابقة لشركة النفط وكان يعرفنى من طرف واحد . ثم قاسم خطيبى السمين الذى يختلط حمرة وبياضا بدون زوجته ثم الدكتور كاظم مكارمى بدون زوجته . ثم أحمد قندى بشعره المدهون وبذلته المخملية وبابيونه الفاخر لكنه غير مرتب وكان يستمع الى صوت أمريكا من خلال راديو كاسيت على أذنه ويبدو أنه ابن أخت زوجة مجيدى وكان ينتظر الحصول على تأشيرة أمريكا . وفوق الموائد تتلاطم صنوف الطعام والشراب . كانت جماعتهم فى الحقيقة تشبه كما يقول بارسى مشاهد قصص هيمنجواى . وقبل أن نجلس بأحد أطراف إحدى الموائد أقدم للأصدقاء ومتابعا جوهم العام آدل (مداموازيل آدل فرانسوا ميتران) فتتحول الينا أغلب الرؤوس وتتمعن فى رمقنا كأن عيونهم تخترق الكؤوس إلينا . وتكتفى آدل بالابتسام وتحافظ على وقارها . وينهض الحاضرون باحترام عظيم ويصافحون آدل . وينظر أغلبهم إليها بإجلال وتدقيق ويبدى كل منهم ترحيبه بها ولا ترد آدل آدل عليهم بغير (مرحبا ، تشرفنا Enchanteé) وتجلس فى ناحية . ويصب

لها كريمور خمر البوردو الأبيض . ويهم بصب كأس لى لكنى أرد عليه بأنى لا أشرب غير المياه المعدنية بأمر الطبيب ، فيقول كريمبور بالفارسية (جناب آريان ، كما يقول شاعرنا مشيرى : إملأ الكأ س .. ولا تكسر قلب الغريب .. فكلنا فى الهم سواء) . وعلى وجهه يظهر الألم والحزن وله شارب كث منهدل كشارب ماكسيم جوركى ، وانسدلت على كتفيه جديلة من شعره الرمادى الطويل والمجعد .

فأرد : (أنا آسف) فيقول نادر بارسى (آريان بك حدثت له هذا العام صدمة عصبية . وعليه يجب أن نأخذ هذا فى الحسبان معه .. وله هم آخر أيضا هنا ..)

فيقول الدكتور أحمد رضا كوهسار (لا قدر الله مكروها ياأخى ؟) وجهه تظهر عليه الشيخوخة ومعها فى الواقع الجلال العظيم والمهابة ، بشعر أبيض غزير على القفا طويل ، وشارب ضخم كشارب كمال الملك (أعظم رسامى إيران المعاصرين) وعينين بارزتين جميلتين .

ويضيف متحدثى الرسمى نادر بارسى (وقع لابنة أخته التى كانت تدرس هنا تصادم وهى تعالج بمستشفى ڤال دوجراس . وهى فى غيبوبة وحالتها ليست على ما يرام . فأتى آريان بيه لمعاونتها)

– (سوف تعافى إن شاء الله)

– (إن شاء الله)

ويقول كريم بور (على كل حال يقول الشاعر) (إملأ الكأس .. فليس فى وادى الخراب هذا شراب غيره ينقذنا من حالنا المهدم)

وتسألنى من المائدة المجاورة السيدة مجيدى التى لم تسمع حوارنا

(هل جاءت من قصر « الإليزيه ؟ »)وتسأل بالفارسية المتأثرة باللكنة الفرنسية .

ولا أرد عليها .

وتسأل زوجة الدكتور كوهسار آدل : (مداموازيل ! هل أنت قريبة مسيو فرانسوا ميتران ؟)

تسأل بالفرنسية باللهجة الأصفهانية .

وآدل التى امتلأفمها بالخبز والزبدة والكافيار وتبتلع كل ذلك ببطء وبعون الخمر لا ترد بعد ذلك بغير كله (لا)

– (أليست لك أى صلة قرابة به ؟)

وترد آدل (من هو فرانسوا ميتران ؟)

– (... زعيم الحزب الشيوعى الفرنسى ..)

فترد آدل (لا .. ليس لى أى قرابة بأى شخص اسمه ميتران) وهى تغطى وجه بسكوتة مغلفة بالزبدة بطبقة من الحلوى قدمها لها الدكتور رهمنايى وعلى مقربة من يدها كأس البوردو التى أعاد صبها لها كريم بور.

وتقول السيدة مجيدى (لكنى واثقة أن مسيو آريان قدمك باسم مداموازيل ميتران) فترد آدل (مسيو آريان ، من هو مسيو آريان هذا الآخر ؟ هل هو أيضا قريبى ؟) فتقول السيدة مجيدى (ذاك السيد الطويل القامة الذى أتيت معه)

فتقول آدل (آه .. ذاك السيد)

فتسأل السيدة مجيدى (أليس كذلك ؟)

فترد آدل (هذا السيد مخه تعبان)

فتكتم السيدة مجيدة وزوجها وغيرهم الفاهمون الفرنسية ضحكاتهم وتقول السيدةمجيدى (إذن كان يهزل ؟ ...)

فترد آدل (هذا السيد قال بنفسه إن مخه تعبان) وتشير بأصبعها إلى رأسها ويضحك الجميع حتى أن بضعة غيرهم والذين أثق أنهم لا يعرفون أصلا الفرنسية ولم يفهموا الحوار شاركوهم فى الضحك .

ثم يسأله مجيدى (إذن فما هو اسمك ؟)

– (آدل فومولو)

– (آدل فومولو؟)

– (آدل كريستيان لا فور فومولو)

– (إذن كان هزارا !)

وتقول السيدة مجيدى (.. عجيب ، السيد آريان طبعه هازل) وتلكز زوجة نادر بارسى السمينة التى فهمت لتوها جنب زوجها بمرفقها وتقول : (فهمت يانادر ؟ السيد آريان قدم لنا هذه السيدة باسم مداموازيل آدل فرانسوا ميتران واسمها الحقيقى آدل فومولو)

وأشعر بعدم الراحة لما فعلته بآدل ، فلم يكن تصرفا لا ئقا مهذبا ، لكن آدل ليست متضايقة أولا ، بل إنها منهمكة فى الأكل والشرب وتضحك هى نفسها من هذه النكتة وتشعر بالسعادة ويبدو أنها مسرورة جداً لدخولها لعبة فكاهية مع عقليات بلد أجنبى . هذا الأمر أثار ضحكها وسخريتها . تجمع هذا الجمع هنا للضحك والهزل و (الفرفشة) . وينهض

مجيدى ويراقص السيدة (علايى) . ثم ينهض الدكتور كوهسار بدوره ويراقص زوجته . وأستند إلى مقعدى وأشعر بأنى خالٍ وأسأل نفسى ما هذا التصرف الطائش الذى أفعله هنا . ولا تزال آثار دوار الساعة العاشرة فأبتلع كبسولتين بالمياه المعدنية ، لكنهما يزيدان آلام رأسى دوارا فوق دوار .

ويدس إلى بارسى بعلبة سجائر ويقول (لأنك لا تشرب الخمر ، خذها ، واشرب ، وضع الباقى منها فى جيبك ..)

وبالعلبة نحو عشرين سيجارة ملفوفة باليد عجيبة وغريبة .

– (من نفس الصنف الذى يسحب الذئب ليقابل ابن آوى ؟!)

– (أعلى من هذا)

– (عالم الوهم والخيال ؟)

– (عالم الوهم والخيال ؟)

– (عالم الوهم والخيال ٢٠٠٠)

وعالم الوهم والخيال ٢٠٠٠ هو نفس ما أفتقده الليلة .

– ٩ –

لا أذكــــركم مــضى من الوقت حين دخلت ليلى آزاده . لا تزال رقيقة ظريفة ، بقليل جدا من المكياج ، وشعر كستنائى فاتح ، وقلنسوة مطر سوداء ، وشال على عنقـها صوفى أبيض ، لا تزال ملفتـه للنظر وجذابة . يعرفها أغلب الحاضرين المتحلقين على الموائد ، سعداء برؤيتها . ومفـهوم من طريقة نظرات نادر بارسى وسحنته أنه يتـمنى من قلبه أن يتعرف أكثر على ليلى آزاده . مضى علىّ وعلى ليلى حتى الآن ثمانية أعوام لم ير أحدنا الآخـر ، ولم تكن عـلاقـتنا فى ذاك الوقت تدوم كـثـيـرا ولم تكن أيضـا توطدت. ولا أعتقد أنها تتذكرنى من الأصل . تلقى بالسلامات والتحيات على جميع الجالسين على الموائد وتصافح بعضهم . وحين تصل إلى تقول (سلام !) ويبدو أنها لا تتذكرنى فقط بل كانت سعيدة لأنها رأتنى وسط المجموعة . وتجلس بجوارى.

- (جلال آريان - أين أنت ؟ وأين تسكن هنا ؟)

- (جئت أنا الآخر)

- (جميل ، جميل) وعيناها تبحث عن أشياء في عيني .

فأقول (سعيد لرؤيتك)

- (السعادة هي لقاؤك)

- (معلوم)

- (حسنا ، حسنا)

- (لم تتغير في الواقع)

تنظر إلى وتقول (هل تحطمت ، أو كبرت قليلا ؟)

- (فقط أكثر بدانة)

- (كيف حالك بالضبط ؟)

- (لا أعلم ، أكبر قليلا ؟ أضعف قليلا)

- (متى جئت من إيران ؟)

- (من ثلاثة أيام)

- (بالأتوبيس ؟)

- (المرسيدس التعاوني ١٥)

- (هربت من الثورة الإسلامية ؟ لا .. لا . آسف ، أنت لا تهرب ، إن الهروب عملنا نحن الفراريج)

- (ليلى !)

وتضحك طويلا .

– (حسنا ، سمعت عن الحرب)

– (ما أسوأها !)

– (كيف ؟)

– (القذرون والمجانين .. والملاعين يضربون المـــدن والشوارع والمنازل والأبرياء) . ولأول مرة أجد من أحب أن أفتح له قلبى .

تسأل (العرب ؟)

– (الصداميون الكفرة)

– (من المقصر ؟ ومن تحاربه ؟ مع السعودية العربية ؟)

– (لا ، مع صدام حسين العفلقى الكافر)

وتضحك عاليا (وضح كلامك)

– (سوء حظ الناس الآن أن إيران بلد الورود والبلابل حين تتخلص من مشاكل ثورتها ، يحكم البلد المجاور مجنون مجرم .. مجنون آثم أى فعل لا يقدم عليه إذا حركوه)

– (ألم تصب بصدمة ؟)

– (لا)

– (إنك تكذب)

– (نعم)

تضحك قائلا (حسنا)

وأنظر إليها ولاتزال فاتنة وجذابة .

– (جلال أين تسكن الآن ؟ عبدان ؟ أو هاجرت ؟ أو تعيش على الهامش ؟)

– (على الهامش)

– (الأفضل للإنسان أن يعيش على الهامش من ألا يعيش من أصله). ثم تخفض صوتها (من تراهم هنا من رجال ونساء يأكلون ويشربون ويرقصون ، نصفهم هرب من ثورة إيران والباقى فر من الحرب ، يعنى ..)

– (لا تكملى ، أنا فاهم)

– (أنا أيضا)

– (أما أنت فأتيت إلى هنا منذ ثمانية تسعة أعوام ، ولست واحدة منهم)

وتتأوه وتستند على مقعدها (أنا هاربة دائما من نفسى . فى داخلى ألف ثورة ومائة ألف حرب قذرة مجنونة) .

ويقول نادر بارسى الذى تنصّت فيما يبدو (عزيزتى ليلى : لم نأت هذا المكان بسبب العظمة والجاه – جئناه لنعتصم به من سئ الأحداث) فترد ليلى (بم أرد عليك ياسيد بارسى ؟ أعتقد فيما يخصك أنك أتيت تعتصم بهذا المكان فرارا من زوجتك ..)

ويحمر بارسى (العفو ياليلى هانم) ويرفع كأس الكونياك ويفرغه فى جوفه بكامله . لكنه لا يرفع عينه عن ليلى . ويأتى كريم بور بالمشروب المفضل لليلى آزاده ، كأس صغير فيه سائل أخضر اللون ، ويقول (برنو ، مع قليل من الليمونادة) فتقول ليلى (شكرا لا تزال متذكرا ..)

فيقول كريم بور (من يستطيع أن ينسى ... البرنو والليمونادة هو المشروب الوحيد الذى تشربه ليلانا)

– (وأشياء أخرى !)

– (ليلى آزاده أى شئ تريده أنا شخصيا أخلقه لها بروحى وقلبى)

– (فى نظامك القادم لن يوجد غير الخمر البلشفية الملعونة)

– (موجودة)

– (بالبونات !)

ويضحك كريم بور قائلا (من غير بونات أيضا)

وينصت نادر بارسى ويفهم من نظرته أنه لولا وجود زوجته أمامه لوقف ودق عنق كريم بور ، لكنه يتظاهر أمام ليلى آزاده بالرضا . وأنظر إلى آدل تجاوبت بحرارة مع اثنين من الرجال الدكتور قاسم خطيبى وكاظم مكارمى . ومنذ أن أتت ليلى وجلست بجوارى بدأت آدل فى نصب فخاخها . وتقف ليلى وتذهب ناحية السيدة علايى وتجاذبها أطراف الحديث مدة ثم تعود ثانية . أظن أنها تستكشف حقيقة آدل من أصلها (إذن لك خطيبة أنت أيضا !)

– (روح واحدة فى جسدين)

ويقترب إلى مقعدى رجل طويل القامة ينادونه السيد العقيد جواد علوى ، وبتواضع جم يستفسر عن أحوالى . وأظن أنه أتى هو الآخر لاجتذاب اهتمام ليلى، ويخاطبنى بقوله :

– (أنا المخلص علوى يا آريان بك)

– (تحت أمرك)

– (سيادتك لا تزال فى شركة النفط)

- (نعم)

- (شركة النفط لاتزال موجودة ؟ سمعت أنهم سـموا شـركة النفط (شركت رفت) (الشركة التى ضاعت)

- (ماذا أقول ، لابد أن تشرف هناك وترى)

ولايضحك ويسأل (أين ذو الفقارى من عبدان ؟ وما حكايتها ؟ كان لى أخ - الملازم علوى - استشهد هناك !)

- (تهانىّ وعزائى)

وكانت ذو الفقارى ناحية سكنية حديثة البناء بالقرب من الجبانة أو كما يسميها سكان عبدان (التربة) ، هوجمت أواسط شهر آبان . ومعركة (ذو الفقارى) معروفة ، فأقول (ذو الفقار بجوار تربة عبدان) ثم يستأنف :

- (إذن اخترقوا وسط جزيرة عبدان)

- (دخلوا بالليل عن طريق بهمنشير بالكبارى المتحركة لكن الشعب والحرس والجيش أفنوهم وكان القتلى كثيرين جدا)

ويهز العقيد رأسه ، ثم يأخذ فى تحريك الشراب داخل الكأس (كم بلد احتلوه مما بقى من خوزستان ؟ نورنا يابيك)

- (لا أدرى ياسيدى)

عقيد بالجيش ويجرع خمر البوردو فى مقهى دولا سانكسيون ويطلب منى أخبار حرب إيران .

- (احتلوا ميدان تير فى عبدان؟)

– (أنا فى الواقع موظف بسيط على هامش الحياة ، لست رجل سياسة أو حرب .

نعم احتل العراقيون ميدان (تير) بعبدان ، وتقدموا حتى لم يبق أمامهم غير عشرين كيلو مترا من طريق ماهشهر)

ويغضب العقيد، لكنه يدلى ببعض المعلومات العسكرية والتكتكية ويتفوه بقدر آخر من السب والشتم على النظام ، ثم يعود إلى مكانه بالترحيب والملاطفة والتكليف وتخاطبنى ليلى (لاتغضب ، هل تحب أن نخرج ونتمشى ؟)

– (ماشى ، كما أن لدى مهمة)

– (وماذا عن خطيبتك ؟) وتشير إلى آدل (وسمعت أنك وقعت واقفا)

– (خطيبتى أحوالها تمام)

– (مخطوبان من فترة طويلة ؟)

وأنظر فى ساعتى (من خمسة وثلاثين دقيقة)

– (أين وقعت عليها ؟)

– (فى قلب شارع سان ميشيل)

– (جاءها البلاء !)

وننهض وتعلن ليلى آزاده أننا خارجان نتمشى فتتعقبها كثرة من العيون ويسألنى بارسى (هل ستعود ثانية ؟)

– (أظن)

- (. . . بخصوص تلك المسألة الاقتصادية ؟)

فتقول ليلى (لا تتحدثا بالألغاز)

فيقول بارسى (مسألة كنت وجلال نتناقش فيها)

- (لا تعمل حسابا لأى مسألة قط)

- (أعمل بقول فيتز جيرالد لهذه المسألة حسابا وهى أن الليلة لطيفة)
فيصحح كريم بور كلامه (الليلة طويلة ..)

ويكمل بارسى (والدرويش سهران)

فتقول زوجته (تحدث عن نفسك ، من فضلك ، والدرويش نائم . أنت بعد نصف ساعة من كثرة ما أكلت سوف يرتفع شخيرك هنا)

وتنهض من مائدتها الرئيسية فى ضحك كطلقات الرصاص ويتجه بارسى صاحب العين (الزايغة) إلى زوجته .

وتستأذن ليلى (أستودعكم الله الآن)

- (مع السلامة) .

– ١٠ –

بينما نصعد مباشرة إلى شارع سان جاك . تقول ليلى آزاده (عجيب !)

– (ما هو العجيب ؟)

– (رأيتك البارحة فى منامى)

– (وماذا كنا نفعل ؟)

– (جد ، رأيتك فى المنام أننا كنا معا فى طهران)

– (كان كابوسا إذن !)

وتضحك (لا ، لكن هذا أمر عجيب فى الواقع ، كل هذه السنوات مضت، ثم لابد أن أراك البارحة فى المنام ، ثم أراك اليوم ، بعد كل هذه

السنين، فى نفس شهر آذر ، كل ما أعرفه نسيته الآن ، ثم فى نفس اليوم . تظهر !)

– (قلت إنه كابوس !)

– (لم يكن كابوسا إذ ذاك ياجلال)

– (لا . .)

وتلتقى نهاية سان جاك بشارع عريض يوازى شاطئ النهر . وعلى شاطئه الآخر تهطل بالنور كنيسة (نوتردام باريس) بأنوارها وبهائها لاجتذاب سائحى باريس ، وتتدحرج على سطح الماء قوارب النزهة البيضاء الفاخرة بأنوارها ولمعانها وتتردد بين ذهاب وإياب .

تسألنى ليلى : (جئت لتسافر بابنة أختك إلى طهران ؟)

– (إذا أمكن)

– (أليس من الأفضل أن تظل هنا .. حتى تتحسن ؟)

(لا أعلم ، أختى تريد أن تعود)

– (اسمع ياجلال ، احك لى عن كل شئ من البداية ، بداية ماحدث ، لأفهم ماجرى)

– (منذ حوالى ثمانية وأربعين سنة ، فى إحدى الليالى ، انجذب المرحوم الشيخ أرباب حسن وهو على سطح منزلنا..)

– (جلال ! ، ليس من البداية إلى هذا الحد ..)

– (من أول هذا الخريف ، ينفع ؟)

– (ماشى)

– (حين بدأت الحرب فى اليوم الأول من الخريف أو اليوم الأخير من الصيف ، كنت أعالج لمرضى فى المستشفى رقم ٢ بشركة النفط فى عبدان ..)

– (لماذا ؟)

– (للنقاهة من سكتة مخية ..)

– (غير معقول !)

– (لم أكن أظن أنه كان عندى)

– (ماذا ؟)

– (شئ يصاب بالسكتة)

– (لا تضايقنى ، ثم ماذا بعد هذا؟)

(فى الأسبوعين أول الحرب ، عندما استطعت الحركة وتهيأت أسباب الخروج من المستشفى ، لكن مع السيل المتساقط من الجرحى والقتلى على المستشفى ليل نهار ، دخلت بالتدريج ضمن القائمين بالمساعدة بالمستشفى كأحدالمرضى الذين بإمكانهم الحركة . ثم احتل العراقيون كل منافذ الخروج من الجزيرة ، وكنا مسجونين تقريبا .. وبقيت حتى أوائل شهر آبان . وفى أوائل الشهر اتصلت بى أختى الموجودة بطهران والمقعدة تقريبا بعرق النسا ، وعرفتنى أن ثريا أصيبت فى حادث وموجودة بالمستشفى فى حالة غيبوبة وموت وعلى أن أصل لها بأى شكل وأقدم لها يد المساعدة وقالت لى جمله لا تزال ترن فى أذنى. قالت (ليس لى فى الدنيا أحد وقبل أن يلفونى فى كفنى الأبيض ويدفنونى أريد أن أرى ابنتى ولو مرة واحدة !)

– (لا ياجلال ، لا تتحدث هكذا)

– (قلت لى أحك لى بالتفصيل عن كل ما حدث)

– (عارفة، ثم ما حدث بعد ذلك ؟)

– (ثم دخلت الليلة التالية مياه الخليج الفارسى عن طريق المنفذ الوحيد أى جنوب الجزيرة (من نهر بهمنشير) ولم يكن وقع بعد فى أيدى العراقيين ، مستقلا أحد القوارب القديمة ذات المحركات تحت طلقات الرشاشات وقذائف المدافع وانفجارات القنابل ، ودخلت ميناء ماهشهر ، ووصلت طهران عن طريق بهبهان وكازرون وشيراز لكى أرى مايمكن فعله لأختى وابنتها . هذا تفسير ماحدث وهذه المأمورية)

– (وتريد الآن إعادتها إلى طهران ؟)

– (لن أرجع بها إلا إذا تحسنت)

– (جميل)

– (ثريا نفسها كانت تزمع العودة ، كانت أنهت أعمالها وعلى وشك المجئ حين حدثت لها هذه الحادثة)

– (ماذا حدث لثريا بالضبط ؟ قلت أصيبت بصدمة مخية .. كيف حالها ؟)

– (سيء .. لا أدرى ، يبدو أن حدث لها نزيف بالمخ ، وقال الدكتور أن النزيف فى القشرة المخية وفى المحور الأوسط للمخ ، فى كل مكان منهما)

– (يا لطيف !)

– (نعم ، بنت غير عادية ليس لها مثال)

– (كم عمرها ؟)

– (ثلاث وعشرون . ثريا البنت الوحيدة لأختى ، ومات أبوها منذ سنوات)

– (لم تتزوج ؟)

– (من ؟)

– (ثريا)

– (لم لا ، تزوجت بإيران بعد أن نالت الليسانس من باريس من السوربون. ثم رجعت إلى إيران قبل الثورة بأربعة أعوام تقريبا . وتزوجت ، وكان زوجها ابن ناس اسمه خسرو إيمان ، حاصل على الليسانس ، وكان له عمل بوظيفة محترمة . وكانا متحابين)

– (ماذا حدث له ؟)

– (قتل فى المظاهرات قبل الثورة)

– (استشهد ؟)

– (أجل)

– (ثم أتت بنت أختك هنا ثانية لتكمل الدراسة ؟)

– (نعم ، قالت فرنجيس الأفضل أن تأتى لتكمل دراستها حتى تنسى زوجها خسرو . ثم عادت إلى إيران بعد سقوط الشاه أوائل عهد بازرجان . وكانت أتمت هذه المرة دورة نظام السنة الواحدة . وكانت تنتوى العودة . فى عصر أحد الأيام سقطت على الأرض بدراجتها ، وانشق جانب

رأسها ، ومن ليلتها وهى مغمى عليها)

– (هل عندها ما يسمى concusion ارتجاجا اصطلاحا ؟ أصيبت جمجمتها ؟)

– (نعم ، هى الأخرى)

– (فهمنى أكثر)

– (تحطم جمجمتها ليس مهما فيما يبدو . المهم مقدار الصدمة الذى أصيب به المخ . شرح الدكتور والممرضة باستفاضة لى هذه الحالة . يبدو أنه حدث لها نزيف داخل المخ ، كأن بعض النسيج اللين والبياض بنفس المخ تهتك أيضا كما ذكر الطبيب)

– (يالللفاجعة)

– (نعم إنها تمزق القلب)

– (والآن ماذا فعلوا ؟ !)

– (أخرجوا الدم من أسفل الجمجمة ، لكنا أصيبت بنوع من الارتجاج concusion يشل جميع حركات المخ . وضعوها فى الواقع فى (العناية المركزة) . اتصل كل جسمها بالأنابيب ووصلات الحياة للأكسجين والغذاء والبول والدواء . يعطونها أيضا الكورتيزون والسكر والفيتامين وغيره . ويجرى لها ثلاث مرات كل أسبوع تصوير لمخها بالأشعة أو EEG . كما يسجل لها شرائط لالتقاط خلجات الأعصاب SSR هم شغّالون)

– (هل تعتقد أنها سوف تشفى ؟)

– (نعم ، سوف تتحسن)

– (حلوة جدا ؟)

– (جدا ، ربما فى حلاوتك)

– (بأى مستشفى ؟)

– (مستشفى المبرة (قال دوجراس) هل نطقت اسمه بدقة ؟)

– (نعم ، لى . أنا أيضـا لابد من الذهاب إلى المستـشـفى غـدا . مستشفى ساكركور)

– (لماذا ؟)

– (لكى يفحصنى الطبيب ، عملت عملية)

– (أى عملية ؟)

– (لا يمكن قول كل شئ)

فلا أسألها عن شئ وأتذكر كلام نادر بارسى أن ليلى مريضة وعملت عملية لم تذكر لأحد شيئا عنها . وأنظر إليها ، طأطأت رأسها . لا يمكن أن يخطر بخاطرى أن ليلى آزاده يمكن أن تصاب بارتفاع الحرارة فى باريس وهى الجميلة الشابة الثرية الصحيحة الجسد فكيف يصل بها الأمر إلى أن يجرى لها عملية جراحية . إن المرض نصيبى أنا ونصيب أختى وبنتها .

ونعبر ، قدما ، من فوق (بون نوف – الكوبرى الجديد) ثم نهبط فى طرفه الآخر عن طريق سلالم ونمشى إلى ناحية بعيدة عن شاطئ النهر . كل مكان خلى من الناس ، ماعدا بضعة من الشرطة هنا وهناك وحدهم وتسألنى (وأنت أحوالك الآن ؟)

– (لا تسألينى)

– (لاتزال وحيدا ؟)

– (نعم ،ومتعب)

– (لازوجة ، ولا ولد، ولا منزل)

– (لا نجمة ، ولا كأس ، ولا أى حاجة)

– (لماذا بقيت هناك ياجلال، أعنى فى عبدان وما حولها ؟ يمكن أن تغادر هذه المناطق . تعال هنا أو أى مكان آخر ، اشتغلت هناك سنوات طويلة ، يكفى هذا ، لماذا تظل هناك ؟)

– (أبداً ، مـاذا كنت أعـرف ؟ لم أكن أعـمل شـيـئـا . كنت بالمستشفى ، كنت نائما أتصفح كتابا ، نظرت وإذ بصدام يلقى قنابله وصواريخه ، أنت كيف أحوالك ؟) وتتأوه وتنظر إلى الماء (مقهورة)

– (قال بارسى إنك بعد افتخارى .. تزوجت مرتين أو ثلاث مرات أخرى ... هل كنت تجمعين مجموعة)

– (نعم ألبوم من الأزواج القساة .. أيام أن كنت معى كنت أتمنى بشدة أن أكون زوجتك)

– (لا ! ..)

– (ولما لم تتزوجنى ، يعنى .)

– (لم أتزوجك ؟)

– (إنس الموضوع)

– (لماذا ؟)

- (لم يكن الأمر بهذه البساطة)

- (أولئك الذين تزوجت منهم فاجأونى تماما بما لم أكن أتوقعه ، كانوا فى غاية الإثباط أو كما يقول (فريدون توللى) واحزناه كل من تعلقت بحبه .. ظننت أنه ..)

- (هل أنت حزينة الآن ؟)

- (لست حزينة)

- (هل يوجد فى حياتك أحد الآن ؟)

- (لا .. لا فى الواقع)

وتطرق صامته ، شئ بداخلها يعذبها .

- (هل ألم بك شئ ؟)

- (لا شئ)

- (هل تتألمين من شئ ؟)

- (سوف أذكر لك بعد ذلك . واحدا اسمه الدكتور عباس حكمت حتما سمعت باسمه . مؤلف مشهور)

- (بلا شك ، مؤلف « شمع شبستان » و « خاك درميكده » .. أين هو الآن ؟)

- (يعمل بلندن ، يريد أن يأتى ويأخذنى معه عاما لأساعده فى تأليف كتاب من أربعة أجزاء حول إيران . يؤلف لناشر إنجليزى . ربما أذهب وربما لا .. لم أفكر)

– (جميل)

وبعد مدة تحب ليلى أن نصعد السلالم التى تلتقى بساحة يظهر أن الركاب يركبون فيها القوارب الأجرة فى نهر السين .

– (هل تعلم أننى هنا منذ سنوات ولم أركب قاربا منها)

– (تريدين ركوب واحد منها ؟)

– (وأنت لا تحب ؟)

– (ماشى)

– (لا تريد ؟) وتنظر إلى

– (•ماشى ، هيا ، أنت أحر جتنى بالقدر الكافى)

– (مرسى ياجلال)

واذهب أمام شباك وأقرأ إعلان إرشادات ركوب القوارب ، ولم يمضِ وقت على تحرك القوارب حتى وقف فى ناحية بعض الأجانب الآخرين ينتظرون القارب التالى . وكان بضعة منهم يتحدثون بالأسبانية ، وأحد الجنود وحبيبته الهزيلة يتغازلان . ووقف ثلاثة من الهنود صامتين فى ناحية أخرى . والنهر يتماوج فى موجات رقيقة وينساب جاريا . وتنشر المصابيح الكهربية أنوارها . والليل ساكن والدنيا هادئة .

وبداخل شباك التذاكر جلست إمرأة شابة ترتدى معطفا كحليّا كالملاحين وعلى رأسها قبعة صغيرة بنفس اللون فوق شعرها الذهبى . وجهها كالبنجر الأحمر من البرد . تقرأ جريدة (فرانس سوار) ، وكأغلب النساء الباريسيات بدأ وجهها مزورا وإن كان بريئا كالأطفال .

وقبل أن أمد يدى بداخل جيبى تنادى على من الخلف ليلى آزاده

– (لا ، إنس ، تعال نتمشى)

– (لا تحبين ؟)

– (غيرت رأيى)

– (ماشى)

– (أخاف أن ينفد صبرك)

– (لا ..)

– (انظر إلى ، أنا ليلى آزادة المتذبذبة نفسها . البنت التعبانة المهووسة)

– (إلى أين نتجه ؟)

وتجذب كمّى (ننزل من هنا إلى شاطئ النهر . ومن هناك طوالى حتى حديقة (تويلرى) ثم متحف اللوفر ، ثم من جنب النتردام وسان لويس من الكوبرى ، ونعود إلى سان جرمان) .

– (ألا تحب فسحة بنصف فرنك فى ليالى باريس ؟)

– (لا !)

– (على كل حال أنا تبعك الليلة ،لم تسألنى عن أحدث ما ألفت ؟) (ما هو أحدث تأليفاتك ؟) .

– (لاشئ . أنا مستاءة من أحوال إيران وأوضاعها . ولم يعد شئ فى إيران يحركنى)

– (لا تغالطى بإمكانك دائما أن تبدعى أعمالا عظيمة)

- (مع التغير الذى حدث فى المجتمع الإيرانى ، ولايزال مستمرا من يطلب بعد ذلك إنتاجى ؟)

- (آلاف القراء ، أعمالك دائما مقبولة)

- (لم يعد هناك المجتمع الذى يجعل أبناءه يزدهرون . فعلا لابد أن ندخل شرنقة . ندخل غيبوبة)

- (غير ممكن يا ليلى !)

- (ليت معنا شيئا)

فأقدم لها علبة السجائر التى أعطاها لى نادر بارسى ، فتأخذ واحدة ، وأشعل ثقابا داخل يدىّ وأشعل به سيجارتينا .

تقول (سيجارة قوية جدا ، غالية الثمن أيضا) وتأخذ فى السعال .

- (من أين عرفت هذا ؟)

- (ليس مالا أعرفه من مثل هذه المواد)

- (هدية نادر بارسى . هل تعرفينه جيدا ؟)

- (جيدا)

- (لابد أنه أحبك كثيرا ،كان ينظر إليك ولعابه يسيل)

- (يغور . بعد أن انفصل العام الماضى عن زوجته الفرنسية وقبل أن يتزوج زوجته الحالية، لف ورائى يتملقنى فترة . لكنى لا أحب هذا النوع من الرجال . فهو رزين، عاقل، بالغ، محنك، مفوه ، صاحب جواب على كل شىء ، أف !)

- (هل له منـزل هنا ؟)

– (شقة فخمة حديثة جدا فى شمال باريس ، لكن يبدو أن زوجته السابقة تريد أن تستولى عليها منه عن طريق المحكمة • ويريد بارسى بيعها وهو خائف . كأنه يريد أن يعمل بها صفقة . سمعت أن أكثر ثروته أودعه فى بنك باركلى بلندن)

– (لكنه كان يقول أنه وشلّته هم (الجيل الضائع) لا يران ، مثل الجيل الضائع عند همينجواى)

– (يهذى . همينجواى مات ، وجيله الضائع مات • وهذا الآن من ثقافة مختلفة . أولئك كانوا أساس شعب مختلف • عاشوا قبلنا لستين سبعين سنة . نحن بدلاء أيضا) ثم تتأوه وتقول (ربما نحن ضائعون تائهون •• نحن داخل باريس . نسير غائبين عن الوعى . نستقل التاكسى . نتجالس فى المقاهى . نشرب معا البرنو . نتحادث . نحن مشتتون متشردون . ربما نكون فى عالمنا المختلط البديل الجيل الضائع)

وانظر إليها ويهتز شعرها مع الهواء المعتدل الذى يهب من النهر . وجهها الآن فى ظلال أنوار ليل باريس ، على أرض عمارات (دكورفار ال دولاسيتيه) كوجه أحد شخصيات تلك الروايات أو أنها تحاول أن تكون كذلك •

تقول (والآن وقد أتيت فأنا هنا (ماريا) لك فكن أنت أيضا (روبرت جوردون)

– (غير ممكن ياليلى !)

– (أنا أهذى الآن)

– (صدقت كل شئ مختلط مبدل)

– (لماذا– كيف كانوا فى أسبانيا ؟)

– (ماريا كانت فدائية . قصت شعرها لكيلا يجمع القمل)

– (حسـنا ، أقص شعـرى مـن أجـلك ألاجارسون أو مثل ماريا بحيث لا يجمع القمل)

– (لا تغيرى فيك شيئا ، كونى بنفس الحالة التى أنت فيها يابنية)

– (ماشى)

– (هل تحبين أن نتحدث عن نادر بارسى ؟)

– (لا ، عليه اللعنة ... شئ داخل مخى يتلوى كالأفعى)

إنها سجائر بارسى الملعونة . حالـة (التواء الأفعى) بدورها شديدة فى رأسى . وتقف ليلى تحت شجرة وتستند إليها (تعال ودخن بقية السجائر)

ويشتد هبوب الرياح الباردة على شاطئ النهر والشجرة التى تقف تحتها عارية ضربها الخريف فلم تعد ساترا يحمى .

– (كـبـرنا وعـجـزنا نحن الاثنان ، لكنى أؤدى دور بنت المدارس الظريفة)

– (أنت ماكبرت ، أنت سجادة كرمانية)

– (قل أنى سجادة من اللباد من جعفر آباد)

– (سجاد كرمانية)

– (لا يمكن أن أكون سجادة كرمانية ، ممكن سجادة شيرازية)

– (على كل حال أنت خمر صافية !)

وأشعر بإحساس طيب وأشرب سيجارتين معا ، وأملأ موتار رئتى مثل

السيارات ذات الكاربراتيرين ، وأطرد الدخان من ماسورتى تصريف أنفى ، أشرب بتؤدة وتباطؤ .

– (أنظر إلى شعرك .. خصلة منه ابيضت)

وأخرج نفسا طويلا (مع أنى شيخ ....) *

– (جلال هل تعتقد أن الإنسان يدفع ثمن أعماله الماضية ؟)

– (لا)

ويقترب وجهها من وجهى . ما تزال فى جاذبيتها القديمة . وأنظر إليها . وتهتز فجأة كأن أفعى لدغتها .

– (ماذا حدث ؟)

– (لا شئ . أنت لا تعرف ..)

– (ما الأمر ؟)

– (أنا سيئة الحظ)

– (كيف هذا ياليلى ؟)

– (سوف أحكى لك فيما بعد ، من الخير ألا تعرف)

– (قلت هناك شئ ما)

– (طبعا هناك شئ) وتتأوه آهة طويلة (قلت أننا نكفر عن أعمالنا الماضية .. لكننا نكفر عنها)

– (اطرحى هذه الأفكار بعيداً ياليلى)

---

* إشارة إلى بيت لحافظ الشيرازي معناه :
برغم أنى شيخ فضمينى إلى صدرك ذات ليلة . حتى أستيقظ عند السحر شابا (المراجع)

- (إذن لماذا نكابد ونقاسى إلى هذا الحد ؟)

- (تعالى نجلس على هذه الأريكة)

- (ماشى) ونتوجه إلى الأريكة ونجلس . ولا يظهر لنا داخل المقهى كأنه أصابة الإعياء والتعب . وتزداد الحيرة .

ثم أخاطبها (من يرى حياتكم هناك داخل مقهى لاسانكسيون لا يمكن أن يصدق أن تكونوا متعبين قط فى الحياة . يعنى إذا قارنا حياتكم بحياة الناس داخل عبدان وخرمشهر والخويزة ودهلران وشوش ودزفول وعيلام وسومر ونفت شهر وجيلان غرب قصر شيرين و ..)

فترد (هص ... أعرف)

- (أنا واثق أنك فاهمة)

- (لكن كل واحد له المعادلة الجبرية لمصيره ، جلال .. قلت أنت نفسك هذا الكلام ، أنا فاكرة)

- (حسنا ، لكن قارنى)

وتصمت مدة ، وتنظر إلى ، لكن لاتنظر إلى رأسى ووجهى وحسب وأنما كأنها تتعمق روحى وأعماقى : وتسأل (ماهى أحوالك فى الحقيقة؟)

- (أعيش) .

- (هل عوفيت تماما من تلك السكتة المخية)

- (تقريبا)

- (ليس لها آثار جانبية ؟)

- (ليست كثيرة . فقط حينا لا تستجيب ذاكرتي بسرعة كما كانت في الماضي)

- (أمـــر عادي ، عمي الذي أصيب هنا بسكتة مخية اختلت ذاكرته قليلا)

- (ما أسوأها ! الشئ الذي أحب أن أتذكره فورا ، يمكن ألا يرد على ذاكرتي . لكن الأسوأ من هذا أن المشاهد التي لا أحب أن ترد إلى ذاكرتي حينا فجأة تهاجمني وتظهر لي) .

- (أغلب مشاهد الماضي تتجلى أمام ناظري)

- (مشاهد قديمة جدا أو المشاهد الأخيرة والحرب ؟)

- (أغلبها المشاهد الأخيرة)

- (هل تأتيك في المنام ؟)

- (تأتي لي أثناء النوم . لكن العجيب أنها تأتيني في اليقظة ولا تتركني . فمثلا بالأمس ماذا حدث ، كنت جالسا وحدي بالمستشفى استولى على سائر ذاكراتي مشهدأحد الأيام وقت الغروب وكنت في مستشفى عبدان إذ ذاك ، ظللت دقيقتين أحيا ذاك المشهد)

- (حدثني عن الحرب)

- (لا)

- (قل)

- (لا تريدين أن تسمعي)

– (أعلم ، ليس لدى أى إحساس بالثورة والحرب . ولا أحد منا هنا يشعر بهما)

– (أنت غير مذنبة شخصيا ، فقد هاجرت من إيران قبل ثورتها وحربها مع العراق . كنت فى موقع الاختيار واخترت لنفسك البلد الذى تقيمين به ، كما تختارين بنفسك أزواجك)

– (أوه ؟)

– (أوه)

– (صِفْ لى إذن)

وبرأسى دوار وشرود .

(سوف أحكى لك الآن مشهدا . بعد شهر من بداية الحرب تقريبا كنت فى عبدان . ولم يكن إذ ذاك العراقيون قد أتموا حصارهم لعبدان . وكانت أفواج العاديين من الناس تترك كل شئ وترحل . وكان طريق ماهشهر لا يزال بأيدى الإيرانيين . كان داخل المدينة فى الواقع منطقة حرب . كل مكان كان يمتلئ بالدخان والنار .

وكانت سحب الدخان الكثيفة ترتفع من مصفاة النفط ليل نهار . وكان الدخان والنار يرتفعان أيضا من مخازن نفط باوردة . ولم تكن أصوات انفجارات القنابل وصواريخ المدفعية البعيدة المدى تنقطع . حتى المستشفى ضربوه بالمدفعية . وفى عصر أحد الأيام حين كنت موجودا بالمستشفى ذهبت لأساعد بعض طلبة كلية النفط وكانوا يقومون بالإسعافات . وأتى عامل أصيب فناء منزله بصاروخ كاتيوشا ولقيت زوجته مصرعها وأمه

وأولاده الخمسة كذلك بسبب الانفجار الشديد . وكان وقتها داخل المطبخ فأصيبت قدمه ولم تكن حالته سيئة جدا . وأتوا بجثث امراته وأمه وأطفاله بسيارة الجيب . وكان هو نفسه بأحد جوانب السيارة جالسا ومعه علبة كارتون مكتوب عليها (بوزو مملح) وأعطاها وهو يبكى لأحد الطلاب فسأله بعطف الطالب وكان على علم بما وقع له (ما الذى بداخلها ياوالدى ؟) فقال العامل وهو يضرب رأسه بقبضته (لا أعرف من صاحبها) . وكنا نعتقد فى البداية أن بداخلها البوزو وفتح الطالب أعلى الكارتونة ونظر . وكان العامل يكرر قوله (لا أعرف من هو صاحبها) . وكان بداخل الكارتونة يد لأحد أطفاله انفصلت عن كتفه بسبب شظية فيما يبدو . وكان العامل يضرب رأسه ويقول (لا أعرف من هو صاحبها) .. وهناك كثير من هذه المشاهد .

- ١١ -

ليلى مطأطأة الرأس ، أظن أنها تبكى لكن حين ترفع رأسها تكف عن بكائها ، إلا أن وجهها كساه الخوف والشرود .

تقول : (لابد أن نبقى هنا وندون هذه المشاهد ..)

- (جائز)

- (لا أن نجلس داخل مقاهى باريس ولندن وغيرهما ونقرأ الشعر والتأهاوت ونواح الخمر والمشرّب بإذاعة صوت أمريكا وإذاعة بى بى سى)

- (يجوز)

- (هل تريد أن تسمع شيئا أكثر إفزاعا ؟)

وأنظر إلى عينيها . أنها حقا ترتعش الآن . لا أمد يدى لها .

- (هل تريد أن تفهم سبب أن جسدى يرتعش كالصفصافة حين نظرت إلى بمثل تلك النظرة ؟)

- (نعم)

- (قلت ربما الأفضل ألا تسمع - لكنك تريد أن تعرف ؟) وأظل مطرقا

(واحد اسمه نصرت زمانى ، حتما سمعت اسمه ، كان ينظم الشعر أيضا ويمثل فى الأفلام الإيرانية مشاهد الضرب . كان هنا هذه السنة ، وربما لا يزال باقيا هنا مع أنى سمعت أنه هرب من الشرطة الفرنسية وذهب بريطانيا . فى ربيع هذا العام كان يحجل كثيرا ورائى وحولى . وكنت أشعر نحوه بالكراهية ، لكن فى عالم الحرية والمزاح التى أعيشها لا أعرف قول لا للرجال وكنت أتحدث معه كباقى الشلة أضاحكه أى أنى كنت امرأة اجتماعية . وكان يظن أنه يستطيع أن يفعل كل شىء وفى بعض مرات رفع ورائى داخل المقاهى صوته ولعب دور ابن البلد الفتوة . ومنذ شهر ونصف تقريبا ، كنا ضيوفا فى إحدى الليالى يجمعنا عند الدكتور متين ، وهو مدير سابق لإحدى الشركات الأجنبية ثم هرب وله حدائق وضياع خالية وكثيبة، فى مسكنه خارج بورد يتالى بجوار أتوبان 6 - A . وأسرفنا جميعاً فى الأكل . ونصرت هذا من أولئك الإيرانيين الذين يعتقدون أن المرأة ماهى إلا خرقة تنظيف يجب الاحتفاظ بها فى ركن والاستفادة منها حينا ثم رميها وإخفاؤها فى نفس الركن .

الخلاصة كان تلك الليلة يلف ويدور حولى ... وفى نهاية الليلة قال إنه سيوصلنى البيت بسيارته . أنظر كيف يدق قلبى بشدة حين أقص

حكايته . ولا أعرف كيف وصلنى ابن الكلب بحالته تلك ولم يقبض عليه البوليس بسبب حالة قيادته للسيارة . وكنت أنا نفسى فى حالة طينة وغلبنى النوم داخل السيارة وأمام باب البيت قال إنه يريد أن يصعد لإجراء مكالمة تليفونية . وحين أراد الصعود أتى بزجاجة ويسكى مفتوحة . الخلاصة صعد وجلس وشرب خمرا . ثم دخل غرفتى وهو فى حالة سكر شديدة وبيديه زجاجة الخمر المفتوحة التى شرب منها وكأسان . ويقسم ويحلف أننا لابد أن نتزوج . أننى لم أقص هذه الواقعة حتى الآن لأحد وأنت الشخص الوحيد الذى تسمعها لأول مرة . قلت له حالتى سيئة ويمكن أن نتحدث فى هذا الموضوع بالغد . وكان يزيد فى اجتراعه الشراب ويزداد شهوانية ويتحدث .

ولا أعرف بماذا كنت أرد عليه لكنى كنت لا أريد منه إلا أن يكف عن الكلام ويخرج أو على الأقل يدخل غرفة أخرى ويتخمد ينام . وفى ذلك الوقت لم تكن أختى (برى) فى باريس وكانت سافرت إلى زيورخ . كما كان أبى وأمى فى مرسيليا .. الخلاصة رأيته ممسكا بزجاجة الخمر بعد أن أفرغها فى جوفه ويهددنى . لا أعرف لماذا لم أصرخ وألم عليه الجيران . كنت أسبه وأشتمه وحسب ثم اشتعل غضبة وزاد شره فدق ببطن الزجاجة الحائط وكسرها نصفين وكان نصف الزجاجة المكسورة وعنقها داخل يده..)

وتطرق صامتة . فى هدأة الليل الحالم ، على شاطئ نهر السين الهادئ ، تنزلق على صفحة الماء قوارب بيضاء كبيرة أخرى ، وتذهب . علق على كل شبر من القارب مصابيح غاية فى الجمال ويهب من داخلها

أصوات الموسيقى وصوت النسيم البارد معها . والأعلام ذوات اللون الأحمر والأبيض والأزرق الفرنسية تتماوج برقة بشكل نورانى بأعلى الصوارى مع نسيم الليل العليل .

(مكثت شهرا ونصف شهر بالمستشفى . أخذت ثمانى عشرة غرزة فى جسمى خارج الجزء الأسفل من الكبد .. ولم أعرف ماذا فعلوا بداخل جسمى وأنا بالمستشفى ..)

– (هص)

(فهمت فقط الآن .. فهمت ماذا جرى لى)

قلت (ابن الحرام هذا أين هو الآن ؟ فى بريطانيا ؟)

– (نعم . أشعر الآن أننى لم أعد ثانية كما كنت ، أحس أن هذا الشئ الذى كنته ، تمزق وانقهر ومات) .

– (لا تكونى طفلة يا ليلى .. طبعا أنت كما أنت ، تحدث الحوادث .. منها الهين ومنها الفظيع)

– (أنا لا أهتم به . أنا أفكر فى نفسى ، فكرت فى نفسى ، كان الذنب ذنبى) .

– (اخترت يا ليلى الطريق الصعب للحادثة . طريقها السهل أن الإنسان دائماً يعلق كل شئ بأعناق الآخرين)

– (كنت أفكر فى نفسى الأيام و الليالى التى قضيتها بالمستشفى . كنت أفكر فى نوعية الحياة التى عشتها من الرابعة عشرة والخامسة عشرة والتى وصلت بى فى النهاية إلى هذه النهاية – لكننى لم أكن أفكر بهذه

السرعة . أى حريات وعدم انضباط وتقيد هذه التى لم تتمتع بها فى إيران البنات فى السابق .. أو على الأقل كنت أتمتع بها .. الفلوس الكثيرة .. الحرية الزائدة . يعزنى الجميع . كان أبى يحب اللّهْوَ . أمى كانت بنت فلان السلطنة لشيراز . وأنا نفسى كنت طفلة شقية . بعثونى وأنا فى السابعة عشرة إلى فرنسا عند عمتى ، كنت أسافر وأعود. وتزوجت فى التاسعة عشر بأكبر مخرجى الأفلام الإيرانية فى عهده كما وصفوه . وكنت كلما أذهب إلى طهران حديث المحافل . كنت أترجم الكتب وأؤلف القصص وكان الناشرون وكل من يعمل بالسينما والتليفزيون يحجلون ورائى ويتملقوننى . كنت بداخل نفسى وحيدة وحزينة لكن الأمر يختلف حين يوجد الشراب والرقص و المتملقون . لم يكن عندى هدف ولا إيمان ولا معيار ولاقيمة .. فقط أفرح ، أشرب ، أقرأ الشعر ، أعشق ، لأننا نموت بسرعة)

فأقول لها (كأنك الآن تغيرت)

– (لا ، فقط أشعر بالانهزامية)

– (لماذا . أنت تتحدثين بانطباع جديد)

– (لا .. أنا كما أنا . ألم ترنى الليلة . أن الإنسان لا يتغير من الثلاثين فصاعدا .. وأنا الآن فى السابعة والثلاثين)

– (هذه الفكرة خاطئة يا ليلى . الإنسان بإمكانه أن يتغير ، إلا إذا لم يحب)

– (وأنا لا أحب)

– (جد فى الأمر جديد الآن)

– (إذا أردت فلن أستطيع)

– (ربما لا تستطيعين التغير مع هذه المجموعة التى تصاحبينها . ويعلم الله أنهم شلة مشتتة ومتشردة وجيل ضائع كما يقول بارسى ، ألا يعرفون ذلك ؟)

– (لا ، لا أحد يعرف . لا أظن . فى تلك الليلة وصلت بعربة إسعاف إلى مستشفى خاص . عمتى وزوجها الفرنسى هما فقط يعرفان ماحدث . حتى أبى وأمى فى مرسيليا لا يعرفان شيئا . وهذه هى ميزة الغربة على الأقل . يمكنك إذا أردت أن تكون لوحدك ومنعزلا ، وتهزل وتموت ولا يدرى بك أحد . حتى أختى (برى) الموجودة هنا الآن لا تعرف شيئا قنعت فيما يخص نصرت زمانى بإبلاغ البوليس بالحد الذى يتعلق بى . لم أحب أن تشور ضجة أو ضجيج . هو نفسه من بعد تلك الليلة اختفى تماماًوفجأة . ولما عرف كريم بور وبارسى والدكتور كوهسار وبهمن قرا كوزلو بعد ذلك بثلاثة أسابيع ، لم أقل لأحد منهم شيئا، فجمح بهم الخيال وتصوروا أسوأه ، أى ظنوا أننى عملت عملية إجهاض)

– (والآن كيف حالك ؟ وبم تشعرين ؟)

– (لا أعرف . أشعر أن كل شىء أصبح تماما الا أنا لم أعد امرأة كاملة)

– (لا تكونى طفلة .. ألا تشعرين بالبرد)

– (أشعر فقط بجفاف حلقى)

– (هيا نذهب . وخذى شيئا فى أى مكان)

– (نعود إلى سانكسيون .. نرى ماذا تفعل شلة التشرد و التشتت)

– (ماشى)

– (وأكمل لك بقية فسحة الليل التى بنصف فرنك)

كانت صادقة ، فهى لا تقبل التغير .

ونصعد سلالم شاطىء النهر ولابد من اجتياز الشارع أمام اللوفر الى الشرق.

وتقول ليلى (نرجع بالتاكسى ، أشعر بالتعب)

– (ماشى)

ونذهب الى الشارع وننتظر تاكسيا . الشارع خال .

– (ذاك المبنى العالى والأسود الذى تراه قصر العدالة . و آخره القسم الذى سجنت به مارى انطوانيت قبل إعدامها)

– (حسنا فعلوا)

– (جلال – لا تكن سفاكا !)

– (تعالى ، هذا التاكسى خال)

ويقف التاكسى ونركبه وتذكر ليلى العنوان . وسائق التاكسى امرأة حملت كلبها بجوارها فى المقعد الأمامى . وتتحرك من ميدان شاتليه من خلف كنيسة نوترد ام ومن الطرف الشمالى لجزيرة ايل سان لويس الصغيرة وتعبر الكوبرى . وتستمر ليلى فى حديثها . كل من الكنيسة والجزيرة منيرة مضيئة بإجلال . وتلمع الجدران العالية الحجرية بانحناءاتها الصغيرة فى النور غير المباشر . وحديقة الكنيسة وعمارتها القديمة نظيفة صافية وهى من البهاء والأنوار الكهربية ومنظر البانوراما مالا يجعلها تبدو للنظر أنها مكان

دينى وللعبادة والدعاء . وينعطف التاكسى من نهاية الجزيرة من فوق كوبرى (بون دوسولى) إلى داخل شارع سان جرمان ، ثم يدخل من تقاطع مناسب شارع سان جاك . وتقترب الساعة إلى الثانية عشرة . وننزل أمام مقهى سانكسيون وتدفع ليلى بإلحاح شديد أجرة التاكسى . وأريد أنا بشدة أن أستأذنها للانصراف .

– (الأفضل أن أعود للفندق ، وأنام)

فتقول (أدخل ، كل قطعة حلوى ، إشرب فنجان قهوة)

– (لا ، رقم تليفونك بدليل التليفونات ، ولابد أن أتصل بك)

– (ألا تحب أن ترافق خطيبتك ؟ مداموازيل فرانسوا ميتران)

– (لا ، لا أحب الدخول بسبب نفس هذا الأمر)

وتضحك (قلت لك طلب عندى)

– (طلب ؟ نعم . أختى تحب أن ترسل مقدارا من النقود لنفقات مستشفى ثريا ، حدود مائة ألف فرنك .. طبعا ليس عندها وسيلة لكى تخرج النقود . هل تعرفين بدقة من بين أصدقائك من هو أهل للشغب ؟)

– (أنا عن نفسى أستطيع أن أدفع قدرا من النفقات)

– (لا . لو أعدت كلمة واحدة ثانية مما قلته فلن أتصل بك مرة أخرى)

– (لماذا ؟)

– (أنا لا أتحدث فى النقود مع من أحبه)

– (لا تكن سخيفا !)

– (إذن انتهينا من هذا الموضوع)

– (طيب ، فيه اثنان أو ثلاثة)

– (من الجيل الضائع ؟)

– (نعم ، الأستاذ الدكتور كوهسار يؤدى هذه المأمورية ، وپارسى نفسه يمكنه أن يقوم بها . وكذلك بهمن قرا كوزلو . والعقيد الدكتور أفشار . تعال وتحدث مع واحد منهم خفية) .

– (سوف نرى)

وبناء على هذا ندخل ثانية مقهى دولا سانكسيون .

غادر أغلب المجموعة الإيرانية وتركوا المائدة الكبرى ولم يبق غير مجيدى وزوجته واثنان ثلاثة آخرون . وزاد عليهم اثنان أو ثلاثة آخرون أحدهم رجل مكتظ القوام غليظ القد جدا يظهر أنه حين نتعارف سعادة أركان حرب دكتور قائم مقامى فرد .

يعرف جيدا ليلى آزاده . ثم رجل متوسط العمر متواضع وأظنه سائق الدكتور أو حارسه . وأطلب فنجان كاكاو باللبن وتطلب ليلى البرنو . ويطلب أركان الحرب (تيمسار) بأن يأتوا إليه بزجاجة كاملة برنو على المائدة الرئيسية ، مع أنه يعتقد أن السيدات يجب ألا يشربن غير الشامبانيا ، لأنه نفسه يحب البرنو.

يقول (نمشى من هنا إلى منزلى ، عزيزتى ليلى ، وهات صاحبك معك أيضا)

– (صديقى دخل بالعافية يريد العودة لينام)

– (النوم ... لا تهزلى ياعزيزتى ! أن النوم يكون بعد الموت ! بعد الموت نذهب فى النوم !)

(أشرب الخمر فسوف تنام تحت أطباق الثرى) ونغمة كلامه العشقى الشعرى هى نفس نغمة الأوامر العسكرية . وميدان نضاله هو مقهى دولاسانكسيون . وتقول السيدة مجيدى (لكن السيد آريان خفيف الظل ، برافو) ويقول مجيـــدى (نعم ، لكن مدامـوازيل آدل فرانسوا ميتران انتظرته طويلا !) وتقول زوجته (لسانها مثل المبرد ، خاصة ألفاظها السوقية ! كانت تكيل سباب أحط ميادين باريس) .

ويكمل مجيدى (وطبعا الدكتور قاسم خان خطيبى واتاه الحظ معها) وأحمد قندى ببابيونه والراديو الكاسيت الترانز ستور السابق الذكر ، يذيع الآن البرنامج الفارسى من إذاعة أمريكا ويبدو أنه مسجل . يقول المذيع بصوت يثير الاشمئزاز ومن خلال صوت الموسيقى (السلام الحار الساخن منا من واشنطون العاصمة المشمسة للولايات المتحدة الأمريكية إلى الأولاد الطيبين والآنسات الوفيات الإيرانيات .. فى طهران ، سمنان ، الأهواز ، شيراز ، عبدان ، جلبايكان ، مشهد ، كرمانشاه ، وسائر مدان إيران الجميلة..)

وتسأل ليلى زوجة مجيدى (أين ذهب باقى الشلة ؟)

فيرد الدكتـــور مجيدى الذى تفهـــم لغته الفارسيـــة أكثر فى عـّالم السكر (السيد نادر خان بارسى الذى كان النوم كابسا عليه ، أنهضته أمراته وذهبا إلى (بون دونوفى) ولابد أنهم يتخانقان على السرير بسبب الفلوس . والدكتور المهندس كاظم مكارمى استفاض فى إظهار معلوماته عن النظريات الفزيقية واينشتاين أمام آدل حتى نهضت فى النهاية من أمامه واصطحبت الدكتور خطيبى النونو . طبعا حضراتكم تعرفون أن خطيبى رافق زوجته إلى بريطانيا وتركها داخل مصحة عقلية مجانية .

وكاظم مكارمى الذى ذهبت امرأته تتفسح فى السويد برفقة ابن أخته ! ذهب بصحبة السيد الدكتور كوهسار وزوجته إلى منزل أركان الحرب فرخى طباخ صاحبة الجلالة . المهم ، أقلوا من الأكل هنا .. أنا لا أزال أفكر فى أن خطيبى النونو هل يستطيع أن يفعل شيئا ؟ ..)

– (أنا لا أتوقع نتيجة حسنة !)

– (وأنا لا أنتظر عاقبة حسنة !)

– (آدل كانت تريد آريان بك)

– (نعم، مداموازيل فرانسوا ميتران كانت تريد السيد آريان !)

– (لا ، قربة خطيبى النونو !) .

وترتفع الضحكات الصاخبة من كل مكان بالمائدة وتقول ليلى إلى زوجة مجيدى (نسرين ، إحكى لى عن كل شئ من طقطق للسلام عليكم !) (أخاف أن تموتى من الضحك) وتقول زوجة مجيدى (بارسى يعتقد أننا جميعا (الجيل الضائع)بناء عن قول ذلك المؤلف من هو ؟)

وأنظر إلى ليلى .

ويقول مجيدى (نحن جميعا بالزاكيون)

وتقول ليلى (بالزاك ياسيد مجيدى ؟ الجيل ضاع بسبب القيم الأخلاقية لبالزاك حسنا .. حسنا)

– (أنا عارف ؟)

ويقول الدكتور قائم مقام (كلنا جميعا بالزناكيون)

وأنهض واقفا

(عن إذنكم)

فتقول ليلى (جلال ! لا تَمْشِ الآن)

– (لابد أن أمشى)

– (طيب وذلك الموضوع ؟)

– (أى موضوع ؟)

– (تلك المسألة الخاصة بالمستشفى)

– (غدا أتصل بك بالتليفون)

– (ماشى)

– (فى العاشرة ، يناسبك ؟)

– (العاشرة ، مناسب)

– (إذن أستودعك الله)

– (ماشى ، مع السلامة)

واستأذن الجميع وأخرج . الحمد لله أن الشارع لا يزال باقيا فى مكانه . وأسير فى شارع مسولوبرنس ثم إلى فندق بالما الصغير وهو بدوره لا يزال باقيا بموضعه . أنا فقط المتعب الشديد الإرهاق .

- ١٢ -

الشاب الذى يعمل فى الاستقبال بالليل بالفندق كان يطالع كتابا وآخذ مفتاح غرفتى وأصعد بالأسانسير . الغرفة دافئة وبدون أن أضيع اللامبة أخلع ملابسى وأنزلق وسط السرير . الملاحف بيضاء وخشنة لكنها ليست سيئة أيضا . وأفتح مذياعى الترانزستور بجوارى . وأتركه على إحدى المحطات الإنجليزية التى تذيع نشرة الأخبار والتعليقات السياسية ولا تزال رأسى بها دوار . ومع هذا أرفع سيجارة أخرى من فوق المنضدة بجوار السرير وأشعلها وأفكر فى ليلى .

وبينما أتمدد وسط الظلام ومطفأة السجائر على صدرى أدير مخى تدريجا وسط طبقات الدخان وأتركه شيئا فشيئا وسط الظلمة المنسالة بالغرفة. حين كنت صغير السن هربت لتوى خارج كوابيس (درخو نكاه) وشارع

شـابور .كنت لا أطيق الليل ولا أنام بدون نور وكنت أشعـر بالخـوف . الخوف من أن تتقـاطر عليّ فى الظلام عفـاريت (درخونكاه) الملتهـمـة وتلتهـم رأسى . لكن الآن لا أستريح للنور . الآن النور يضـايقنى . كسـائر الأشياء الكثيرة التى كانت فى الصغر مقبولة لكنها الآن مكروهة . الآن من خلال الظلمة أرى أشياء كثيرة ماضية أفضل مما كانت عليه حتى عفاريت الطفولة الملتهمة فى درخونكاه ..

وحين أطفئ عقب السيجارة ، يتصاعد الدخان من سائر رأسى لشدة دوارها. لكن حين أغمض عينيّ تنقلب ثانية بين المنام واليقظة صورة ليلى آزاده وذكراها على قشرتى المخية .. ثم تختلط بها ذكريات أخرى ، ذكرى المرحلة التى عدت فيها إلى إيران بعد وفاة زوجتى وكنت فيها وحيدا وأسعى لكى أجد عـمـلا . ثم مرض أخى يوسف ثم وفاته . ثم فى أحد فصـول الخريف حين كنت لصيقا بليلى آزاده .كانت طلقت لتوها من أول أو ثانى أزواجهـا وكـانت تبحث عن رجل خارج دائرة عائلتهـا وأصدقائها لتنفث همومها فيه وفى ذلك الوقت كانت تترجم كتابا صغيرا لمؤسسة نشر فى طهران وكان لكلينا فى تلك الدار صديق مشترك . كانت ليلى آزاده شابة مفرطة الإحساس والجمال . لكن كان معلوما أن علاقة دائمة لن تنشأ بينى وبينهـا ، لأنهـا هى من هى وأنا أيضـا البسـيط البرئ . وإذ ذاك لم يكن فى محفل ليلى آزاده أحد قط يبحث عن العلاقات الثابتة والحياة البسـيطة. عالمها نشأ من الفن والإحساس والإبداع وجوهر العشق والتهاب الحياة . أما أنا فلم أكن غير احتياطى . تشاطرها أحزانها ، تسند رأسهـا إلى رأسك ثم تنظف بعد منفضات السجائر .

ويدق جرس التليفون جرسا قصيرا أو لعلى أرى حلما . لا أدرى كم نمت أو أن النوم غلبنى أو لم أنم أصلا . أقول لنفسى أتركه يرن ولا أرفع السماعة. لكنى أخشى أن يكون وراءه أمر هام . يمكن أن يكون من المستشفى أو من طهران .

ولا يدق الجرس مرة أخرى . أرفع على كل حال وسط الظلام السماعة .

– (آلو؟)

– (آلو ، مسيو آريان ، معذرة) صوت الشاب المسؤول مناوب الليل بالفندق

– (أنا صاح ، نعم ؟)

– (هنا سيدة وسيد ويريدان أن يريا إن كنت لازلت مستيقظا أم لا .. وبما أنك صاح فسوف يقابلانك)

– (أجل ، موافق)

– (إذن ليس لديك مانع أن يقابلاك ؟)

– (لا)

– (الصالة التحتانية مفتوحة)

فأسأله (ألم يذكر لك السيد والسيدة اسميهما ؟) رأسى من شدة دوارها وعدم النوم مثل قفص مملوء بالفئران تدحرج من أعلى درج له ألف درجة .

بعد لحظة وكأن سماعة التليفون تنتقل من يد إلى أخرى اسمع صوت امرأة تقول بالفرنسية (.. C'est moi أنا ..)

– (ليلى ؟ أنت)

(.. Mais Ouiii نعم)

-- (أحوالك بخير؟)

ويبدو فى صوتها وكلامها أنها شديدة السُكْر .

– (نحن فى خير حال وأنا والتيمسار قام قام .. أنا والتيمسار الدكتور – آه أى اسم يجب أن أنطق به فى هذا الوقت من الليل – الدكتور قائم – مه – قام فـــرد وجناب حكيميان كنا نعبر أمـــام الفندق – قلت نطل عليك. لـــم تكن نائما ؟)

– (نائماً ، أى وقت للنوم وقد حل الصباح ؟)

– (ما أخبار رأسك ؟)

– (أظن أنها لا زالت متصلة بجسمى)

– (يمكننا أن نصعد إليك ؟)

لم أستطع فى وقت قط أن أقول لها لا (طبعا)

– (أو تحب أن تنزل ونركب سيارة التيمسار ونقوم بجولة)

– (ماشى)

– (إذن ، تعال)

– (أعطونى دقيقتين لما ألبس هدومى)

– (حكيميان مهتم بمشكلتك)

– (أى مشكلة ؟)

– (.. نفس تلك المشكلة)

– (تعتقدين هذا !)

وتضحك مقهقهة (طيب ، أسرع ، ثم سأشرح لك الموضوع)

ومع حالة رأسى ، عمل عظيم أن أستطيع أن أرتدى حتى سروالى . وألبس كذلك سترتى الشامواه . وانحنيت لأعقد رباط حذائى حين داهمتنى هجمة دوار أكثر قسوة أخذت تلف فى الجزء الأمامى لرأسى ، وأظن أنها هى نفسها . وأضع رأسى على الحائط وأغمض عينىّ . وبعد بضع ثوان يمضى دوار رأسى قليلا قليلا وأسمع صوت صعود الأسانسير الملاصق لغرفتى . ثم يطرق واحد باب غرفتى ، و أهمهم يالطف الله واسمع صوت ليلى (جلال)

– (من ؟)

– (أنا وحدى ، إفتح)

– (الباب مفتوح)

وتفتح ليلى الباب وتدخل بنفس قبعة المطر السوداء وشال العنق بأول الليل وتسألنى (لماذا تقف هكذا وتسند رأسك على الحائط ؟)

– (لا شئ)

– (رأسك مصدع ؟)

– (انحنيت لأربط حذائى ، فانصب الدم الجارى فى جهاز الدورة الدموية فى مخى) وتطلق ليلى آهة متكلفة . ويبدو أنه لا يجرى فى جهاز دورتها الدموية فى جسدها غير (البرنو) والليمونادة .

– (لم تكن نمت ؟)

– (كنت تظنين ماذا كنت أفعل يا بنية ؟) ثم أسألها (أحوالك أنت بخير ؟) (أنت متلألأة جدا !)

– (بخير ، لكنى عطشة) وأنهض وتتقدم وأسألها (تريدين كأس ماء ؟) أعلم أن هذا حمق منى .

وتنظر فى عينى ، عيناها مرهقتان حزينتان متألمتان .

(قلت عطشانة ولم أقل أريد أن أغسل وجهى ويدى)

– (أتيت هذا الوقت من الليل لتحكى لى هذه النكتة ؟)

– (لا .. السيد عباس أغا حكيميان تحت يريد أن تتحدث معه . أتى معه بدفتر شيكاته أيضا)

– (شكرا .. لكنى لست راضيا عن إزعاجك فى هذا الوقت من الليل)

– (لا تقل هذا الوقت من الليل .. تعال) هذه حالة ليلى آزاده . حين كنت أنظر إليها على شاطئ النهر كانت ترتعش كالصفصافة . لكنها الآن – وقد تركت رجلين وصعدت هى بنفسها لهيب مشتعل .

فأسألها (ماذا يريد الدكتور قائمقام ؟) .

– (أتينا بسيارته) .

وتجلس على السرير وتمشط شعرها . ثم تنقل بصرها فى جوانب الغرفة الصغيرة الخالية تقريبا . وبما أن شيئا حتما لا يدور فى عقلها لتتحدث فيه تقول (نظيفة)

– (كوخ) واستمر فى عقد رباط حذائى .

– (صغيرة قليلا)

– (عشت فى أماكن واسعة جدا . مثل المستشفيات . مثل المصحات العقلية)

– (المصحات العقلية ؟)

– (السنة قبل الماضية مكثت ثلاثة أسابيع فى عيادة نفسية فى شميران)

– (يابختك)

– (هل تعرفين التيمسار الدكتور منذ أمد طويل ؟)

– (هذه المرة الثالثة ومالطة تخرب)

– (من ضمن رجال السياسة أو المتلخبطين الأثرياء ؟)

– (الاثنين معا)

– (وقع فى حبك ؟)

– (ماذا أحكى فى هذا ؟)

– (هل هو دكتور حقا ؟)

– (لا ، كان طبيبا بالجيش .. درس هنا وأمضى بضع دورات فى الجيش . من نفس دورات الدكتور أيادى الطبيب الخاص لصاحبة الجلالة الشاهبانو ثم دخل مديرية صحة الجيش . ثم دخل رئاسة الجيش)

– (يعنى حرامى) – وأتممت عقد رباط حذائى .

– (ياليته حرامى فقط . بل هو مخنث جدا)

وتنهض وترتب ثوبها وشال عنقها

– (ننزل ؟)

وتحركت (ألا تريد أن تقبلنى ؟)

– (لا)

– (معك حق !)

– (لا تكونى حمقاء . كل فعل له وقته ومكانه)

– (هل تعرف ماذا اقترح علىّ قامقامى ؟)

– (لا)

– (هل تريد أن تعرف لماذا يجرى ورائى يتملقنى ؟)

– (لا ، لا أريد) وأحمل البالطو وأقفل الراديو الذى لا يزال مفتوحا ويذيع أسعار أسهم نيويورك وتغيير العملات وارتفاع قيمة الذهب فى نيويورك ولندن وهونج كونج .

وتقول ليلى (يريد أن يعطينى خمسين ألف دولار لكى أذيع من راديو الوطن رسالة . هل سمعت الآن كلمة : Prostituée Politique العاهرة السياسية ؟) .

– (لا لا لا مطلقا)

– (ألا تريد خمسين ألف دولار ، كم يكون بالفرنك الفرنسى ؟)

– (ليلى ! تتكلمين مثل النساء الغبيات ! بالله عليك لا تهذى !)

– (وماذا قلت ؟)

– (ماذا حدث لك ؟)

– (ماشى ، خلاص ، سوف أخرس ، لا تغضب)

– (هيا)

– (أرجو ألا تغضب !)

– (هيا بنا)

– (كانت نكتة ، قصدى أنكت والله العظيم)

– (عظيم جدا)

وأطفىء اللامبة ونخرج معا من الغرفة ونهبط لأسفل بالأسانسير .

وتقع عيناى على الجسم الممتلىء جداً للتيمسار الدكتور قائمقامى فرد بجوار رجل ضئيل الجسم له شعر كثيف على قفاه رمادى داكن مسشور بأحد أركان الصالة الضيقة النصف المضيئة كأنهما (لوريل) و (هاردى) . وقفا أمام خريطة كبيرة لباريس بها خطوط المترو والملحقات . بجوارهما زهرية ضخمة بها شجرة (الميموزا) تشبه أمام جسم التيمسار الدكتور قام قامى شتلة شوكة الحسك . كان الدكتور قائم مقامى يضع ساقاً فوق ساق بصعوبة . وتقدم ليلى الرجل الضئيل الجسم باسم السيد عباس حكيميان ويبدو أنه تاجر سجاد فى فيينا وفرانكفورت . ولا أمد له يد المصافحة . يتحدث باللهجة الغليظة اللورية أو بشىء يشبه اللورية الأصفهانية . التيمسار الدكتور سبق أن تعرفت عليه .

ويقول التيمسار (لنذهب ياعزيزتى ليلى . نستقل السيارة ونلف ونتكلم..)

– (ماشى)

– (صديقك كذلك موافق) وينظر نحوى ، فاغرا فاه .

– (ماشى و تفضلوا) أريد بأى طريقة أن يبتعدا عن الفندق .

وسيارة الدكتور قائم مقامى فرد ليموزين مرسيدس بنز SEL - 350 كانت تنتظر فى الناحية الأخرى للفندق ، الأبعد قليلا ، فى شارع مسيو لوبرنس ذى الاتجاه الواحد . وحين تقع عين سائقه على جمعنا يخرج من خلف عجلة القيادة ويفتح بابين من أبوابها . ويركب التيمسار أمام وأجلس أنا وليلى آزاده والسمسار اللورستانى ، الذى عرفت بعد ذلك أنه من أبناءإليكودرز ، بخلف السيارة ، ليلى فى طرف وأنا بالوسط ثم حكيميان بالطرف الثانى – ثلاث فولات داخل قشرة واحدة . ولا أفهم حتى الآن بم يفيد حكيميان .

وحين نخرج من الفندق يربت حكيميان على ساعدى (المخلص مستعد للخدمة ياجناب المهندس)

– (شكرا)

لابد أنه استخدم لقب المهندس لأنه سمع أنى أعمل بشركة النفط .

ويقول التيمسار (حل موضوع الفلوس ثم نذهب إلى البيت ونكمل السهرة)

فيقول حكيميان (على عينى ياسيادة الدكتور . أنا المخلص مستعد وجاهز من تومان إلى مائة مليون لأجل خاطر عزيزى الجناب التيمسار والست الهانم آزاده. هو فقط يأمر.. كم يريد أن يخرج ؟) ويخرج دفتر شيكاته (لدى شيكات بنك كردى ليونيه وبنك باركلى شعبة باريس)

فأرد (لا أعرف)

وتتقدم السيارة من شارع سان جرمان ناحية الشمال وتعبر النهر ويبدو أن اتجاهها كان في (كليشي) مستقر الأعيان في ليلة من الليالي التي يبرد فيها الهواء في باريس لكنه هواء متجدد ، وتود لو كنت في تل (ساوجبلاغ) وادي طهران .

ويقول حكيميان (لماذا تقول لا أعرف إلا إذا كان سيادتك لا تريد فلوسا هنا ؟) فترد ليلي (أخت السيد آريان باعت جزءا من أثاثها وتريد أن تدفع تكاليف مستشفى ابنتها هنا لكي ترجع إلى طهران. ويلزم لهذه التكاليف فلوس والنظام لا يسمح بإرسال الفلوس للخارج)

– (دعي النظام . إذا ذكرت الست الهانم المحترمة آزاده ، كم يلزم من الفلوس أعطيكم الشيك الآن حسب أمركم . بالفرنك ، بالدولار الأمريكي ، بالمارك الألماني ، بالليرة الإنجليزية بأي عملة يريد . لا مشكلة . وأعطي رقم تليفوني لأخت سيادته الموجودة بطهران لتحول لي الريالات . إذا لم يكن معها فلوس فأنا فداها . وفدا الست الهانم المحترمة آزادة . وفدا التيمسار الأكثر معزة عندي من روحي . كم يريد من الفلوس ؟)

وأشعر بالحياء أمام كل هؤلاء لأن أتحدث في تهريب النقود . وأضيق بليلي التي رمتني في هذا المأزق، حتى ولو كانت تتحدث الآن عني كالمتحدث الرسمي ويشعر حكيميان والتيمسار بترددي. ولا يمكن أن أدعهما يعتقدان أني طفل في وعودي فأرد (ليس يلزمني كثير . حدود مائة وخمسين ألف فرنك)

يقول حكيميان (ليست مشكلة إطلاقا . ياعزيزي ، أخرجنا في هذا اليوم أحد عشر مليونا لدكتور اسمه طاغوني أستاذ بجامعة أصفهان أتى

هناعن طريق باكستان . بالأمس اشترينا فى طهران عفش مرابى طاغوتى ومجوهراته التى تقدر بثلاثة وعشرين مليون ودفعنا له هنا نقوده بالدولار . ودفعنا مليونا ونصف مليون أيضا لأحد الأرامنة هنا ومنزله فى شارع ميرداماد بعقد بيع ابتدائى وحوالى ثلاثة آلاف دولار لولدين أرسلناها لصاحبنا إياه صـــاحب مـــؤسسة السيارات بلوس أنجلوس وحول الفلوس فى طهران) .

فيقول التيمسار (إذا أردت الآن أن تبيع تماثيل الأسود المنصوبة أمام البنك الوطنى بشارع الفردوسى فجناب حكيميان يعطيك شيكا عنها هنا)

ويضع التيمسار شريط أغنية لـ (دلكش) فى إستريو سيارته ، وتتغنى السيدة دلكش : لغيرك أنت أنا لا أسلم قلبى .. يازهرتى لا أسلم قلبى لغثاء وقذى . فيقول (دلكش تتحدث أيضا عن (التومان) ياسيد حكيميان . تقول لغيرك أنت أنا (تومن) لا أسلم قلبى)

ويضحك حكيميان ضحكة متكلفة (والله ماذا نفعل مع هذه الأحوال الخربانة ؟)

– (أوضاع خربانة ؟)

– (أى والله . انظروا ماذا فعلوا بهذا البلد ! كم كانت أحوالنا على خير ما يرام . كل مكان بإيران كان هادئا . كان بها الأمن . كان الأمان . كانت الحرية كان الناس يعيشون حياتهم كل أصناف البضائع كانت موجودة بالسوق . أى سوء ساقوا إليه الشعب المسكين !) وأنظر إلى ابن الحرام الملعون .

ثم أنظر إلى ليلى آزاده . كأن أذنيها امتلأتا بمثل هذا الكلام . فتقول بابتسامة وبلا اكثرات (ساعت الأمور لمن ياسيد حكيميان ،لم تسؤلك .

كسبت في يومين بقولك حدود أربعين مليون . أى بعت الدولار المقدر بسبعة تومانات ونصف بثلاثين تومانا)

– (أنا محسوبكم) .

ووصلنا إلى منزل له بوابة حديدية عظيمة . وبعد أن يفتح السائق البوابة يدخل منها . ثم يقفلها باعتناء . وأمام المنزل حديقة ذات أشجار ، ومفتوحة على مصراعيها على نسق أسلب Regence الباقى عن عهد لويس الخامس عشر ، كما ذكرت ليلى . وتذكر ليلى أنها أتت هذا المنزل مرة من قبل وتضيف أن التيمسار اشتراه فى شتاء (١٣٥٧ هـ . ش) . ويقص علينا الآن تاريخ بناء المنزل الذى يعود إلى ماقبل الثورة الفرنسية الكبرى . بنى المنزل من أكثر من مائتى عام أغلبه بطراز (تريانون الصغير) فى فرساى بيد نفس مهندس لويس الخامس عشر (جاك آنجيه جابريل) وأمام المنزل يفتح السائق أبواب المرسيدس ونخرج منها . وقبل أن يدخل وراءنا يأت من صندوق السيارة الخلفى بسطلى ثلج برز منه أعناق زجاجات الشمبانيا الملفوفة عليها أوراق الذهب والبروزات الدائرية . ويدير حكيميان رأسه على عتبة البوابة الحديدية والمشبكة والقديمة للمبنى ، وينفث من بين مخاط أنفه بعون إبهامه مرة بعد مرة أمام كل سيخ حديد من البوابة فى ليلة الحديقة التاريخية. وأتمنى ألا تكون روح جاك آنجيه جابريل تكدرت .

ولا أذكر بدقة باقى أحداث تلك الليلة ، وأذكره باختصار وبرواية غير مباشرة كالتالى : نجلس فى (قاعة) منزل التيمسار ذات طراز (ما بعد النهضة) وديكور الروكوكو ونستمع فى نصف الساعة الأولى إلى الموسيقى

(الأصيلة) لعبد الوهاب شهيدى وبنان التى يحبها التيمسار ونشارك التيمسار فى إسهار ليله وتحببه إلى ليلى زاده ويقهرون البعد عن الوطن بالشمبانيا . ويشرح لنا التيمسار كيفية صناعة الشمبانيا (وينطق شمبانى على وزن كمبانى) : الشمبانيا شراب غازى خاص وإنتاج يقتصر على مدينة قديمة فرنسية بنفس اسمه . ينتج العنب الأبيض فى سهول بها أرض جيرية ولابد أن يدعم جسم الزجاجة بخيوط فلزية وإلا انفجرت فى الهواء ! ثم يشرح التيمسار صناعية البراندى والكونياك . فالبراندى أفضل سائل يستخرج من تقطير الخمر . ويجب تناول البراندى خالصا أى لا ينبغى خلطه بشئ إلا باللعاب . وكل خمور البراندى فى العالم براندى إلا البراندى الذى يعد فى ناحية من إقليم كونياك الفرنسى ، فهو ليس فى الحالة الثانية براندى بل هو كونياك . بلاشك هو نفس البراندى لكنه كونياك . ثم يأخذ الدكتور التيمسار القائمقام فرد فى الحديث فى الرسم ، والرسم من (الهوايات) المفضلة فى سائر حياته ويتحدث عن ثلاث مجموعات . أولا مجموعة (بول سيزان) الرسام الكلاسيكى المعلقة على الجدران والطاق . ثم (بير آغوست رنوار) الرسّام التأثيرى المعلقة أعماله على جدران المكتبة ، ثم (فرانسوا مييه) الذى علقت بعض تابلوهاته فى صالة المرآة . وجمع التيمسار أغلب هذه اللوحات خلال ثلاثين سنة بعد أن تعلق قلبه بالثقافة والفنون الفرنسية . ولا أفهم بعد هذا الملعون كيف وجد الوقت الذى يلاحظ فيه بقر الجيش وخيوله .

وفى حدود الثالثة أنهض وأقول يجب أن أعود إلى الفندق . وأقول فيما يخص تغيير العملة أننى فعلا لا أستطيع أن آخذ قراراً إلى أن أتصل تليفونيا بطهران عصر اليوم التالى . أما ليلى فقد صارت لتوها بعد أن قابلت

التيمسار وحكيميان وسائق التيمسار نشطة مثرثرة إلى حد يثير العجب . وسائق التيمسار شاب إلى حد ما جم الأدب وينادون عليه باسم (بيكلرى) لكنه لم ينطق بكلمة أثناء المناقشات فى تلك الليلة الطويلة وعلى هذا يمكن التخمين بأنه من رجال السافاك أو المخابرات الإيرانية المعقودى الألسنة . أما حكيميان الذى كان يقول إنه لم يمس طوال حياته (المسكرات) فإنه الآن يجرع كؤوس الخمر بما أنه لم يعتقد فى أى شئ . وأثناء ذلك ، يأتى مرة بعد أخرى على جنس الفاكهة والحلوى على المائدة .

وبعد أن يحتسى بيكلرى فنجانى قهوة ساخنين ويشعل أيضا سيجارة رقيقة الغلاف يركّبنى أنا وليلى آزاده ويوصلنا إلى نهاية المدينة . وفى الطريق تستمر ليلى فى الحديث وتذكر أشياء عن نفسها وعباس حكمت ولندن أقسم بالله أنى لم أفهم فى تلك الساعة كلمة واحدة من كلامها . وأرجو بيكلرى أن ينزل أولا ليلى آزاده . أمر يدعو إلى السخرية ، لكن فى هذا الوقت من الليل ومع تلك الأحوال لا أجرؤ أن أترك ليلى آزاده بين براثن بيكلرى الذى كان يتحول من لحظة إلى أخرى (جيمس بوند) أقوى وأفظع . ويصل بيكلرى أولا إلى (بوريتالى) وينزل ليلى . وأخرج أنا أيضا وبعد وداع ليلى ، أتقدم وأجلس بجوار بيكلرى ، ويفتح علبة سجائر أمريكية ويستمع إلى نشرة أخبار بالإنجليزية . ويوصلنى بدورى إلى منتصف شارع مسيو لو برنس أمام الفندق ويقول (تحت أمرك) وأشكره . ويسألنى الآن وهو لم يتحدث معى حرفا واحد من أول الليل إلى نهايته (سيادتك راجع إلى إيران ؟)

– (نعم ، فى الوقت المناسب)

– (إلى شركة النفط ؟)

– (مازلت إلى هذه اللحظة ضمن موظفيها ، لكنى حين أعود لابد من التحقق)

– (فى أى قسم كنتم ؟)

– (التعليم – التعليم الفنى بوجه عام)

عيناه يقظتان ووجهه ناضر غض رزين

فيقول (أنا مستعد للخدمة ياسيد آريان . أعطيك رقم تليفون لتتصل بى)

– (أشكرك) ويعطينى رقم التليفون على قصاصة ورق .

– (شكرا ، اتصل بى) .

ولا أفهم مقصده ، لكن الأمر ليس بهذه الأهمية . فلو كان ابن خالة بعيدة القرابة بالتيمسار نصيرى أو كان الصهر الأقرب لريتشارد هلمز رئيس الاستخبارات الأمريكية فلا عجب . لو كان من مرتزقه السير جيم مانسون وأتى فى غروب اليوم من الزنزبار فلا أدهش أيضاً . هذه الليلة لم أعد أندهش من أى شئ .

– (شكرا ياسيدى بيكلرى)

– (فى أمان الله ياسيد آريان)

– (مع السلامة)

ولا يزال الشاب ساهرا خلف منصة الاستقبال بالفندق وانتهى من روايته . وأستعيد مفتاحى ، ولا يلزمنى هذه المرة حين أصعد واستلقى على السرير كبسولات أو سجائر . ويتلاطم على طيات مخى فكرى فى ليلى وفكرى فى ثريا .

فى ظلمه الليل حين كنا ننظر من نافذة المستشفى كنا نرى البريق الطائر للقنابل أو قذائف المدافع بأعلى السماء .وكانت الكلاب الخائفة لا تكف عن العواء . كانوا يقذفون المنطقة فى كل وقت وكنا نظل يقظين ونخمن حتى انتهاء فترة تبادل ضرب النار من خط سير النار مواقع إصاباتها. فكان أول ما نسمع ، صوت القذائف التى كانت تنطلق من مواقع الضرب فى عبدان صوب الأراضى العراقية كصوت الشريط الضخم الورقى الملصق على زجاجة حين تنتزعة وتمزقه. وكان يصل أولا صوت انفجار قذائف مدافع الهاون العراقية فى مناطق النخيل شمال الفاو وهى تدك عبدان ، ثم يليه صوت شظاياها الممتد (تق تق تق تق) التى ترتطم بالأرض والأشجار والأبواب والشبابيك وكل شئ يقابلها .. وحينا كان يقترب إلينا الصوت إلى حد أننا كنا نستطيع أن نخمن أين ارتطم هذا الانفجار ، وكان الإنسان يخمن النقطة التى سوف يقع عليها الانفجار التالى .

وكانوا نبهونا فى الغرف إلى أن ننام بجوار الجدران لأن مخاطر انهيار الأسقف كانت أكثرمن مخاطر انهيار الجدران لأن بعضها مقوى ومتصل بالآخر. وعندالغروب كانت الغرفة تغوص فى ظلام دامس إلا من كان يتحرك بالكشاف اليدوى (من ٢٣ شهر مهر كانت كهرباء عبدان قد قطعت) . ومن خلال وميض نور المقذوفات النارية بالجوكنت أرى حينا حطام منبع النهر ولا يزال حتى ذلك الوقت بأعلى منصته المعدنية خارج نافذتى . كان المنبع المحطم المفتت المعوج قد انحنى كأنه العلم المغلوب دائما ينتظر فى الظلام الوقت الذى يجتثه فيه مقذوف مدفع أو صاروخ تال.

أصاب الطالب (داود كشاورز) الذى كان أصيب بشظية وهو داخل اللاندروفر ضيق النفس وكان يخشى أن يموت وقتذاك ويفزع بشدة إذا كان صوت أنفاسه التى يزفرها من صدره الواسع وثقبى أنفه الكبير آخذاً فى الخفوت . وكان لدينا جهاز لضخ الأوكسجين لكنه كان يريد أن ينقل إلى ماهشهر . لكن هذا الوقت ، أوائل شهر آبان ، كان أشد أوقات الحرب ضراوة فى عبدان ، لأننا كنا تحت الحصار الكامل ، ولا يمكن التحرك إلا خلال الظلام عن طريق بهمنشير أو من وسط مناطق النخيل على شاطئ النهر ، ثم الخروج عن طريق البحر .

وبين الظلام كانت تصل مسامعنا على حين فجأة أصوات الطلقات الشديدة التى كان يطلقها جنودنا من مقرهم خلف مدرسة الرازى ولم تبعد عن المستشفى وكنا نظن أن (العراقيين أتوا !) وكان هذا المقر قبل الثورة مقرا لتنظيمات السافاك ، لكن صار الآن سجنا لبعض الجواسيس عملاء العراق والسجناء السياسيين على اختلاف درجاتهم ، وحينا لم نكن نتبين هذه الطلقات كانت تطلق على العراقيين أم كانت تصوب إلى هؤلاء المساجين .

- ١٣ -

فى الصباح كان الجوّ مشمسا لطيفا ، مع أن هواء باردا كان يهب أيضاً . وبعد الإفطار أخرج من الفندق وأسير متمشيا حتى أول شارع سان ميشيل ، حيث توجد بعض أكشاك الجرائد . اليوم عطلة والشارع ليس مزدحما كثيراً . وأرى فى أحد الأكشاك جرائد (كيهان) و (اطلاعات) و (ميزان) و (انقلاب اسلامى) طبعة يومين أو ثلاثة سابقة بين الجرائد الأجنبية فأعجب ، واشترى جريدة (كيهان) الصادرة بعد يومين من سفرى من طهران . وتوجد صحف فارسية أخرى أيضا طبعة باريس ولندن ونيويورك ولوس أنجلوس . أخبار إيران ، صداى إيران ، فرياد إيران ، پست إيران وغيرها .

وأعود صوب شارع سان جاك والمستشفى حين أقابل (حميد خدابنده) أحد أبناء عبدان والذى يقول أنه يدرس بباريس . يحمل رزمة من الكتب تحت إبطه، ولون أنفه بسبب البرد تحت نظارته ذات الملقاط يضرب إلى الأرجوانى مثل البنجر المسلوق . ويسعد لرؤيتى ونتصافح .

يسألنى (متى شرفتم ؟) فأرد عليه وأذكر له بإيجاز سبب قدومى .

- (أحوال عبدان سيئة ؟)

- (أجل ، سيئة)

- (خر مشهر أيضا راحت ؟)

- (نعم ، فعلا راحت ..)

- (أصبح اسمها خونين شهر)

- (وأنت كيف أحوالك ؟)

- (معدم .. ولكنى عايش ..)

فأعطيه عنوان الفندق وأقول له إننى موجود هنا لأجل غير مسمى وأريد أن كان لديه الوقت أن يأتى ونجلس ونثرثر .

يقول (هذه الليلة تعال إلى مسرح جامعة السوربون المدرج هنا . فالأستاذ أحمد رضا كوهسار سيلقى محاضرة)

- (رأيته البارحة)

- (رأيته البارحة ؟)

- (فى اجتماع أصدقائه)

- (كأنهم لايروقون لك ؟)

– (لا أدرى ، لم أكن أشعر أن أعمالهم لصالح إيران)

– (أفهم قصدك)

– (لكنهم ليسوا جميعا على طراز واحد)

– (لا .. أشكال مختلفة . منهم من كان موجودابفرنسا قبل الثورة . بعضهم هرب وقت الثورة وبعدها . وبعض آخر هربوا بعد الحرب. يتكاثف جمعهم هنا . ومجموعتان أخيرتان محتالون)

– (على أى شكل ؟ !)

– (بينهم كل تافه وكل دون)

– (هم هكذا فعلا)

– (المجموعة الأولى منهم ليست سيئة جدا)

– (كل واحد منهم فيه المعادلة الخاصة بذاته . طيب ، أستودعكم الله)

– (مع السلامة)

– (هل ستأتى لأراك ؟)

– (على عينى ، سوف آتى)

– (سوف أسعد بك)

وفى المستشفى نقلوا ثريا إلى قسم أشعة الراديو وقسم الإ لكتروا نسفالو جرافى وتخبرنى جورجيت لوبلان أنهم نقلوها لكى يلتقطوا لمخها صورا جديدة . وأسألها هل يمكن الانتظار مدة لكى أراها . فتجيبنى بالإيجاب . وأجد ، حين كنت أنتظر كشك تليفون وأدير قرصه على الرقم الذى أعطته ليلى لى . ولا يجيبنى أحد .

وأتسكع وقتا فى نواحى القسم ثم أدخل حديقة صغيرة وأتمشى فيها ، وحين أعود وأصعد أجدهم أعادوا ثريا إلى غرفتها وكأنها لم تكن . وأتقدم حتى أعلى سريرهاوأمسح قليلا بيدى على رأسها ووجهها . وكان لا يزال على جبهتها ووجنتيها زرقة مكان أزرار الجهاز وأسلاكه . وأحاول أن أتناقش ثانية مع جورجيت لوبلان حول حالة ثريا ، لكنها تقول إنه يجب الانتظار حتى يفحص الدكتور مارتن نتيجة أشعة اليوم ويمكننى أن أتحدث معها اليوم التالى . وليس من عمل آخر لى بالمستشفى فأخرج وأعود سائرا . وأصل نحو الساعة الثانية إلى مقهى (لوكسمبرج) فى جانب ميدان لوكسمبرج بناء على ميعاد لى مع نادر بارسى . على أن أتحدث معه بشأن تدبير النقود. ولا أجده داخل المقهى ولا المطعم المفتوح المتسع ولا فى أى مكان تقع عليه عيناى . العثور على نادر بارسى ليس أمرا صعبا . فهو فى هذه السنين صار شديد النحافة والطول ورأسه كبيضه رسم عليها أحد الأطفال بقلمه فى الجزء الأسفل منها عينين ونظارة وأنفا وفما ولحية ماعز.

وعلى أحد الكراسى بنهايةركن المقهى بطرف البار وزجاج أحد النوافذ أرى وجه أحد المعروفين الآخرين لى . إنه (حسين آب باك) عالم الاجتماع والشاعر ومذيع التليفزيون . أعرفه منذ أن كان يعمل فى العلاقات العامة بشركة النفط ، لكنى الآن لا أتعرف عليه وهو منعزل بعالمه مع كتابه وبيرته وأرى منظر حسين آب باك هذا على طول الأشهر العديدة التى قضيتها فى باريس : حسين وزجاجات البيرة والكتاب بأحد أركان المقهى وحيدا وغاضبا وتائها .

وأمامه الآن نحو ثمانى كؤوس خالية للبيرة ويقرأ النسخة الفرنسية لكتاب (الحكومة المصادرة) L' Etat Confisqué وعلى غلافه صورة قبضة

خارجة من داخل علبة . وأتجه إلى الركن الآخر للصالة وأجلس على كرسى أحد الموائد بجانب النافذة وأطلب من الجرسون فنجان قهوة وأطالع جريدة (كيهان) . وحين أشعل سيجارتى الثانية يسألنى بدهشة عجوز جلس على كرسى المائدة الصغيرة المواجهة لى : (هل أنت إيرانى ؟) وأهز رأسى بالموافقة مبتسما وأنفث من صدرى دخان السيجارة . أما هو فيدخن غليونه وله شارب أبيض كث كشارب كليما نصو . ويهز مثلى رأسه أيضا .

– (نعم ، طبعا) ثم أسأله (من أين فهمت ذلك ؟ من الجريدة ؟)

فيقول (هل أنت مضطرب ؟)

– (أجل ، أنا مضطرب)

فيقول (كنت بإيران منذ ثلاثة وخمسين عاما)

– (يابختك)

وهذا العجوز فى نحو الثمانين ، أبيض كبقيتهم مشرب بالحمرة أمسك بإحكام غليونة فوق المائدة بكلتى يديه حتى لا يسقط منه ، ومعطفه ورباط عنقه يلمعان .

– (كيف كانت بإيران الأحوال فى ذلك الوقت ؟)

– (معذرة ماذا قلت ؟)

– (كيف كانت إيران فى تلك الأيام ؟)

فيقول (الهواء بارد رطب ، أليس كذلك ؟) وينظر إلى الخارج وأنظر إليه .

يقول (كنت بأصفهان)

- (هل مكثت بهـا مـدة طويلة ؟) . وهذه المرة أحـاول أن أتحـدث بالفصحى فيقول (كنت بشيراز أيضاً)

- (لا)

فأصيح بصوت أعلى (هل طالت مدة إقامتك بإيران ؟)

فيرد (كنت باصفـهـان . كذلك بطهـران . وشيـراز . وأقـمـت بتبـريز أيضاً . وكذلك زوجتى كانت زوجتى عالمة فى الأنثروبولوجيا) . وينطق أسماء المدن بدقة اللهم إلا أنه يبدل (الراءات) إلى (قافات)

- (هل كنت تعمل بالتجارة ؟)

- (وأنت من أين ؟)

فأقول (طهران) .

لكنى واثق من أن سمعه انتهى ، أو لابد أن النطق الصحيح ، بما أنه مكث فترة فى إيران ، تبخر من ذهنه .

فيقول (كنت أتاجر ، وكنت بكرمان ، ثم ذهبت إلى مشهد . كنت قد تزوجت لتوى . كانت زوجتى عالمة أنثروبولوجياوكانت طيبه جدا . ماتت عام ١٩٧٣) .

فأقول (رحمها الله)

فيسألنى (هل تريد شرابا ؟ أنت ضيفى)

فأرد عليه (لا ، ألف شكر)

ثم يأتى نادر بارسى ويجدنى وينقذنى .

(كيف حالك ياعزيزى جلال ؟) وأنهض وأصافحه .

(سلام ، بخير) ويأخذ كليـما نصو الأصم الآن نفـسا من غليـونه المطفأ . ويسألنى بارسى (كيف الأحوال ؟)

فـأرد (سئ . نفس الحـالة . التـقطوا لمخـهـا اليـوم ثانيـة صـورا الكتروانسفالية ، لكن فيما يبدو ليس من جديد يبعث على الأمل)

– (أين ذهبت مع ليلى آزاده البارحة) ولا ينظر إلى عينى .

– (عـدنا إلى دولا سـانكسـيـون لكن سـعـادتك كنت مـشـيت . فاستأذنت وعدت إلى الفندق . وذهبت ليلى أيضا مع التيمسار قائم مقامى وعباس حكيميان وهو من أليكودرز ..) ولا أحكى له بقية الحكاية ، فليس بى قدرة على الحكاية .

ويقول نادر ٠ (جلال ، تعال معى إلى لندن)

– (ماذا ؟)

– (هيـا نذهب إلى لندن ، يومين ثلاثة .. أنا وأنت وخـالى الذى وصل حديثا وغنى ويريد أن يسافر إلى لندن محبة .. وأنت عارف باللغة وأهل الحب والصفا ..)

– (كيف ، نذهب إلى إسبانيا ونتفرج على مصارعة الثيران ، أليس هذا أفضل ؟)

(لا ، لندن أفضل)

– (هل تهزل ؟)

– (لا وحياتك)

– (لا تكن طفلا !)

– (لا وحياتك ، وهذا السفر مناسب لك أيضا)

– (لماذا تهـذى .. أنا جـئت هنا من أجل بنت أخـتى ، فـورائى مشاغل . كما أن مشكلة المائة والخمسين أو الستين ألف فـرنك اللازمة لى لم تحـــل حتى الآن) قال (أولا بنت أختك فى أيدى أفضل الأطباء . وأنت قلت بنفسك أنها فى إغماء وغيبوبة . أما عن نفسى فأنا فى اشتياق إلى فسحة منطلقة قصيرة)

وأنظر إليه وأهز رأسى . لا أدرى أهـــو الأكثر جنونا والأصم سمعا أم كليمانصو أم أنا .

ويأتى الجرسون ويطلب نادر (دوبل كوروازيه) . وأنا لا يزال بفنجانى نصفه .

– (هل تريد بالصدق والحق الآن أن تعود إلى إيران ؟)

– (أجل)

– (إلى بلاد الخراب هذه ؟ بلا خمر وحبيب .. تهدر أحلى سنوات عمرك ؟)

– (ورائى هناك أشياء أخرى)

– (مثل ماذا ؟)

– (مثلا أولا أختى هى كل عائلتى وحياتى)

– (أتحبها إلى هذا الحد ؟)

– (ليس لى فى الدنيا أقارب كثيرون أحبونى . وحين يتجه واحد منهم إلى لا يمكن أن أدير ظهرى له)

فيطرق نادر . يسمح لهذه الكلمة المجنونة أن تمضى

– (هل تغذيت ؟)

– (لا ، لا أظن أننى أميل للأكل . فقد أفطرت إفطار دسما)

فيقول (لماذا ، تعال نأكل غذاء دسما ، لم أستضفك منذ وقت طويل) ثم ينادى الجرسون (من فضلك قائمة الطعام) فيقول الجرسون (حاضر ياسيدى) ويمضى .

ويقول بارسى (أو تريد أن نصحب معنا ليلى .. ونبقى ثلاثة)

– (ثلاثة إلى أين)

– (إلى لندن)

– (لا) وأفهم حالا أن ليلى هى مشكلته .

– (كيف حالها ؟)

– (بخير ، كانت البارحة حلوة وسعيدة)

ويأتى الجرسون بقائمة الطعام ونختار . ولا يزال المقهى مزدحما . وأجيل نظرى وحسين آب باك لا يزال هناك فى النهاية مشغولاً بكتابه وزجاجات البيرة . وكليما نصو منهمك مع غليونه وكأس خمره الأحمر وصمته . ويتحدث بارسى عن خاله الذى يمتلك أربعة حمامات فى شمال مدينة طهران . ويبدو أن خاله يريد السفر إلى لوس أنجيلوس حين يحصل على التأشيرة ويشترى حمام (سونا) . وبدأ الجرسون فى إحضار طعامنا ويشمل الحساء والسلاطة والبيفتيك والبطاطس والبازلاء الخضراء الصغيرة . قال بارسى (لم تقل لى عن تعبها ؟)

- (من ؟)

- (ليلى)

- (لماذا لا تسألها أنت ؟)

- (أنت كنت معها الآن)

- (صفر)

- (احك وحياتك ..)

- (وضعت يدى منك فى الشق !)

- (لم يكن أمرا قديما ؟ إذا لم يكن يتصل بى فاحك لى بالتفصيل . قل لى أن تعبها لا يتصل بك)

-- (يانادر ، الله يرضى عليك !! ماذا جرى لك ؟ ألا تعتقد أن هناك موضوعات أخرى أيضاً ؟)

- (كنت قلقا بسبب آزاده .. أريد أن أعرف حالها منذ عجزها عن التأليف مرة أخرى وهي فى تشتت . نعم أعلم أنها تستطيع أن تمسك قلمها وتجلس وتكتب . لكن لابد من مطبعة ، الكتابة وحدها لا تكفى . هى امرأة عاطفية حساسة ، حين تتأثر تكتب . وهنا روحها لا تتأثر بشئ ولو على الأقل بنفس الدرجة حين كانت فى أول أمرها فى إيران)

ثم يقول بلا وعى (كيف حالها الآن)

- (نادر إن ليلى طلقت منذ ثمانية أشهر من زوجها لا أعلم الرابع أو الخامس . وأعتقد أنها خطبت لعباس حكمت المؤلف الضخم والمشهور)

- (خطبت لعباس حكمت ؟ المقيم بلندن فى بريطانيا ؟)

– (نعم ، معلوماتك الجغرافية تمام . ما أعرفه أن ليلى تريد السفر إلى لندن وتعمل مع جناب عباس حكمت)

– (ليلى تريد الذهاب إلى لندن وتشتغل مع حكمت ؟ لكن حكمت يعمل لمؤسسة دعاية ونشر آسيوية أصغر انسان يعرف أنها تحت إشراف وزارة الخارجية والمخابرات الإنجليزية)

– (لا أعرف هذا)

– (ليلى تريد العمل مع حكمت ؟)

– (البارحة قالت لى هذه المعلومات ، وكان الدوار يأخذ رأسى بسبب سجائرك اللعينة . الحقيقة لم أكن فاهما كأنها تقول أن عليها أن تقرر بسرعة السفر إلى لندن لسنة أو سنتين)

– (سنة أو سنتين تمكث فى لندن ؟)

– (هذا كلامها)

– (لا أصدق)

– (طيب ، لا تصدق)

البيفتيك والبطاطس عندهم سيئة ، لذلك آكل بغير إقبال ، ثم نتحدث عن الفلوس قليلا . ويتمنى بارسى أن يمد يد المساعدة لكنه يقول إن حالته الآن معسرة . شكته امرأته السابقة (كانت فرنسية) ويريدون أن يأخذوا منه المنزل الوحيد الذى يملكه فى باريس فأقول له إننى لا أقصد أن أطلب منه مالا ، لكنى أريد أن أجد عن طريقه رجلا موثوقا به اقترض منه

المال وأحول إليه ما يقابله من النقد الإيرانى فى طهران . فيقول بارسى ربما يمكن أن يقوم بهذا خاله . لكن خاله رجل معاملة والشغل شغل ، لكنه نفسه لا يزال على طول موجة ليلى آزاده.

فيسألنى (وماذا تريد أن تفعل بشقتها بكل ما لها من فخامة ؟)

– (ليلى ؟)

– (نعم)

– (عليك أن تسألها هذا السؤال)

ونأخذ إذ ذاك بعض الحلوى والقهوة ، لكن نادر لا يزال جائعا ويطلب إلى الجرسون أن يأتى إليه سندوتشا bien cuit « مستوى » على الآخر .

– ويقول (كنت سمعت بموضوع علاقتها بعباس حكمت ، لكنى لم أكن أعرف أنها قررت الارتباط به . هل أنت واثق ؟ !)

– (لا)

– (إذن لماذا قلت هذا ؟)

– (أردت أن أضحك عليك)

– (جلال لا أعرف مطلقا متى تهزل ومتى تتحدث بجد ، مثلا البارحة ..) ويصب الجرسون لنا القهوة حين أقول لبارسى : (لا تنظر وراءك ، وخمن من الذى يأتى وراءك ؟)

– (ليلى ؟)

– (لا يا مفضوح امرأتك !)

– (واه ، نسيت أن أقول لها إننى لن أتغذى فى البيت . وهى الآن فى غاية الغضب)

وتأتى زوجة بارسى وأختها بفاخر الثياب وكامل الزينة وتجدااننا ، وليس واحدة منهن بدت غاضبة وتقول زوجة بارسى (كنت أعلم أننى سوف أجدك هنا .. السلام عليكم)

وهى ابنة أحد أصحاب الشركات الإيرانيين ، ومهما كنت أفكر فلم يكن يأتى فى عقلى سبب زواجها بنادر بارسى اللّهُمّ إلا نبوغه وشهرته الأدبية . أو ربما لأن بارسى يعرف أعمالا أخرى فى أماكن أخرى وأنا على غير علم بها . وينهض نادر واقفا ويسحب كرسيين إلى الخلف لهما ويجلس سارا وسيمين . وتسألنى زوجة بارسى (كيف حالك ؟)

– (بخير ، شكرا ، كيف حالك ؟)

– (شكرا لسيادتك) وعيناها على وأنا ونادر كل منا عيناه على سيمين فحينما خلعت معطفها خرج ثدياها فعلا بارزين من فتحة قميصها . وتقول امرأة بارسى (ماذا أكلتم ؟ أكلهم هنا يفضح)

فقال نادر (أكلنا شيئا مع السيد آريان)

– (أتوا بهذه القطعة البلاستيكية على أنها بيفتيك)

وتخاطب سارا نادر (اتفقنا أن تأتى سوسن وجواد علوى هنا الساعة الثالثة فبكرت أنا وسيمين فى الوصول)

– (طيب)

ثم تغير فجأة لهجتها (نادر مرة ثانية لا تريد أن تأتى إلى المنزل ولا ترفع سماعة التليفون ؟)

فيقول (على عينى ، عذرا ، آسف ، كان التقصير منى)

– (الطباخ طبخ أكلا كثيرا وقلنا نرميه)

– (نسيت من أصله . كنت نائمة فى الصباح ، ومشيت لأقابل المحامى فى منزله وانشغلت)

– (النسيان شئ وعدم الاهتمام شئ آخر . عذرواه)

وأرفع رأسى وأنظر إلى بارسى . بدأ فجأةبظهور زوجته يغوص فى ماء كديك عجوز نقرت دجاجة رأسه . ويطاطئ رأسه . يقول (قلت آسف)

ولكى أغير الموضوع أقول مخاطبا بارسى (ألا يحب أحد أن نذهب إلى لندن فى الكريسماس لنقضيه مع ليلى آزاده والسيد حكمت ؟)

فتقول زوجة بارسى (لندن ؟)

وتقول أخت زوجة بارسى أيضا (لندن ؟)

ويركلنى واحد من تحت المائدة ركلة ظلت ساقى حتى العصر تتألم بسببها. فيقول بارسى (جلال يهزل)

فأقول (صاحبنا الذى يجلس بجانب البار وبقرب النافذة أليس حسين آب باك الشخصية التليفزيونية ؟)

فتقول سارا (ولماذا هو بالذات ؟)

ويقول بارسى (يجلس هنا دائما ويتسول البيرة ومنعزل داخل عالمه) فتقول سارا (أدعه مرة ونسأل عن أحواله)

– (دعيه ، أنه جيفة)

– (لا تقل هكذا ، حرام .. مسكين ..)

– (حرام ، مسكين ؟ حين كان يحرك الإضراب داخل التليفزيون

لم يكن حراما ؟ حين كانوا يعتصمون فى إيران بحماس المجانين وهيجانهم ويحرضون على المسيرات فى الشوارع ويطيرون بلا سراويل فى بحر حب الثورة ألم يكن حراما ؟)

– (الجميع كان يفعل هذا فى ذلك الوقت . وسيادتك عملت هذا أيضا)

– (أخطأت)

– (كلهم جيف الأجساد إلا أنت !)

فأقول (اسمحوا لى فلابد من العودة إلى الفندق . فهناك اتفاق على أن يأتى زوج إحدى صديقات بنت أختى إلى هناك) ويقف بارسى ويصافحنى قائلا (اتصل بى غدا !)

– (ماشى)

وأقف بجوار الباب ناحية الباب واشترى علبتى سجائر من جهاز السجائر الآلى وأعود وأنظر إل بارسى وزوجته وأخت زوجته . لايزال الثلاثة جالسين مكانهم . يبدون للنظر فاخرى الملبس وذوى وقار ومظهر فائق . يشرب الثلاثة البراندى والقهوة . ولا تزال زوجته تتحدث . كأن هذا الفعل فقط يرضيها أو يسعدها . وينصت بارسى إليها وكأن إذ ذاك هذا العمل فقط يرضيه أو يسعده . الثلاثة منشغل أحدهم بالآخر كثيرا . ويتناول الرجل العجوز الأصم ذو الشارب الشبيه بشارب كليما نصو غذاءه ويقرأ جريدته ويشرب حسين آب باك البيرة أيضا ويتصفح كتابه . المقهى مزدحم . ولا يهتم أحد بغيره كلهم مثل بعض وكل يبكى ليلاه ولابد أن هذا الفعل يسعدهم أو يرضيهم .

مثل يوم أن كنت أرسل (مطرود) وابنه إلى أغاجارى خارج محطة بهمنشير بعبدان تحت قصف المدافع والهاون وانفجار القنابل . والمنطقة بخارج جسر بهمنشير مزدحمة . وتشرق شمس الصباح ، لكن المشهد كأنه القيامة . بعيدا مواسير المصفاة لا تزال وسط الدخان والنار واقفة منتصبة . وسائل النقل فى مجرى النهر تداخلت واحدة بشدة فى الأخرى لمسافة بضعة كيلومترات . يختلط ألوف العرب والعجم فى حيرة من أمرهم ويركنون إلى الفرار . يتحرك الناس بأى وسيلة نقل . من العربات حتى الشاحنات والدراجات البخارية والعربات نصف النقل يتعلقون بها ويهربون بها فى الصحراء إلى كل حدب وصوب ليس لهم بداية ولا نهاية ظاهرة . بداخل عربات التاكسى المحملة والعربات نصف النقل وحتى فوق الدراجات البخارية ، رجالا ونساء شيوخا وشبابا فى حشود ضخمة .. يسير بعضهم مع أبقارهم وأغنامهم على طول جانب الطريق ويقودون قطعانهم .. زئير المقاتلات أعلى رؤوسهم ، وانفجارات الهاون ومقذوفات المدافع من حولهم فيزيد هذا من سرعتهم . الهلع والارتعاش والأعصاب الشاردة والمشاعر الحزينة . إحساس بأن أشياء تحدث ولايمكن للإنسان منعها .. إحساس عند كل الناس بعد حد من الشقاء أو حد من السعادة كلهم يشبه بعضهم بعضا ولا يستطيع المرء أن يحدد شيئا بدقة . ولا يعرف متى يكون طيبا ومتى يكون سيئا لأن كل شئ مثل غيره . وأخرج من المقهى وأعود ماشيا إلى الفندق .

وحين أرجع إلى الفندق أجد رسالة من ليلى لى (أتت مدامـوازيل آزاده لمقابلتك وسوف تعود حدود الخامسة على وجه الاحتمال) . وفى هذه الساعة سوف يأتى كريستيان شارنو وزوجها . فأقول فى نفسى (عظيم) سوف يتعرف بعضهم على بعض . فليلى يصدعها رأسها من أجل التعارف

والاجتماع بالناس . ولابد أن كريستيان وفيليب شارنو لا يسوؤهم أن يتعرفوا إلى مؤلفة وشاعرة ومترجمة أبعدت عن إيران من العهد البهلوى . ولا تزال الساعة الواحدة وأعطى رقم تليفون أختى فرنجيس فى طهران إلى سوموبجو الذى يجلس بجانب التليفون لكى يصلنى بها فى غرفتى . والآن فى طهران بداية الليل وقلت لفرنجيس إننى سوف أتصل بها فى مثل هذا الوقت .

وبعد خمس دقائق يتصل خط التليفون وأرفع السماعة وأسمع صوت فرنجيس بعد صوت عامل التليفون الموصل فى طهران فقد ظل خط التليفون مقطوعا .

– (آلو – جلال ؟)

– (نعم ، السلام عليكم يافرى ..)

– (كيف حالها ؟)

– (نفس الحاله – بخير)

– (لم تفق ، لم تعد إلى وعيها ؟)

– (لا .. إلى الآن ، لكن وجهها ينبض بالحياة)

– (اسمع ياجلال ، قبل أن يحدث شئ وينقطع الخط أتركنى أولا أقول لك أمرا . دبرت مبلغ خمسمائة ستمائة ألف تومان ادفعها فى أى وقت لمن تحدده لى ، بعت ما عندى من ذهب)

– (هل احتفظت بالفلوس فى البيت ؟)

– (احتفظت معى بجزء منه احتياطا)

– (ضعى كل ما عندك فورا فى البنك .. احتفظى بالمبلغ حتى أتصل بك. البنوك موثوق بها . فى البيت غير آمن)

– (ماشى ، ماشى ، قل لى فقط من أعطيه الفلوس ؟)

– (انتظرى ، ولا تتعجلى ، لابد أن أجد أفضل الوسائل لمسألة الفلوس)

- (احك لى عن البنت)

وأحكى لها دقيقتين عن حالة ثريا وعلاجها والأشعة بحيث لا أفهم هل طمأنها كلامى أو زاد قلقها .

فتقول (الذنب ذنبى أنا الغلطانة وأنا الذى أرسلت بيدى ابنتى إلى باريس لكى تتحطم)

– (فرى ، ما هذا الكلام ؟ من أين كنت تعلمين ؟)

– (بعد استشهاد خسرو لم تكن بنتى تريد العودة إلى فرنسا . وأنا بيدى أجبرتها وسفرتها إلى تلك المخروبة . أنا التى أرسلها بالقوة إلى مكان موتها ..)

– (فرنجيس ! لماذا تهذين ؟ لماذا تعذبين نفسك بلا سبب ؟ أى موت ؟ وأن من أين عرفت أنها ستموت ؟ آلاف الناس يعيشون وسط باريس بسعادة واطمئنان ..كان أفضل لهم من طهران ومن طردهم من العمل .. أردت أن تأتى هنا لتكمل دراستهماوبقيت أنت لوحدك ، لا تقوم كل أم بهذ التضحية .. وجرى القدر بهذا الشكل .. لا تتحدثى هكذا ..)

– (ما أعرفه .. ومن كل ماحدث ومن كل ما أفكر فيه أرى أن الذنب كان ذنبى ..)

فأرد (لا ..) ولكى أصرف فكرها من شدة مصيبة ثريا أسألها (ماهى أخبار طهران ؟ ألم يمطروها بالقذائف ؟)

– (لا .. ليس هنا أى وقائع يهاجمون فقط عبدان والأهواز ودزفول وهذه البلاد)

– (وأنت كيف حالك ؟)

– (بخير)

– (وكيف حال قدميك ؟)

– (بخير)

وأعلم أنها تكذب (ألا تزالين تعيشين وحدك ؟)

– (لا .. عندى زوجة الدكتور محمدى وولدها هنا . أنت عارف أنهم أضيروا بسبب الحرب . أتوا من عبدان)

– (الدكتور نفسه عندك ؟)

– (لا إنه يسافر إلى عبدان ويأتى . جلال خل بالك من نفسك !)

– (ماشى . إن شاء الله) .

ونتحدث لحظات أخرى ، ثم نضع السماعة .

فى الخامسة أغسل رأسى ووجهى وأغير ملابسى وأنزل وأنتظر فى ركن من الصالة الصغيرة ، وتظهر مدام ومسيو شارنو بعد نحو ثلاث دقائق بعد الخامسة ومعهما طفلاهما . وشارنو قصير القامة لكنه حسن الطلعة وكثير المزاح والفكاهة. وامرأته ترتدى اليوم معطفا مشكلا ملونا ليس جديدا كثيرا وقبعة بنفس اللون . ويصافحنى شارنو ويعرفنى إلى ابنه ذى الرابعة من عمره (جان لويس) وابنه الآخر ذى الثالثة (پولت فرانسواز) فيقولان بأدب (مرحبا ياسيدى Enchanté , Monsieur) . ثم يتابعان بعد

مباشرة الشقونة واللعب سويا . كلهم عامة سعداء ويعشون على السعادة . الزوجان كأنهما يستعجلان اصطحابى للضيافة لكنى أرجوهما أن يستريحا أولا بضع لحظات ويتناولا الشاى والكيك ثم نتحرك بعد ذلك . وأقول لدى صديقة تركت لى رسالة أنها سوف تأتى لى فى حدود الخامسة ، وربما سوف تأتى . وأحكى لهم باختصار عن ليلى آزاده لكن ليلى لا تظهر حتى الخامسة والنصف ، لهذا أترك لها رسالة على وجه الاحتياط تسلم لها إن أتت وأبين لها أين ذهبت وأذكر فيها أننى سوف أتصل بها بالغد على وجه الاحتمال . ثم نخرج من الفندق جميعا ولفيليب شارنو سيارة (رينو) جديدة ، ونصل أولا إلى المستشفى ، وأصعد أنا وكريستيان شارنو ويبقى بالسيارة فيليب والطفلان . وحالة ثريا لا يجد عليها جديد وتخبرنا مساعدة التمريض الموجودة هناك أن شخصين آخرين من أصدقائها أتيا إليها أيضا ثم غادرا بعد مدة . وتقول كريستيان شارنو هذا الأمر يحدث دائما ، فأصدقاؤها وهم كثيرون يأتون إليها لكن بما أنهم لا يستطيعون الحديث مع ثريا ولاتستطيع الانتباه إليهم فلا يطيلون ويذهبون .

الوقت يظلم حين نصل إلى (سان رمى) فى جنوب غرب باريس . أجلس أنا وفيليب شارنو بالمقدمة وأهل بيته بالمؤخرة ، وينزل شارنو من شارع (رنيه كوتى) وبعد أن يعبر شارع (جاردان) يصل إلى المدينة الجامعية وتشير كريستيان شارنو إلى المبنى الذى كانت ثريا تعيش فيه . وهو مبنى كبقية المبانى بالمدينة وقف بعظمة ويمتلىء نورا . أظلم جو باريس الآن وبسبب أنه ليلة آخر الأسبوع فكان المرور مزدحما ... ويبدو أن كل سكان العالم ينسالون من كل حدب وصوب داخل باريس . وباريس للجميع نهاية المطاف . ويأتى أخيرا إليها كل متعب وعاجز وطريد ومن أى مكان ولا

يغادر باريس أحد قط لو كان عاقلا إلى مكان خلافها. فقط أنا الغريب أفنى في الغروب من باريس. وأتمنى أن ليلى كانت معنا .

وبعد فترة حين نتقدم فى شارع مزدحم يبدأ المطر فى الهطول شيئا فشيئا ويدخل فيليب شارنو منطقة سكنية نظيفة ليس فيها ما فى المدينة و الشوارع المكتظة بالسيارات والازدحام . ليس غير المنزل والأبنية المتحضرة كأننا دخلنا خلايا نحل بكوكب جديد . تستمر كريستيان شارنو فى حديثها وأثناء ذلك تسكت طفليها وتؤدبهما . وأرى من خلال الزجاج الأمامى للسيارة أنوار المصابيح والمنازل تنعكس علينا وتسقط الرياح والبَرَد المطهّر قطرات الأمطار .

لا أذكر من تلك الليلة أشياء كثيرة جدا اللهم إلا أن مسكن أسرة شارنو كان حديثا وجديدا كثيرا ونظيفا جدا وأنهم يحبون القراءة بدرجة كبيرة ويشربون بنهم ويشيع بينهم الحب بشكل كبير ، وجميع تصرفاتهم مرتبة ومحسوبة من وجهة نظرى على الأقل أنا المغترب المشتت . ويتناول طفلاهما عشاءهما مع المربية ويدخلان غرفة نومهما فى الميعاد المحدد . وأم كريستيان شارنو كانت حاضرة تلك الليلة أيضا وتساعد فى إعداد العشاء والعناية بالطفلين . وقبل العشاء نتناول Vin Rose ومعها الأوردوڤر . وأتناول بحيطة منهما . وفى العشاء نحتسى حساء الكمأة ونأكل الجمبرى المشوى قليلا والكرفس ثم السمك الأحمر المقلى ثم نُشرب خمر من نوع الـ Vin Blanc . ثم القهوة ونوع من مشروب العرق الحلو لا أعرف اسمه يؤخذ من الحلوى . تتعشق مدام شارنو وزوجها وأمها (لا بورجيه) الطعام والموائد ويتمسكون به كأن طريق النجاة المنطقى فى تمضية الحياة التمسك بكل حيلة بالطعام والشراب . والأم (لا بورجية) فى سن فرنجيس وتعمل فى

مكتبة محلية ونائبة فى نادى (سانا رمى) للكشافات ، مكتظة القوام سمينة صحيحة الجسم لكنها لا تتدخل فى مناقشات ابنتها وزوجها . لاتفعل شيئا غير أن تأكل وتشرب وتضحك . جلست بجوارى وفكت زرارين بأعلى بلوزتها وأظهرت صدرها الأبيض .

وبين كريستيان شارنو وزوجها اختلافات فى الرأى كبيرة حول الطعام والشراب والتعليم وعلم النفس والأطفال والسياسة . فشارنو غالىٌ معتدل زار أمريكا مرتين ويحب (الولايات المتحدة) . لكن كريستيان اشتراكية ديمقراطية لكنها ليست شيوعية (متهورة) . يرى شارنو أن (جان بياجيه) أوجد فى ميدان (علم نفس الطفل) تحولا ثوريا عظيما فى بناء الفكر الإنسانى فى نصف القرن الأخير . كريستيان فرويدية تقليدية وترى أن الحريات الكثيرة بالطريقة الأمريكية ثم الألفاظ الاستعارية الإكلينيكية عن الطفل زخرف قول ويجب أن يتعود الطفل على النظام بل ويأخذ أحيانا علقة (ساخنة) أيضا وحين تتفوه هذا الكلام لا تنظر إلى أمها ، لكن أمها تتوجه إلى ضاحكة بقولها (أوه ، أنا لم أكن أضرب أولادى مطلقا ، يامسيو . كنت (أوضح) لهم كل شئ وحسب).

ويحب شارنو البيرة ، لكن كريستيان تفضل كأسا خفيفا من الدوبونيه الخفيف أو آخر من سان رافائيل وترى كريستيان أنه (مفزع جدا) أن بعض الأسر فى هذا البلد تشرب فى الفترة الأخيرةالبيرة مع الأورد وفر (يا الهى .. الدنيا جرى فيها أيه) . لهما خلافاتهما و لكنهما يعرفان متى يسيطران على نفسيهما ويعتبران القضية منتهية بقبلة بينهما . ويعلم الله كم مرة تلك الليلة احتضن كل منهما الآخر وقبله . آراؤهما حول سياسة إيران وأحوالها مختلفة أيضا وحزينة . ليس لديهما رأى شخصى حول فلسفة

الثورة الإسلامية ، لأنهما لا يفهمانها أخيرا. لكنهما (يفهمان) الليبراليين المثقفين الفرنسيين . كل منهما بالاصطلاح صادق حنون ، وتريني كريستيان عفش ثريا (نقلت عفش ثريا القليل من محل إقامتها فى باريس إلى منزلها وفسخت عقد إيجار شقتها) . وبين متاع ثريا الشخصى قدر كبير من مجوهراتها . دبلة خطوبتها وخاتم زواجها ، ساعة ، (ماشاء الله)كبيرة ، وسلسلة ذهبية أخرى ، وإسورتان . نفس ماذكرته لى فريجيس وأتت به ثريا إلى فرنسا ، ولم أستطع تأدبا أن آخذ شيئا من متاع ثريا تلك الليلة لاتحرجا . ويبدو أن فيليب شارنو احتفظ بالذهب كوديعة مقابل التعهد الذى كتبه لتكاليف المستشفى . قلت الأفضل فعلا أن تبقى هذه الأشياء هنا حتى تشفى ثريا (آمل ذلك) وتأتى وتأخذها بنفسها وقال شارنو (على أية حال هنا أكثر أمانا من الفندق !)

وبعد العشاء جلسنا وقتا بجانب النار وشربنا القهوة . وتتحدث كريستيان عن صداقتها مع ثريا . فهى تعرف ثريا منذ نحوثمانية أعوام سواء من وقت دراستهما فى الجامعة قبل الزواج أو أثناء العام الماضى حين عادت ثريا إلى فرنسا . هى تحب ثريا فى الواقع .

وأقول لها (إحكى لى عن يوم حادثتها .. هل كانت يومها هنا ؟) وتتأوه كريستيان شارنو (أوه ، نعم ، ثريا كانت هنا وكان يومها الأحد .كان عندنا لحم محمر وسلاطة روسية وبطاطس محمرة وآيس كريم . وبعد الغذاء لعبت مع الطفلين وكان فيليب يتفرج على التليفزيون ، كان به مبارة كرة قدم . ثم جلست أنا وثريا وتحدثنا . فى نفس هذا المكان على نفس هذا الكرسى الجالس أنت عليه الآن . قالت تلك الليلة إنها تريد أن تتحدث إلى أمها . قالت إنها تريد بجد أن تتحدث إليها وتستأذنها فى العودة

إلى إيران برا . وتعرف أن مطارات إيران كانت مقفلة)

– (أجل)

– (كانت تود العودة . كانت تكثر من المجئ إلينا فى الأيام الأخيرة ، وجمعت تقريبا كل متاعها وكانت منذ فترة أتت بمجوهراتها وتركتها عندي ، لكثرة اللصوص حول مسكنها . لم يكن آمنا)

– (كم كانت الساعة حين غادرت بيتكم ؟)

(مبكرا جدا . الساعة الرابعة . كان الجو لا يزال منيرا . فضلت الذهاب بالدراجة لكنها كانت فى غاية الحذر)

– (لم تكن مريضة ؟)

– (لا . لا مطلقا)

– (عندها حمى ؟ صداع)

– (لا لا لا ، مطلقا كانت كاملة الصحة وفى تمام العافية . لو كان بها أدنى تعب لمنعتها من الذهاب بالدراجة . لم يكن فى الأصل أدنى ظل من الشك حول صحتها وقبل أ ن تغادر فى الحقيقة ركبت الولدين لمدة خمس دقائق وضحكت)

– (وماذا بعد ؟)

– (بعد هذا ودعتنا وهى سعيدة وركبت دراجتها وسارت ببطء. وبعد أن رحلت بدأ المطر بالتدريج)

– (متى أخبرتم بالواقعة ؟)

– (التاسعة إلا الربع . . لا لم يكن الذنب ذنبها . ولم يكن ذنب أى

سائق لا أظن . لم يكن ذنب أحد مطلقا)

ويقول فيليب شارنو (وتسقط على رأسها ببساطة على منعطف شارع وتغيب عن الوعى)

– (لا محالة)

– (!! C'est la vie هذه هى الحياة)

– (لا أعرف . ليس عدلا)

– (لا ، مطلقا ليس هذا عدلا . لكن حينا يقع مثل هذا)

– (حتما)

وفى حدود التاسعة يوصلنى شارنو إلى محطة المترو (سان رمى) وأعود وحدى إلى باريس . ولا أجد خبرا عن ليلى آزاده ، فأستعيد الرسالة التى كتبتها لها وأمزقها ثم أصعد بالأسانسير . وأصل وقت إذاعة أخبار منتصف الليل من راديو طهران لكن ليس فيها غير التقارير السيئة (حاصرت القوات المعتدية لصدام حسين العفلقى الآن دزفول والأهواز ويقتل الناس فى المدن بلامدافع أو يترك الآلاف من المشردين ديارهم (عادة أسمع بعد أخبار إيران أخبار الوكالات الفرنسية والانجليزية فيتضح لى ظل من الحقيقة بعد مقارنتها) . ذكر القائد العام للقوات الإيرانية أبو الحسن بنى صدر فى حديث صحفى أن البعثيين العراقيين لن يستطيعوا الاستيلاء على دزفول شريان الحياة الاقتصادية والنفطية داخل إيران مادام حيا ! يقول سوف يقاتل حتى آخر قطرة دم فى خوزستان !

وبعد أخبار إيران أستمع أيضا إلى أخبار وكالات الأنباء الأجنبية التى

تذيع مثل نفس الأخبار باختلاف قليل أو كبير ، لكنها في النهاية أكثر فزعـــا لإ يران ويلقى بنى صدر فى حديث أدلى به إلى الـ (بى بى سى) بكل الذنب على أعناق الآخرين ويتنبأ للشعب الإيرانى بـ (أيام سيئة) .

وتتثاقل جفونى وأحاول أن أفكر فى ثريا وفى ذلك اليوم بعد الظهر الممطر الذى كانت راكبة فيه دراجتها للقدوم من (سان رمى) إلى حجرتها فى المدينة الجامعية لكنى لا أقوى . جمع العمدة فى أحد الأيام سكان القرية حوله وقال لهم أيها الناس عندى لكم خبر طيب وخبر سئ . الخبر السيىء هو أن ليس لدينا هذا العام فى الشتاء غير روث البقر والحمير. لكن الخبر الطيب هو أن لدينا من الروث بالقدر الذى تحبون .

على النقيض من الآمال الأولى ، لم يعد ما يبعث على الأمل خلال الأسبوع الثالث لشهر ديسمبر بعد إجراء الدياليز عليها وثلاث مرات عملوا لمخ ثريا فيها الكتروأ نسفالوجرافى وفحوص وصور SSR يومية . ويستمر السماح بإعطائها للدواء وسائر قياس نبضات الرأس والتحاليل والفحوص مع أن الدكتور مارتن وطبيبين آخرين يقومان بعلاجها لم يصبهم اليأس . وأدفع عشرة آلاف فرنك أخرى بشيك إلى خزانة المستشفى للسيد ماكادام ، لكننا لا نزال مدينين حتى ذلك الوقت بمبلغ (١٣٩,٠٠٠) فرنكا آخر . إلا أن حب الانسانية والروح المسيحية لا تسمح قط بأن يلقى خارج المستشفى المصاب بالغيبوبة . والجدير بالذكر أن استمارة تعهد مسيو ومدام شارنو موجودة بمكتب حسابات المستشفى ، وآل شارنو يحتفظون عندهم بمتاع ثريا ومجوهراتها .

وفى فندق بالما انتقل إلى غرفة مفتوحة أصغر حجما وأرخص - ذات منظر - فى الدور الأخير ذات سقف هرمى . وغرفتى الجديدة لا يزال بها حمام خصوصى وأوسع كثيرا من كشك التليفون . ولها بلكونة صغيرة نصف دائرية جميلة كذلك تنفتح على حديقة الكنسية وليست سيئة . ومدفنها الصغير ، وليس المنظر سيئا . إذا أحببت يمكنك الجلوس بالبلكونة وتتجمد . ولا يزال حتى الآن سيل الأخبار السيئة عن إيران جاريا . توقف التقدم العراقى داخل أراضى إيران لكن (القوات الصدامية الكافرة) بعد استيلائها على قصر شيرين ونفت شهر وبضع مدن حدودية أخرى فى الغرب وكثير من المدن الحدودية فى باختران وايلام وخوزستان ومن بينها جميع مدينة خرم شهر قد ثبتت الآن مواقعها . وبعد يأسهم من الاستيلاء على عبدان فإنهم مستمرون فى قصفها برا وجوا بانتظام من الشمال والجنوب و الغرب . والحكومة الإيرانية فيما يبدو فى ضيق مالى شديد بسبب تأمين نفقات الحرب ودخلت هذه الأيام بوساطة الحكومة الجزائرية فى مفاوضات للإفراج عن ودائعها المالية فى مقابل الإفراج عن وكر الجاسوسية)

ولا أرى ليلى آزاده فى الأيام العشرة الأخيرة من ديسمبر وفى أعياد الميلاد لأنها ذهبت مع أخيها الشاب الأستاذ فى الفلسفة وخطيبة أخيها وهى ابنة أستاذ جامعى إلى مرسيليا . وفى الليلة قبل سفرها تأتى ليلى لزيارة ثريا فى المستشفى . ثم تدعونى بإلحاف لتناول العشاء فى منزلها فى بورديتال . فى الحقيقة لا أحب أن أصحبها ، لا أود أن انفرد بها . وهى لابد أنها تشعر بذلك ، لكنها تقول إن أباها عندها فى تلك الليلة فى باريس لكنى أود أن أقابل أباها وأتعرف عليه . وحين ننطق هذا الكلام كنا واقفين أمام المستشفى بجوار مكان انتظار التاكسى .

– (ظننت أن أباك فى مرسيليا أو فى تلك النواحى ..)

– (نعم إنه مرسيليا وتلك النواحى . لكنه يأتى باريس كل ستة شهور للمتابعة الطبية) .

– (صحيح)

– (صحيح . واتفقنا أن نذهب جميعا غدا إلى مرسيليا وتلك النواحى .. ولن أراك ثانية حتى بعد يناير)

– (عظيم. أى خبر هذا ! ما هى أحوال أبيك ؟)

– (لا تضايقنى . هل ستأتى أم لا ! وعدت بابا أن آتى بك ليراك . تحدثت له عنك كثيرا)

– (عنى ؟)

– (عن جلال آريان .. حبى الوفى الماضى الذى أتى حديثا من إيران.. حكيت أشياء كثيرة عنك)

– (كلها سيئة – إن شاء الله)

– (كلها طيبة)

– (ماشى ، أنت بهذا تلوين يدى ثانية)

– (الليلة أطول ليلة فى السنة بالنسبة لى)

– (عظيم ..)

– (نجلس بالليل نأكل ، ونقزقز اللب ونمص شيئا من حلوى البلح والجوز ونتحدث . بابا يحب هذه التقاليد كثيرا)

وأنظر إليها من أعلى نظارتى نظرة من تلك النظرات البريئة لكن يمكنك أن تصب فيها كل شئ .

– (تعال . كم تدللت على)

– (لا أستطيع) وأعود وأنظر إلى ثريا من نافذة شباكها .

– (هل رأيتها ، ماحالها ؟)

– (نعم رأيتها ، انفطر كبدى عليها ، المسكينة ! تعال نمشى)

– (رأسك مشغول ، هل أتيت بكبسولاتك ودوائك الذى تتناوله بالليل ؟) وأضع يدى على جيبى فأجدها .

– (تعال ، أريد أن أريك شيئا)

– (هلمى إذن)

تضحك (ألا تسألنى ما هو ؟)

– (كل شئ أفضل من اللب وحلوى البلح والجوز واللوز الملعونين) .

ونصل بالتاكسى إلى بورديتال . وشقة ليلى كما قالت شقة مزدوجة بإحدى هذه العمارات الجديدة Bâtiment neuf . تشمل الشقة طابقين بالأول الصالة وغرفة السفرة وحجرة المكتب ، وبالثانى الذى ينزل بسلم فخم وبه حجرات النوم ، وغيرها ... وبداخل الشقة تناثرت آلاف الزهريات ونباتات الزينة بحيث ترتفع من الأرضية والأبواب والجدران والنوافذ ، أو تعلق فى السقف ، تهتم بهذا كله الخادمة الفرنسية العجوز لليلى واسمها (جنيفييه) ، والليلة أقابل السيد الدكتور آزاده . وفى التاكسى نبهتنى ليلى إلى أن أباها بسبب مرض بالحنجرة والأحبال الصوتية فقد صوته ويتحدث صناعيا بالإفادة من جهاز الـ (سينتيه سايزر) أو توليد الصوت وعليه فيجب مراعاة أنه لا ينبغى أن يتحدث كثيرا .

أما الأستاذ الدكتور عبد العلى آزاده فرجل طويل القد حسن السيما كثير التميز فى مظهر الدبلوماسيين له شارب وحاجبان بيضاوان وشعر كثيف أبيض ومجعد كأنه نصف كيلو قطن هيدروفيل ويلبس نظارة طبية ذات شنبر أسود بعدسات سميكة كنا نسميها فى ذلك الوقت قعر فنجان . والأستاذ عادة يحتفظ برأسه مائلا إلى ناحية. يده اليمنى ضعيفة وتقريبا عاجزة نتيجة حتمية لسنوات خدمته فى الجامعات وبقسم الثقافة بوزارة الخارجية . ويمسك بيده اليسرى جهاز توليد الصوت (ڤويس سينتيه سايزر) الجديد الأمريكى الصنع . وجهاز توليد الصوت هذا وأنبوبة تردد الصوت المتصلة به والمصنوعة من معدن رقيق موضوعان فى حافظة دقيقة الحجم صغيرة وفخمة ومزينة ويضعها الأستاذ خارج حنجرته ويخرج صوته منها . وطرف الأنبوبة المعدنية الآخر موضوع داخل أحد جيوب صداريه والذى يختفى فيه حتما باقى الجهاز والبطارية والمولد . والصوت الخارج من وحدة التكبير الصوتى الصغير لجهاز التوليد صوت صاف لكنه متموج معدنى يعطى حالة الصوت الظريف لأرتوديتو فى فيلم (حرب الكواكب) . وارتدى الأستاذ فوق صداريه قميصا منشّى الياقة ورباطة عنق ورداء يشبه العباءة الفخمة أو الكيمونو الشرقى بما يضفى عليه فى الأغلب شكل الموجودات المعنوية وغير العادية وصفاتها . وهو كثير التواضع ويتعامل بالإتيكيت . وبعد المصافحة والسلام والسؤال عن الأحوال ، يشير إلى أفضل مقاعد الحجرة لأجلس عليه ، والذى إن تقرر أن أسقط تلك الليلة على مكان ناعم - يسكتنى المخية وقدمى المجروح من أيام عبدان - لقمت بهذه السقطة .

ونجلس حول مائدة مستديرة فخمة من المرمر الأبيض والكريستال الأزرق على كراسى جلدية سوداء . وعلى المائدة تحفة مطعمة بسن الفيل نفيسة أخرى بجوار الحائط ، لا تبعد كثيرا وبضعة أطباق صينية وكريستالية فيها النقل الإيرانى والشمام والبطيخ وحلوى البلح والجوز ولب الشمام له رائحة الحلتميت الطيب والباقلاوة اليزدية وحلوى الأرز وزجاجتا خمر وهذا كله لابد أنه معدّ لأطول ليالى السنة.

وتقدمنى ليلى إلى أبيها وتذكر له سبب قدومى إلى فرنسا وأين كنا أول الليلة ومن قابلناه ، كل شئ كأنها تعيد ذكره . وينصت العجوز إلى الكلام بدقة.وبينما يميل برأسه إلى جانب يخفض نظره . فقط يرمقنى من وقت لآخر . ثم يضع مولد الكلام على حنجرته ويقول (ليتنى كنت أكثر شبابا مثلكما ، بى استعداد وأستطيع أن أكون بإيران وأشترك فى هذه الفعاليات . إن مجرد ذكر اسم إيران يزيد نبضى قوة) . ولا يتجاوب تماما الصوت المتموج الإلكترونى الذى ينبعث منه مع الكلمات التى يلفظها .

– (عفوا)

– (يقول أوحدى مراغي : نحن سكارى وسكرنا من كأس العشق وهذا الصيت الذى أعليه من اسم العشق / يوم أن قتلت على عتبة العشق / فبداية تاريخى أيام العشق .. عشق الوطن ، الوطن الأم وتقاليد الوطن أعز العشق)

– (ألا تتحدث عنى ياوالدى ؟)

– (كنت فى عبدان ، وهناك الحرب)

– (كنت هناك مصادفة)

– (لا تحط من قدرك ..)

وكنت أستاء من لفظة الحط من القدر ..

– (كنت موظفا بسيطا فى المستشفى .. يرأسه مدير)

– (أبقيت فى إيران من أجل هذا ؟)

– (إن لم أبق فى إيران .. أنا كنت فى إيران)

– (لو سمحت لانبدأ هذه الليلة العظيمة بصورة « بحث سعدى وجداله مع المدعى » مدحت فيك ليلى كثيرا . أثنت عليك كثيرا) .

– (ليلى هانم لها طبع خيالى وحالم)

– (أنا معك فى هذا تماما)

فترد ليلى (بابا ، لا تسمع كلام جلال ، إنك إن ألحفت عليه لأنكر أنه موجود فى الأصل)

فيقول الأستاذ (نعم ، فاهم . وأى حكمة فى هذا يابنتى . يقول مولانا :

توجد الصورة مما ليس له صورة   كما يتولد الدخان من النار

ولم أتناول من الصباح بعد الإفطار شيئا حتى الآن فخوت معدتى و ثار فيها الضجيج وأتمنى أن يظهر بأسرع ما يمكن طعام العشاء . لكن خادمة ليلى هى التى تظهر الآن بصينية القهوة والمشروبات : البرنو لليلى والقهوة الأيرلندية للأستاذ والقهوة السادة لى كل فى كأسه أو طبقه الخاص به . يبدو أن ليلى أصدرت التعليمات اللازمة .

ويسعى الأستاذ آزاده بكرم إلى إنقاذى (ربما يميل السيد آريان الى أن يشرب الليلة فنجانا من القهوة الأيرلندية) فتقول ليلى (جلال لديه حظر من الطبيب يا بابا فلابد أن نعذره) وتنظر نحوى . وأطرق صامتا .

ويقول الاستاذ (فاهم يا بنتى) . ثم يشرح لى أن (القهوة الأيرلندية) إحدى مشروبات الأيرلنديين التقليدية ، وتعود شربها منذ خمسة وعشرين عاما حين سافر الى (دبلن) فى أولى مأمورياته وهى intéressant لذيذة جدا لأنها مركبة من العناصر الحارة والباردة وهى agréable مناسبة جدا لمزاج سيادته . بلا شك نتحدث الليلة الفارسية ، لكن فارسية الأستاذ الكلاسيكية اختلطت بأنواع الكلمات الفرنسية والانجليزية واللتين تبحر الأستاذ فيهما وتمكن بدرجة كاملة .

ثم يسترسل (إحك لى لأفهم يا سيد آريان هل رأيت من المهاجرين الساكنين فى باريس أحدا آخر غير ليلى؟)

– (نعم ، لكن ثلاثة أو أربعة فقط)

فتقول ليلى (جلال فى الواقع سهران بداخـــل مستشفى فـــال دو جراس)وملأت طبقين بالنقل وحلوى البلح والجوز ووضعتها أمامى

فيقول الاستاذ (على كل حال هم هنا كثيرون جدا)

– (نعم ، كثيرون)

– (ما رأيك فيهم يا سيد آريان ؟ تفضل كل من رمرمة أطول ليالى السنة) فأراد (بقول أحد الطلاب الذين رأيتهم .هم مـــن كـل الأصناف والأشكال – (نعم من كل الأصناف والأشكال. الله يعلم أنه كان عندنا

فى إيران كما هو التقليد دائما من كل شكل وصنف ، وانفتاح هجرتهم ، كما هو حالنا ، صيفا وشتاءً أمر طيب) .

فتقول ليلى (ليس كلهم يا بابا) .

وأرفع طبق النقل وأبدأ بالفسدق واللوز .

(طبعا ليسواكلهم. ولا أقصد بالهجرة ولف العالم مجرد العثور على المراعى للمواشى وللمجتمع البدوى الآرى .. لكن قصدى هو الضرورات السياسية والاجتماعية والحياتية لحضارتنا ، والتى كانت فى صورة هجرة ورحيل طوال أزمنة التاريخ حتى عصر ما قبل الأشكانيين ولا تزال مستمرة)

وتقول ليلى (بلا شك ، ضرورات ألأثرياء يابابا !) ثم تضع كأسها وتقف وتختفى فى إحدى حجرات الطابق الاسفل لكى أشاهد جمالها أثناء سيرها ، لكن ليس بقدر ولع أبيها بإدخال شئ فى رأسى .

ويعتبر الأستاذ آزاده كلام ابنته ، ولابد أنه لجاج وتضاد سابق ، كأنه لم يسمع ثم يتوجه إلى باهتمام أكثر قائلا(أقول أن البروفيسر أو لمستد ذكر فى كتابه تاريخ الامبراطورية الهخامنشية لنا نماذج منها أفراد حتى فى العهد الأشكانى وأحيانا طبقات من الشعب الإيرانى كانوا يتركون ديارهم بسبب الضغط أو باقتضاء التحولات السياسية والاجتماعية ويهاجرون إلى الغرب أو الى الشرق . والمقصود من الشرق فى ذلك الزمان بلا شك مدن أفغانستان الحالية والهند والمقصود من الغرب بين النهرين والشام وأنطاكية) وينظر إلى كـأنه يطلب الموافقة .

– (أجل .. البروفيسر أولمستد)

– (وبعد استيلاء العرب على آراضى إيران هاجر الموابذة الزردشتيون الأشراف والطبقة العليا للمجتمع إلى الهند أفواجا ، عن طريق البر أو عن طريق البحر عابرين الخليج الفرسى وبحر عمان ، وبنى أغلبهم أكبر تجمع للزردشتيين فى الكجرات بالهند على مقربة من بمباى)

ويتكلم الاستاذ باستفاضة ، ماشاء الله ، بالقياس إلى من فقد حنجرته وأحباله الصوتية فأقول لنفسى ما أحسن سهر أطول ليالى السنة التقليدى ، كل شئ كامل .

قبل سفرى من طهران ذهبت إلى مجلس ختم القرآن للسيد جليلى من أقارب زوج فرنجيس ، وكان مات بسبب سرطان المعدة والبنكريلس (أهل إيران فى هذه الفترة كانوا ولا يزالون يموتون بسرطان المعدة والبنكرياس وغيرهما) . وأجلس فى تكية مسجد دباغخانة بجوار صديقى وابن حيى القديم بهرام آذرى . وأقرأ الفاتحة وكان به مكان للنساء . وهذا المشهد كامل أيضا . وفى مكان الرجال جلسنا متحلقين متربعين مع جدران رواق قيام الليل بالمسجد يغالبنا النوم . وكانت الأحذية بالخارج مصطفة زوجا زوجا . وقف أصحاب العزاء أمام المسجد . وكان الناس يأتون زرافات ووحدانا فيصافحون أصحاب العزاء ويعزونهم ويسلمون أحذيتهم ، ويدخلون ملقين السلام وأيديهم على صدورهم معظمين وينتحون جانبا ويجلسون ويدخل خادم المسجد ويعطينا المصحف . فنقبله ونضعه على جباهنا ثم نقرأ القرآن . يشرب الجميع الشاى المر بالسكر فى الفم . ونشرب السجائر الروسية المخصوصة جمعيا . ويعظ الشيخ بأعلى المنبر . ويشخر مكبر الصوت من وقت لآخر وأرى الوجوه المعروفة من أوقات مضت ومن العائلة والأسرة ومن أهل الحى يأتون مجموعة مجموعة .

ويوضح لى بهرام آذرى فلان هذا من يكون وعلان ذاك ماذا يعمل . هذا الذى يوزع الشاى ابن اخت المرحوم جليلى كان فى الثالثة بكلية العلوم والصناعة، والآن يسوق تاكسيا . وذلك الأبيض الشعر هو الدكتور تراب زاده الذى أعتق (طرد) وهو بلا عمل . وذلك الممزق الجورب هو محمد أغا جوادى الذى كان قاضيا بالمحكمة لكن لديه الآن صفقات عقارية . وذاك الذى يربط عنقه مسعود حسينى الذى كان موظفا بجهاز التخطيط قسم الكمبيوتر والآن يبيع أجهزة الفيديو المهربة. ويصيح خادم المسجد بنواح (الفاتحة) ونقرأ جميعا الفاتحة .

يقول الأستاذ آزاده (أقول ناصر خسرو بدوره الذى أمضى الشطر الأعظم من حياته فى اكتساب الفضائل وفى خدمة الأمراء وفى اللهو واللعب واكتساب المال والجاه حين وقع موضع الغضب هاجر من وطنه وقضى فترة فى التركستان والسند والهند وعاشر وتباحث مع أرباب الأديان المختلفة .. فى «جوامع التواريخ » وفى كتاب (دبستان المذاهب) ورد أنه التجأ من وطنه بيمكان وعاش العشرين سنة الأخيرة له فى تلك المنطقة .. ثم لدينا الشيخ فريد الدين العطار مع أنه اشتغل فى سائر سنوات شبابه فى شادياخ - بالعطارة طبعا العطارة لا يعنى به بائع العطارة والأدوية ولكن يعنى بائع الدواء وصانع الدواء - سافر إلى العراق فى أواخر عمره حين ضاق ذرعا بمصاعب زمانه ومرارته فى موطنه وعاش سنوات فى بغداد فى خدمة مجد الدين البغدادى . والحكيم أبو القاسم الفردوسى نفسه أيضا وطبعا أنت عارف بعد أن انتهى من نظم الشاهنامه ، لما دالت الأسرة السامانية على يد الأتراك توجه إلى غرب إيران وسلاطين آل بويه ، ومن هناك اتجه أيضا إلى غزنة فى أفغانستان الحالية وتوجه إلى بلاط السلطان محمود الغزنوى ، لكنه عاد فى النهاية إلى مسقط رأسه طوس ومات فى

حال مؤسفة بسبب ما وجده فى البلاط من عدم تحمس محمود إلى عظمة عمل الفردوسى وحسد بعض الشعراء الأدنى مرتبة فى البلاط) .

واسترق النظر إلى الباب الذى غابت وراءه ليلى ، ولايظهر لها أثر . لا أعلم أهى منشغلة بتجهيز العشاء أو تغيير ملابسها أم تأخذ حماما أم ماذا .

(ويبين لنا التاريخ بلا شك أن مثل هذه الظواهر كانت ولازالت فى سائر البلاد والمجتمعات ، بل حدث فى بلدنا إيران أيضا عكس هذه الأحداث . بلوتارخ المؤرخ الكبير يذكر لنا أن عام ٥٢٩ ميلادية حين أغلق جستنيان مدرسة سقراط فى أثنيا وأمر أتباعة بالصمت هرب أعقاب الأفلاطونيين من موطنهم والتجأوا إلى بلاط كسرى الأول أنو شيروان)

ويصب الأستاذ فنجانا من (القهوة الأيرلندية) جديدا لنفسه ويتحدث عن الشيخ سعدى الشيرازى الذى سافر إلى الشام وحلب وبعلبك إلى أن يصل إلى أن الشيخ قال بعد عودته إلى وطنه :-

لما عدت وجدت البلاد آمنة - وتخلى النمور عن طبع النمر ، فأتذكر مطرود وابنه المتخلف إدريس فى الغرف الخلفية لحديقة منزلى فى بريم وأننى لم أستطع أن أبعدهما بالقوة عن عبدان لبضعه أيام ولو إلى آغا جارى . وأتذكر هذا العجوز يوم سفرى من محطة غرب تهران وقد انقلبت سيارة النقل ببصله فى شارع الكرج بعد محطة البنزين وظل عاجزا فكيف يتصرف فى هذه الحالة ، لكنه لم يكن يجيل برأسه فكرة النزوح عن الوطن . ويعيدنى صعود ليلى سلم الطابق الأسفل مرة ثانية إلى النظر إلى تلك الحجرة . لكنها جديرة بالمغيب وجديرة بأن أنتظرها ، لأنها الآن وقد ارتدت رداء حريريا شفافا جميلا اختلط لونه الأسود بالأبيض تبدل هى فجأة شقة

الطابقين المذكورة في بورد يتالى إلى « القلعة التى تسلب العقل » من حكايات المثنوى .

وتعلن ليلى أن العشاء فى التاسعة وتقول أن جنيفييه والطباخ الذى أتوا به من أجل سهرة الليلة وعد أنه سوف يكون معدا ربما أبكر من وقته . وقبل العشاء ينهض الدكتور ازاده ويدخل إحدى الغرف حتى يصلى - أقسم على ذلك هذا قالته لى ليلى . كل ليلة قبل العشاء يذهب أولا الأستاذ ولو شرب مشروبا أوخمرا أو أكل شيئا فيغسل يديه وفمه ثم يتوضأ ويصلى المغرب والعشاء - عظيم طالما أن هذه عادة ورثها بابا من زمن حياته فى منزل والديه فى شيراز . على كل حال ، يطول غياب الأستاذ فى صلاته الليلة عن ساعة وأكثر ، ربما كان يتضرع فوق سجادته إلى ربه ويشكو بثه وحزنه ، ربما غلبه النوم ، ربما أى شئ ، لكنه أحد المتقاعدين من نظام متقاعد .

لكن الشئ الذى كانت ليلى تود أن تريه لى يظهر للأسف أنه فيلم فيديو . فحين تعود إلى حجرة نومها تأتى معها بكاسيت فيديو وتضعه فى جهاز الفيديو فيلم سينمائى أمريكى بلغته الأصلة اسمه (COMA) أى (الغيبوبة!) . وأقسم على أن ليلى فى دنياها السعيدة المهيجة لابد أنها تخيلت أن مشاهدة هذا الفيلم فى هذه الحالة والأوضاع سوف تكون (ممتعة) لى . وتقول إنها تعبت كثيرا حتى وجدت نسخة من هذا الفيلم لسهرة الليلة .

أصل فيلم (كوما) من قصص المستشفى البوليسية والمفزعة الحاكية للهذيان الأمريكى أو اصطلاحا رسالة احتيال رأسمالى - فيه رؤساء

مستشفى كبير يرسلون عمدا من وقت لآخر واحداً من المرضى الذين ليس لهم أحـــد ولا عمل من قسم الحوادث والطوارئ إلى (كوما) حينما يعلنون رسـمـيـا أن المريض المسكين مـات ويرسلونه إلى ثلاجـة خـاصـة ويحتفظون به ، لكى يبيعوا منه بعد ذلك أجزاء جسمه ، الكلوة والعين وغيرهما .. وأعتقد أن هذه القصة لا تزيد عن البله والجنون والهذيان . لكن تشابهها بحالة ثريها وتداعيها لها مثير للاشمئزاز، وكنت أصاب وسط الفيلم بحالة مغص وقئ ... حتى أن تواجد ليلى لم يستطع أن يسكن حالتى . حين كـان الأطبـاء يرسلون مـريضـا جـديدا إلى (الكومـا) كنت أنهض وأدخل الحمام وأفوت مشاهدة المشهد بداخل الحمام وأبقى به خمس دقائق وحين أعود كان وجهى ولونى فى غاية الجمال .

وتقول ليلى (يقطعنى .. أنا السبب)

– (لا .. لماذا ؟)

– (هذا الفيلم قلب حالك)

– (لا شئ ..)

– (خفت ! تحول لونك الأحمر إلى أبيض كالجير)

– (هذا جمالى الطبيعي !)

– (لا ! ! !) (هل تريد أن آتى لك بشئ)

– (إجلسى مكانك .. أحكى لى .. نقلوه إلى الثلاجه ؟)

– (هراء ، دعنى أطفئه)

– (ماشى)

– (فنجان قهوة بلبن ؟)

– (ماشى)

– (يقطعنى لما اخترت هذا الفيلم آه قل عنى بنت حمارة .. وضعت هذا الفيلم لهذا الرجل المسكين)

– (هص . هذه تسلية)

وتنهض وتقفل الفيلم على مشهد جورج دوجلاس وهو يجرى متعقبا الأشرار ويكتشف ثلاجة جثث من(المغمى عليهم) . ثم تأتى من المطبخ بقهوة باللبن ساخنة .

(فى البداية أزعجك بابا بثرثرته فى التاريخ والآداب المشتتة المشردة لبلاد الزهور والبلابل ، ثم قرفتك بهذيان أمريكا)

– (إلا أنت سمعت الكلام ؟)

– (بابا كان رافع صوته أزيد من اللازم !)

فأضحك وتضحك هى معى

– (كيف حالك ؟) وتضع يدها على جبهتى . بشرتها فى مقابل بشرتى ساخنة وملتهبة .

– (بخير وحلو)

– (كيف حال ضغطك ؟)

– (أى ضغط ؟)

– (ضغط دمك)

– (لاتهتمى به)

– (ماذا حدث ؟)

– (أبدا ، حدث لى شئ من البركان)

وأتناول القهوة ومعها ثلاثة أو أربعة من الكبسولات ، ويعود إحساسى بالراحة إلى صدرى ورأسى ، وتضع ليلى شريط فيديو عن الموسيقى الإيرانية وتقول بابا يعشق مطربة هذا الكنسرت الجميلة ، ثم تأتى إلى جوارى وتجلس (رأسك مصدعة ؟)

– (لا – لكن الشئ الوحيد الذى لم يخرج من باطنى أظنه كان فم معدتى الاحتياطى)

– (ألم تعتقد أن الحالة لن تعود إليك ثانية بهذا الشكل ؟ تصبح صدمه ?Stroke ؟)

– (لا ... لكن الصداع اشتد برأسى دقيقة أو دقيقتين بحيث ظننت أننى داخل فى الكوما)

– (حين خرجت من هناك وكان لونك ووجهك بذاك الشحوب أنا نفسى التى كنت سأدخل فى الكوما !)

– (خوفتك .. ياطفلة)

وتنظر إلى عينى .

لأول مرة أشعر فى سائر هذه الرحلة أنى وصلت إلى نقطة يمكن أن توجد بها الحياة الهانئه . لكن جنيفييه هذه النكدية لابد أن تقطع علينا السعادة وتأتى لتقول أن العشاء جاهز .

ويلحق بنا أيضا بسرعة الدكتور آزاده .

والعشاء على الترتيب ، والأورد وڤر المخلوط بالكنسرو أوليڤييه ، وحساء الكمأة والدجاج المشوى ، نوع من طبيخ السمان ، الأرز الأبيض المطبوخ به خضار ، مع خمر البوردو البيضاء (châteaud' yquem) . وبعده التحلية والفاكهة . ولا يتحدث الدكتور آزاده على المائدة كثيرا ، بسبب أنه ولابد لا يستطيع الاستفادة من الملعقة والشوكة كما يستفيد من جهاز توليد الصوت . فى البداية يتناول طعامه بسرعة ليست كبيرة . ثم يبقى عشاءه باقى الوقت فوق المائدة ويشرب الشاتو دايكم ، ويأكل قليلا بأطراف أصابعة ويتحدث ويتلطف ، أى يدخل مباشرة ثانية بحث هجرة الأدباء والمثقفين الإيرانيين على طول التاريخ القديم والأمر المثير للعجب أن هذا الدبلوماسى الذى عمل ما يقرب من خمسة وعشرين عاما فى وزارة الخارجية والسفارات وكليات العلوم السياسية لا يتحدث أدنى حديث الليلة عن مشكلة الرهائن فى طهران وهى أشد الموضوعات السياسية في هذا الوقت فى كل العالم غليانا ويسير فى عالمة وفى عالم أدباء إيران النازحين ويفتتح حديثه بما يلى :

(.. وفى تاريخ القرن الأخير بإيران أيضا مع أن أحوالها تحسنت قليلا وتمتع المجتمع بالحرية والرقى الأكبر نسبيا ، كانت هجرة رجال السياسة المثقفين والمفكرين والكتاب والشعراء كالماضى أمرا طبيعيا ، حتى بين رجال الدين أيضا الذين كانوا من أقرب العناصر إلى طبقات الشعب الإيرانى كانت الهجرة والنفى نفسه أمرا عاديا هاجر الشيخ سيد جمال الدين الأسد آبادى إلى استانبول وباريس ونشر مع الشيخ محمد عبده جريدة العروة الوثقى . ووسط المهاجرين المقيمين ببرلين كانت تصدر جريدة (كاوه) وكان المرحوم تقى زاده وجمال زاده يطبعون بها بعض أعمالهما . حسين كاظم زاده إيرانشهر أصدر بدوره جريدة (ايرانشهر) ، كما كانت هناك بعض

الصحف الأخرى واليوم تعرف أن أمعنت النظر ، أن الصحف الفارسية تصدر بكثرة فى باريس ولندن ونيويورك ولوس أنجلوس) .

ويحرك الدكتور الذى حميت رأسه تدريجا بكؤوس الشاتودايكم الكثيرة فكيه الاثنين – ولا نعرف هل فيهما أسنان صناعية – بين فمه ويطهر من بينهما دقائق لحم السمان والدجاج والأرز يخرجها بأصابعه ويقذف بها جانبا .

(.. حتى فى عهدنا المعاصر لدينا شواهد ونماذج كثيرة ، إذ أن تقريبا جميع كتبنا ومفكرينا وشعرائنا نزحوا بأنفسهم ، بما أن المستوى الفكرى للمجتمع لم يعد يناسب طباعهم أو أصبح يخالفها ، أو لأن فى خارج إيران كان مجال التنفس وإبداع الآثار أفضل لهم . وأشهرهم فى الحقيقة المرحوم صادق هدايت ومحمد جمال زادة فى سويسرا ، وبرزك علوى فى ألمانيا ، وصادق چوبك فى لندن ، وعباس حكمت فى أكسفورد والسيدة مهشيد أمير شاهى فى باريس وكثرة أخرى رحلوا مع انتهاء الأسرة البهلوية ونفس ابنتنا العظيمة هنا أيضا ..)

وتقاطع ليلى أباها (لاتجعلنى يابابا معهم)

– (لم لا ؟ هذه حقيقة يابنتى)

– (ثم أظن أننا أزعجنا السيد آريان الليلة بالقدر الكافى)

فأرد (إطلاقا .. الليلة كانت ليلة هانئة)

ويقول الأستاذ آزاده (حاضر ، لكن هذه حقائق)

فتقول ليلى (هذا أيضا غير معروف . فهؤلاء لكل منهم أسبابه ،

بالتعبير المعروف التركيبة الشخصية التى جعلته يهاجر .. ولا يمكن إصدار حكم عام على جميعهم بتحليل وتفسير واحد . ولا يمكن القول إنهم جمعيا نزحوا عن إيران بسبب الجور والظلم ووقوعهم موضع غضب الهيئة الحاكمة والمجتمع الإيرانى .. وكثير بقوا بايران ويبقون بها . على أكبر دهخدا ظل بالوطن أينما كان بلا مال ومع الاستهانة به ، بل إنهم قطعوا الماء والنور عن بيته ..)

ويكتفي الأستاذ آزاده إذ ذاك بقوله (نعم ..) ويملأ كأس ليلى مبتسما (نعم ..) ثم يحرك رأسه مرارا كأنه يتحسر على أمور فى غاية العظمة ذهبت مع الريح ويقول (لبلوتارخ جملة فى سقوط أمبراطورية الروم :

Sic transit gloria mundi! وهكذا مضت عظمة الدنيا) ويعب كأسه كله كأنها آخر جرعات الشاتوديكم فى العالم . ثم يقول (أذكر أن عماد خراسانى يقول (جن قلبى .. جن ، جن جنونه كما غدوت عن نفسى غريبا ، غريبا و غريبا) .

ثم يغمز إلى بعينه ولا أستطيع فهم قصده فى نهاية الليلة من هذا البيت أو هذه الغمزة . ولكن الأمر لا يهم . لابد أن الأستاذ نفسه ليس الآن مطمئنا أو لابد أنه يتصور أو أن ليلى أو صلته إلى هذا التصور وهو أنى وليلى التقينا بعد هذه السنين فى باريس .. وانفتح علينا باب الرحمة ذات النوافذ الأربعة.. ونأكل الآن حلوى البلح والجوز مع نوع من آيس كريم الأناناس ، ويطلب الأستاذ من جنيفى نوعا من الكونياك (nightcap) وتأتى به جنيفيو فى قعر أحد الكؤوس فوق صينية ذهبية بطريقة تجعلنى أخمن أنه

لابد أخرجه مباشرة من إحدى خزائن البنك المركزى الفرنسى . ويرفع الدكتور كأسه مشيرا إلى ابنته قائلا (يجب احتساء كأس الحياة ملا وفى يا أبنائى :

ما أسعد الحال وأهنأ الوقت لمفتونين ولمحبين

الدنيا خلاف حبهما ليست الاخرافة وأسطورة

وتقول ليلى (بابا .. من فضلك لا تسرف فى العاطفية)

– (حاضر ..)

– (ولاتنس أن تتصل بماما قبل النوم . أنها تنتظر والمقرر أن نتحرك فى الصباح الباكر)

– (حاضر ، على عينى)

ثم يشير الأستاذ إلى موسيقى الفيديو ويقول (أحب هذا اللحن .. أغنية لطيفة) والمطربة المهاجرة تتغنى الآن بلحن رقيق عن إيران بحرقه وذوبان ، ولا أتذكر اسمها سوسيك أو سوسك – صبغت وجهها بكل ألوان التواليت وارتدت الديكولتيه . وكأن الملحن والمؤلف لهذه الأغنية هما من المهاجرين أيضا . يقول بيت الترجيع لهذه الأغنية :

السماء حيثما ذهبت ملونة

لكن سماء قلبى لاتنفتح

نبضى يدق من أجل إيران

ودموعى مرثية لقلبى

ها لا لالى لالالالى ها لالاى

أما الدكتور آزاده الذى نام الكأس بين يديه وفزع نومه يدق بأصابع إحدى يديه برقة فوق المائدة ويقول (غنى ياست ، غنى ياست ياحلوة .. غنى حتى صباح أطول ليالى السنة) .

أنت روح لطيف والعالم جسم كثيف

مضيئة للشمع والدنيا أطول ليالى العام

وأستأذن للذهاب فى حدود الحادية عشرة والنصف ، لكنها ليلة طيبة بوجه عام ، بما أن ليلى كانت حاضرة بها ، خاصة آخر أوقات الليلة .

وتوصلنى ليلى بنفسها إلى الفندق منتصف الليل تقريبا لكنها لاتدخل . يريدون السفر بسرعة برفقة أخيها وخطيبته فى الصباح الباكر إلى مرسيليا وأنا شربت منها بالقدر الذى يكفينى إلى شهر يناير .

— ١٦ —

قابلت خلال الأسبوع السابق لعيد الميلاد نادر بارسى مرتين أو ثلاثا حين كان يريد الهروب من زوجته وأختها . مرة أتي معى لزيارة ثريا لكن الحمد لله أنه لم يدعنى إلى منزله . عالمه يفترق عن عالم الأستاذ الدكتور آزاده الأرستقراطى الباذخ . وكما يقول أحمد صفوى فشلة نادر بارسى هذه السنة فى باريس شلة مقرفة .

على أى حال فشلة مقهى الريفييرا بأول شارع قوام السلطنة تختلف عن شلة التيمسار قائم مقامى والدكتور مجيدى والعقيد جواد علوى والدكتور قاسم خطيبى والدكتور كاظم مكارمى وفرهاد بيكلرى وكانوا هاربين سياسيين أو لصوصا أو ماسونيين . فهؤلاء كانوا يتعشقون ذواتهم ويسعدون بها ثم يغيبهم تماما هذا العشق أو العكس . أولئك لم يكونوا

يجلسون ويكتبون الشعر والقصص وينوحون وينثرون بواطنهم المهتاجة العاجزة . وهؤلاء كانوا متآمرين سياسيا ، كانوا عناصر يظهرون آخر الليل فى مقر تابع لرؤساء النظام السابق حول منقد المخدرات . مثل نادر بارسى والدكتور أردكان وويسى وهما علائى كان يمكنهم الظهور من حين لآخر حول المنقد للهو وليس لأهداف جادة . ليلة أن ذهبت أنا وليلى إلى المنزل المبنى فى القرن الثامن عشر ملك التيمسار الدكتور قائم مقامى وكان التيمسار يتحبب إلى ليلى كانت تأتى من الدور الأعلى لهذا المنزل العظيم أصوات ربما كانت لمجموعات تجسس وعملاء كانوا منهمكين فى عملياتهم . ولابد أن بضعة منهم كانوا من شلة السير جيمس مانسون واحتمالا كان جيمس مانسون نفسه واحدا منهم .

حل الأسبوع الأخير لشهر ديسمبر ولم أحل حتى الآن مشكلة الفلوس للمستشفى لأنى أعتقد أنى أولا لا أريد أن أخرج بأى طريقة الآن فلوس فرنجيس من إيران وأرميها فى قبضة هؤلاء المرابين ، وثانيا قمت بخطوات إدارية عن طريق مكتب الكلية ومكتب المستشفى إذا نجحت فسوف يتكفل التأمين الحكومى بنفقات المستشفى .

الجو هذه الأيام بارد جدا يصحبه الرياح والوخز والليل كله تسقط فيه الثلوج . وحين أخرج من المستشفى أتمشى طويلا وأحيانا أصل حتى مكتبة البلدية فى حى سان سولبيس وذات ليلة أتى إلى الفندق أحمد صفوى ووجدنى . كنت قد رأيت أحمد صفوى مرة أو اثنتين فى سمنارات شركة النفط وكان يأتى للمحاضرة فى دورات الإدارة . وهو فوق أعماله الأخرى من المترجمين الناجحين كثيرا فى السنوات الأخيرة ، وهو كذلك من الأصفهانيين الأذكياء وعلى النقيض من شلة بارسى أو شلة السياسيين

فله جنسية أوربية إيرانية مستقلة وإقامة بألمانيا ولايزال يتردد على إيران ويتقاضى معاشه من الحكومة الإيرانية وحق تأليف الطبعات الجديدة لمؤلفاته من ناشريها .

وبعد الظهر بقليل لليوم الذى أتى فيه صفوى يتصل بى تليفونيا ويقول إنه أتى منذ يومين أو ثلاثة من أشتوتجارت إلى باريس وسمع من نادر بارسى أننى فى باريس . ويقول إنه يريد أن يأتى ويزورنى ويعرض خدماته . وحين يأتى أراه يبدو سعيدا وضاحكا جدا ويقول إن مدينة أشتوتجارت مدينة عظيمة وسكانها فى غاية الانضباط والإنسان يسعد بهم . وسكان همبورج راقون أيضا وجوها عظيم على وجه الخصوص ويسعد الإنسان بجو همبورج . وإذا ألقى أحد عقب سيجارة فى الطريق فى أشتوتجارت أخذ مخالفة من الشرطة . وفى همبورج وأشتوتجارت سوق رائجة جدا لسجاد إيران وفى الواقع فى هذه البلاد يقدر سكانها قيمة هذا الفن الأصيل الإيرانى . وله ولزوجته فيللا فى أشتوتجارت . ويقول إنه رجع من إيران منذ أسبوعين فى إحدى رحلاته المتعددة إليها . وفى إيران مع كل مصاعبها وقلاقلها الأوضاع ممتازة . أوضاعها أفضل كثيرا جدا عن السابق فلا يوجد حانات الخمر ولا سفور ولا نهب بلا داع ، الخلاصة أوضاعها ممتازة .

وفى الغروب نخرج معا سائرين ونجلس على مقهى فى سان ميشيل مكان تجمع يومى لزمرة من المهاجرين الإيرانيين ويعرفهم صفوى . وأشرب قهوة إسبرسو وأحمد صفوى يشرب شايا بليمون ويذكر إنه لا يحتسى الخمر أبدا . يقول إنه عاهد ربه أن يسلم عزرائيل كبدا صحيحة وسليمة .

فأسأله (كيف هل يلزم عزرائيل أن يقوم بعملية تبديل الكبد ؟) .

فيضحك (لا ياسيد آريان . أنت كأن كل عقلك وحواسك وتفكيرك

وتذكرك فى المرض والمستشفى والعمليات وعزرائيل وغيرهم . تفضل وقل أى أخبار جديدة عندك ؟)

– (سلامتك) .

– (شكرا) .

– (... إذن أتيت حديثا من إيران ؟) .

– (والأحوال أيضا بخير هناك ؟) .

– (يبدو أنها تمضى بخير !) .

– (الأحوال ممتازة ، لكن الجميع يتعللون بغفلة) .

– (والحرب كيف تبررها ؟) .

– (الحرب إن شاء الله سوف تنتهى بسرعة كبيرة . الحرب لها جوانب إيجابية كثيرة أيضا تثمر التحرك والانسجام . تثير الإحساس الوطنى) .

– (هل زرت كل إيران ؟) .

– فيقول (نعم ، مسقط رأسى ، أصفهان . قيل من زمان أصفهان نصف الدنيا فكيف لا يمكن زيارتها ؟ ما أحلى ماءها ! لا يزال ماء أصفهان أفضل ماء فى العالم . والله العظيم . أنا فى كل وقت أزور أصفهان أحمل معى بعيد عنك كل الأمراض والعلل . سيادتك هى ثلاثة أيام يطهر ماء أصفهان كل بدنى وجسمى وروحى .. وحياتك) .

– (هل جئت بالأتوبيس ؟) .

– (نعم ، ولم يكن سيئا) .

– (سياحى) .

- (لكنى وصـلت أرضـروم وركبت من هناك الطائرة) .

- (هل أنت مضطر للعودة إلى إيران أم ماذا ؟) .

- (أخى - إذا لم أذهب قطع المعاش . وتطلع عينينا ! كما أن لدينا بإيران مشاكل عديدة فلا يزال كافة أثاث والدتى التى توفيت من ثلاث سنوات وأمتعتها وأملاكها فى أصفهان فى أيدى الورثة . ولابد من التفتيش لاتزال جذورنا فى إيران . وكيف أحوالك ياسيد آريان ؟) .

وأذكر له مجملا بسبب مجيئى .

- (سمعت أنك محتاج للفلوس) .

فأضحك (نعم ، للأسف) .

- (نعم ، للأسف) .

- (أنا مستعد للخدمة ، بل هذا واجب على طبعا).

- (شكرا ياسيد صفوى) .

- (اذكر لى أى مبلغ تريده ياسيد آريان . بكل صـدق وإخـلاص إذا لم نساعد بعضنا فى عالم يارب نفسى فمن يساعدنا . إن الإنسانية وواجب مساعدة الإنسان الشريف وابن الوطـن مثلك يفـرض على ذلك . خاصة وأنت مرهون فى هذا الوضع الحساس والتعب غير المتوقع) .

- (شكرا ياسيد صفوى ، أنا فى غاية الحرج) .

- (أى استحياء وحرج ؟ أنت بحاجة للمال وأنا لدى هنا شئ من المال ، فخذ ماتريده ورده فى أى وقـت إلى أخ زوجتى فى طهران . وإذا لم يكن معك فهو فداك) .

– (ليس بهذه البساطة) .

– (بل أبسط من البساطة) .

– (لم نكن زملاء دراسة) .

– (اسأل عنى . فوق أن ذكر لى بارسى أنك هنا وبحاجة إلى الفلوس جئت على عينى) .

– (شكرا) .

– (هذا واجب على . أتيت ورأيتك وعرضت الخدمة) .

– (أتيت ورأيت وفتحت . من قال هذه الجملة ؟) .

– (يوليوس قيصر ، لكن اللعنة على يوليوس قيصر . أنا لك مخلص وأقوم بالواجب . بهمن قراكوزلو كانت سيارته البى ام دبليو وعفش شقته على وشك الضياع ، العبد لله حللت المشكلة باع حاجاته لابن أختى فى طهران وسلمته هناك كل فلوسه عدا ونقدا) .

– (هل دفع فلوسها لك فى طهران ؟) .

– (أعطيته رقم حسابى فأودعه فى حسابى وانتهى الأمر . بنفس البساطة لك أيضا . فى الواقع إنك تصنع فينا معروفا . لأننا دائما نحتاج بشدة إلى النقد الإيرانى فى طهران ، لكى نبعث نقودا للأولاد) .

– (أولاد حضرتك يدرسون هنا ؟) .

– (نعم فى أشتوتجارت) .

– (ماذا يدرسون ؟) .

– (واحد من ولدين لى يدرس الطب والآخر الآثار وبنتى تدرس الاقتصاد . لابد أن نعد جيل الشباب لمستقبل إيران الحبيبة) .

– (كم يدفعون شهريا ؟) .

– (يدفعون كما هو مقرر ألف دولار شهريا – لكنهم ينصبون) .
وأحسب المبلغ يدفع لكل منهم شهريا ألف دولار ، فيصير المبلغ رقما كبيرا على عرض العام . ٣٦ ألف دولار فى السنة من ميزانية الدولة وهى فى حالة حرب .. مبلغ يمكنه أن يودعه فى بنـــوك المـــانيا أو الدنمارك أو أمريكا بربح ١٦٫٥ ٪ .. أتمنى ألا يكون صفوى وهو رجل شديد الذكاء قرأ أفكارى . لكنه أعلى من أى شئ أتصوره فيه . يقول (لما قلت إنى راض عن أوضاع إيران فقصدى بلا شك ليس هذا الجيل الحاضر ، الجيل الموجود بإيران ، خاصة الشباب سوف يصادف نكبات كثيرة . لكن كما يقول البانديت جواهر لال نهرو يجب (النظر إلى إمكانات المستقبل وتصوراته) . نحن أيضا مثل ثورة الهند ضد الاستعمار الإنجليزى قمنا بأعمال ضد الاستعمار العالمى والنفوذ الغربى . يجب أن نظهر للعالم ونثبت له أنه لا يوجد فقط فى الدنيا نظريتان أو معسكران الشرقى والغربى يواجه أحدهما الآخر ، الرأسمالية أو الديمقراطية الرأسمالية فى ناحية والشيوعية أو الدكتاتورية الشيوعية فى ناحية أخرى . يوجد طريق ثالث أيضا . نعم . سوف يعمل هذا النظام من أجل إيران فهى حكومة تقتبس أفضل التقنية من كلا المعسكرين القائمين لكنها فى صدد ألا تكون تابعا لأحدهما وتظهر فكرا يتناسب وتاريخها وفلسفتها . حسنا وأنتم كيف أو ماهو رأيكم الخاص ؟) .

– (إذا سألتنى ما الأفضل أكلة التشلو كباب أم حساء الضفادع قلت لك التشلوكباب) .

– (أنا واثق أنك تمزح) .

ويضحك كلنا (كنت واثقا) .

– (لا تثق كثيرا ياسيد صفوى) .

فيسألنى (لم تأت معك بسجادة أو بساط أو شئ من هذا ؟) .

– (لا ، هل يسمحون لك بها ؟) .

– (ولم لا ؟ يدعون تخرج بسجادة صغيرة للصلاة . كلما سافرت حملت معى سجادة صغيرة – للصلاة) .

– (أنت تصلى ؟) .

– (لا ، بل أنا ذكى !) .

ثم يضحك كلانا . حتى فى عبدان كل من بقى بها أو كان لهم تردد على البلد لم يخلُ من الساقطين . كان هناك أناس أيضا عملهم السطو على المنازل الواقعة فى المناطق المتأزمة من الحرب . أى إخلاء أو سرقة المنازل والمحلات التى هرب منها أصحابها بسبب الخوف وهم كانوا يشكلون أكثرية سكان المدينة . وكانت فئران النخيل تخرج من ثقوب المجارى . كانت قنابل كلاب صدام تأتينا من الجو ويأتينا من الأبواب اللصوص الذين كنا نسميهم بضباع أو آكلات جيف الحرب . حتى أثناء الحصار الكامل على الجزيرة وإطلاق النيران المتصل ظهر أكلة جيف الحرب أحيانا كانوا يأتون بحقائب يدوية . ويسرقون المجوهرات والأدوات الكهربية الصغيرة والكاميرات وغيرها . وأحيانا كانوا يأتون بسيارات الجيب ويسرقون السجاجيد والبسط وأجهزة التليفزيون . وأحيانا كانوا يأتون بشاحنات كبيرة ويمسحون المنازل . وهؤلاء الأخيرون كانوا يحفرون على أجهزة التكييف ويأخذونها . كان عندنا واحد اسمه محمد رضا نيك فرجام فى (بريم)

الغربية ارتحل مرتين وثلاثا من عبدان وعاد إليها وكان يأتى معه بالحقائب وعلب الكارتون الفارغة لنقل عفشه بالتدريج إلى شيراز وهاجم أكلة جيف الحرب منزله مرارا حتى أنة علق على باب منزلة ورقة كتب فيها (من فضلكم .سرق هذا المنزل مرتين حتي الآن . لم يبق فية غير الأدوات الثقيلة مثل السفرة و الكراسي و السرير !) بل في داخل المستشفي دارت شائعةأن شخصا ينشل في قسم الإسعاف و الطوارئ الساعات اليدوية والدبلات والخواتم الذهبية و جيوب القتلي أو الجرحى .

وأسألة (من أين تعرف بارسى وأنت لم تكن قبل الثورة في ميادين القصة والمسرح والسنما والتليفزيون و ما شابه)

– (لا ، أنا لا أختلط بهذه الميادين . زوجة نادر بارسى الموجودة معه هى بنت خالى عباس برزكر إذا كنت تسمع به صاحب شركة استيراد باسم (برزكر) هو الآن فى أمريكا أما بارسى نفسه فهو فى رأيى إنسان مبدول) .

– (أنا لم أر من نادر شرا) .

– (بالرغم من أنه مخلص وعنده استعداد لكنه زائغ العين والمخ . كانت معه زوجة فرنسية فاضلة فطلقها من سنتين . تعرف أنها تريد الآن أن تستولى على الشقة التى له هنا) .

– (لا أعلم . سمعت بشئ مثل هذا) .

– (ألست جائعا ، أنا فى العادة أتناول عشائى فى السابعة) .

ليس ورائى الليلة عمل هام وليس مقررا أيضا أن أعود إلى المستشفى . فأقول له (أنا تحت أمرك) .

– (إذن تفضل) .

على تقاطع سان ميشيل وسان جرمان مطعم (خدمة ذاتية) كبير . وممتاز نذهب إليه . وأطلب أنا سلاطة بحساء الكمأة مع صنف من الإسباجتى ولحم الدجاج بالجبن . ويطلب أحمد صفوى صنفين من السلاطة ودجاجة محمرة وطبقا من الخضار وماء معدنيا . والطعام هنا على الدوام طيب المطعم والموائد القريبة من النافذة لاتخلو من الجمال خاصة أن ليس فيه ضجيج الجرسونات ورواحهم ومجيئهم . فقط عند الشاى أو القهوة الساخنة . تشترى بوناتهما وتعطيها بعد تناول الطعام لأحد الجرسونات فيأتى به لك . وأتناول قبل الأكل كبسولاتى وأحمد صفوى بطور عام رفيق ودود . فهو رجل مجرب معرفته واسعة بجوانب التاريخ العالمى العام خاصة القوميات والشعوب . يعد نفسه ليس قوميا وحسب بل قوميا عالميا أيضا . من مترجماته المشهورة وقت شبابه الكتاب الكبير (القومية – مائدة التاريخ العظيمة) والذى قدمه إلى الدكتور محمد مصدق (فى منفى سنواته الأخيرة فى أحمد آباد) . وكتب المرحوم الدكتور محمد مصدق بخطه رسالة لأحمد صفوى أثبتها صفوى على ظهر كتابه فى طبعاته التالية بعد قيام الثورة الإسلامية وزوال قوة أصحاب الجبهة الوطنية وطبع الكتاب مرارا . لكن صفوى أقام فى أشتوتجارت من قبل وصول الجبهة الوطنية إلى السلطة بإيران ، وترجم أغلب كتبه بالمهجر . ومع أنه ، كما يقول ، أبقى على (الاتصال بالوطن) و (الإحساس بالوطنية والإيرانية) لديه ، لكنه يبحث القومية فى الأغلب من الناحية النظرية وليست كجزء من الأمة فى الواقع أو كدم وعرق ودموع مهراقة . لكنه يخضع كل شئ للتحليل والتشريح ويختلط فيه كل المعارف من

مدرسة القومية الوطنية للبانديت جواهر لال نهرو حتى خواص فاكهة الكاكا في حديقة والدته بأصفهان . أنه دائرة المعارف البريطانية سيّارة سياحة . وبينما نتناول القهوة يجتذب الحديث ثانية إلى الكتاب والآداب في إيران لكنه يعتبر أنه لايستحق شاعر في إيران أن تكون رأسه فوق جسده بعد الفردوسي وحافظ والخيام . بل لا يجب أن يوجد بها أصلا لكنه في انسجام خاصة مع من هم بطراز نادر بارسي مثل الناقدين والباحثين وكتاب القصة الحديثة والشعر الحديث والمسرح الحديث و (المقتبسين) .

بخارج المقهى أسدل ليل باريس البارد أستاره ونجلس وراء مائدة صغيرة للمقهى الدافئ بجوار نافذة تطل على الشارع ونحتسي القهوة . ويأخذ صفوى إحدى سجائري . يقول إنه يشرب سيجارة واحدة بآخر الليل كل ليلة .

ويسألني (هل قرأت أعمال نادر بارسي ؟) .

– (بعضها ، حاولت !) .

ويضحك صفوى (أنا والله لم أفهم شيئا في كل ماقرأته . أعماله لها إطار وشكل ، لكن محتواها أبيض كالثلج . يقتبس الشكل الظاهري من الأدباء الأجانب مثل جان جنيه ومثل برتولت برشت ومثل صامويل بيكيت لكن مضمون أعماله شئ كالثلج ، لأنه هو نفسه لا يفهم أو يستطيع التأثير في القارئ الإيراني ، لأن هذا القارئ الإيراني ليس لديه استعداده ومجاله الفكري . ألا توافقني ؟) .

– (تلك المجموعة التي تجتمع هنا يبدو أنهم سعداء) .

- (لا ، هم فى الباطن محزونون ومحزنون على السواء .. رأيتهم وأعرف أشكالهم نـــادر بارسى وبهمن قراكوزلو والدكتور كوهسار وجيلا وارسته وبيجين كريمبور وسودابه برزكر وهجير هرمن والدكتور داريوش أردكان وأردشير ويس وغيرهم وغيرهم الذين تراهم يشكلون فى فرنسا النواة المركزية لجماعة من الشعراء والكتاب والفنانين بعد الفرار من الثورة الإسلامية . وتوجد مجموعة أخرى أيضا . الله يعلم كم عددهم فى لندن ، وفى أمريكا .

محيط الثورة الإسلامية أعمى قرائحهم ! لايمكنهم البقاء بإيران ونظم الشعر الجديد والمسرحيات الجديدة لأن الخمر والمعشوقات محظوران ، وهم يقدمون لك هنا البرامج الفنية فى التليفزيون وفى الصالونات الثقافية والفنية فلو عادوا فلن يعبأ بهم أحد . لكنهم بقوا هنا لأن بساط شرب الخمر ممدود بحرية أمامهم . يجلسون ويقولون نحن مطاردون ولو خطت أقدامنا إيران لأودعونا سجن (أوين) وارتاحوا منا . نعم إنهم إن فعلوا أفعالهم هذه لقوبلوا بالعقاب ولظلوا واقفين ضمن سقط المتاع وصفوف المهملين حتى يخضر تحت أقدامهم اليابس . بعضهم من يعـــرف الفرنسية مثل داريوش أردكان ، ألفوا كتبا ومقالات وأعمالا أدبية بالفرنسية حول الثورة نشرتها مؤسسة (أموبجارد) بباريس لكن بقيتهم الباقية ظلت عاطلة . نادر بارسى نفسه كان يقول إنه ألف رواية كبيرة فى أصول الثورة أو لا يزال يؤلفها لكنه توقف فى وسطها لأنه لايوجد من ينشرها . قال هذا الكلام ليلة لعبت خمر الكوروازيه بعد أن أفرط فى شربها برأسه وكشف عن آلامه المكبوتة . كان يقول لايجب إخماد خفقات الإبداع لأنها (أنفاس تتردد تحت دم الخلود) . كان يقول إن أمثال نادر بارسى سيئو الحظ اليوم فى إيران كما

كـان أمثـال الفـردوسى ومنصـور الحـلاج وفرخى اليـزدى . عـفـوا فـهـذه التشبيهات والمقارنات هو الذى كان يقولها . كان يقول أيضا إننى مثبت معاصر للوقائع بإيران وواقعى مسجل للحقائق لثورة بلادى . لايمكن أن أظل صامتا . أرى نفسى مضطرا لكى أكتب . كان يقول إذا لم أكتب فقد خنت وجدانى وأيدلوجيتى وأمتى وبلادى .

كان يقول كان الفردوسى ملتزما وناصر خسرو القبادياني ملتزما وميرزا عشقى ملتزما وتروتسكى ملتزما ، وخوزيه مارتى ملتزما ، وفرخى اليزدى ملتزما ومشـفق كاظمى ملتزما والدكتور داريوش أردكان ملتزما ، وأنا ملتزم مع أننا فعلا سيئو الحظ .. لكن بارسى طلب بعد هذا الكلام مباشرة من الجرسون أن يأتى له بكوروازيه دوبل آخر وأدخل فى فمه بالشوكة قطعة كبيرة من لحم (استيك فيليه مينيون) ومعها (الديجون) الخردل . وأتى الجرسون بالكروازيه له فى كأس مدورة منبعجة البطن وأفرغها نادر بارسى فى حلقـة فى صحتنا والأيـــــام الأحلى . ثم قلت لا تنس يابارسى بلك ذكر قصة المولوى ضمن كلامك ولا ثقب الدعاء (الورد) مناسب فى باريس لكنك نسيت (ثقب الدعاء) . فضحك بارسى واعتقد أننى أتيت بهذا المثل لمزا فى أعمال الدكتور أردكان وتركته يعتقد هذا الاعتقاد . بلا شك أن الساخطين واليائسين من الأنظمة المختلفة على مدار تاريخ العالم ومن كافة البلاد قــد هاجروا إلى باريس وســوف يهاجرون إليها فى المستقبل أيضا ويلجأون إلى بلاد أخرى لكن باريس هى الملجأ التقليدى والتاريخى للساخطين فى تاريخ البشرية . وعندنا أيضا ساخطون وسوف يظهرون أيضا فى إيـران فى المستقبل . إلا أن المؤلـف وصاحــب القلم الإيرانى الذى لم يحمل قط رسالة عالمية ليس مكانه غيـر إيران ، وليس مقهى دولاسانكسيون .. هل توافقنى ؟) .

الإجابة عليــه ببســاطة يمكــن أن تكــون (وليس فى أشتوتجارت) لكننى أقول (اتفق معك) لأن إجابتى يفـهـم منهـا نفس مـا أريد أولا ، ثم أنه كما ذكرت رفيق ودود . ثم أشعر أنه يريد أن يعيـد الكلام فى الفلوس ، لكنه يسألنى (هل تحب أن نذهب عصر الغد إلى (متحف فرساي ؟) .

– (عظيم) .

– (ألست مشغولا ؟) .

– (أذهب إلى المستشفى صباح كل يوم) .

– (إذن يمكن أن نذهب العصر وسوف أكون بصحبتك . الطريق إليه يستغرق ساعة بالقطار . مضـى على أنا شخصيا وقت طويل لم أزر فيه متحف فرساى . هل أنت موافق ؟) .

– (موافق) .

وحين ننتهى من القهـوة والكيك ننهـــض ، ويلف أحمـــد صفوى الشال على عنقه بدقة ويلبس قبعته ويضبطها على رأسه أمام المرآة . ثم يلبس معطفه ، ونخرج من المقهى .

الجو بارد جاف لكن أنوار ليالى عيد الميلاد وضجيجها تظهر الحياة فى باريس ونسير على الأقدام من بداية شارع سان ميشيل حتى محطة المترو .

– (طيب ، إلى اللقاء حتى الغد ياسيد آريان) .

– (أجل ، مع السلامة) .

– (آتى إلى فندقك الساعة الثانية ، تناسبك ؟) .

– (ماشى) .

– (أتمنى أن تكون بنت أختك تحسنت) .

- (أتمنى) .
- (هل نذرت لها شيئا) .
- (نذرنا) .

(الأمل فى الله . هل تعلم ياسيد آريان أن كل شئ يتم بإرادة الله . إننى أعتقد فى هذا اعتقادا راسخا) وفى النهاية يجر الفلوس بطريقة ما إلى الكلام فيها (مثلا أوائل ٥٧ عام الثورة كان لنا شقة كاملة فى شارع ميرداماد فى طهران . وفى أحد الأيام كأن وحيا من الله شع فى رأسى وقال (بع ياصفوى هذه الشقة) . وفى نفس اليوم بعت كل شئ بثمانية مليون مع أنها كانت تساوى أكثر من ذلك . وحولت فلوسها إلى مليون دولار هنا .. وإلا كان كل شئ راح . وعلى هذا كل شئ يمشى على حسب إرادة الله) .

- (ليلتك سعيدة ياسيد صفوى) .
- (فى أمان الله ياسيد آريان) .

ويدخل محطة المترو وأرجع وحيدا إلى شاطئ النهر وأمشى مدة طويلة ، وأعبر شارع بونابرت حتى سان سولبيس وأطوف حول مستشفى دوجلاس كالمرضى المصابين بجنون البارانويا . وأرجع إلى سان ميشيل من ناحية شارع سان جاك، وأعود إلى الفندق حوالى التاسعة والنصف وموعد الأخبار .

وحين أخلع ملابسى لآخذ دشا أرى ثقبين جديدين ظهرا فى جوربى وكأن أحدا يضرب قفاى (إريان أقذف بعيدا هذين الجوربين) لكنى أقذف بهما داخل كيس النايلون الذى أعطاه سوموبخو للغسيل . أنا اعتقد فى سوموبخو لأنه فى هذا الشتاء العجيب أظهر كثيرا من الكرامات .

أطراف منطقة النخيل فى « بريم » ، داخل طريق خرم شهر أمر من أمام قسم الشرطة (٣) صوب (ميدان ألفى) لكى أشترى كتابا من (المطبوعات العالمية) لصاحبها حسن العربى . لكن الجنود أقفلوا الطريق وقالوا لى (ارجع ياأخى هنا منطقة حربية) فأعود وأعبر طريق البتروكيميا وألف حول مصفاة البترول فى أحمد آباد وأصل المدينة . وبغتة يرتفع من خلف دار حضانة بروانة صوت نحو السماء صوت كانتزاع شريط ملصق ضخم وتمزيقه . ثم يزلزل الأرض صوت قصف انفجار . وترتفع أصوات قذائف مدافع الهاون التى ترتطم بكل ناحية . ثم يتلوها انفجار آخر ويشع نور أبيض ثم ينقلب إلى الحمرة والسواد . وألقى بنفسى داخل جدول وأكتم أنفاسى . وارفع رأسى وأجدنى فيما يبدو بقيت سليما لكنى أرى

إدريس ولد مطرود قادما يغنى ويبيع سجائر الونستون . وينقلب لون السماء بسبب الدخان الأسود المتكاثف المرتفع من ناحية المصفاة إلى لون القهوة والزرقة وأشم رائحة يمتزج فيها كبريتور الكربون بالبارود . ثم أصرخ لابن مطرود لكى يرجع إلى مكان مرتفع يختبئ فيه لأنهم يقصفون المنطقة . ثم يهبط صوت الطائرة العمودية القاذفة بالصواريخ ثم ترتد سريعا وتزلزل أمعاء الشارع وأحشاءه وتتعاقب أصوات قصف انفجارات متوالية . وتتعاقب طلقات الرشاشات من الطائرة العمودية وأرى ابن مطرود ساقطا تحت أشجار البقس على جانب الشارع . وتشب النيران فى البقس وابن مطرود على السواء وحين أصل الشارع لا أستطيع تمييز جسده فقد صار فحما .. وتعود الطائرة العمودية القاذفة الصواريخ ثانية وهى تزأر وأقذف بنفسى ثانية بداخل جدول الماء ويقصفون هذه المرة منبع النهر فوق دار الحضانة بقليل وأرى المبنى العظيم المعدنى الذى انفصل عن قاعدته الضخمة ويسقط فوق رأسى ..

حين أصحو أجد فمى ساخنا ومرا . غرفتى هذه بأسفل سقف الفندق الهرمى باردة . ظل المذياع والمصباح كلاهما مفتوحين . وإحدى الفراشات التى دخلت الغرفة تدور حول مصباح الأباجورة الخمرية الملونة التى تضئ أثناء النوم وتدفئ نفسها بنورها . وأتركها تطير بإرادتها . وأخطو لأفتح صنبور الماء البارد وبعد أن يتدفق الماء فترة أملأ كأسا وأشرب مابه . وتؤلم برودة الماء فكى وتذكرنى بحلمى المفزع . ويذيع الراديو الموسيقى الرقيقة المنعشة لأناشيد عيد الميلاد . وخارج النافذة ، فى جو السحر البارد ، شارع مسيو لوبرنس ساكن هادئ بأنوار أعياد الميلاد . ولايسمع إلا صوت خفيض لموتور عربة النقل البيضاء والفخمة التى تحمل القمامة وهى واقفة أمام

الفندق وعلى مرمى البصر عم مدينة النور حالة من السعادة والملكوتية فى رحاب الأناشيد الدينية فى سلام ليلة عيد الميلاد وصفائه .

ولا أستطيع النوم ثانية أو حتى استلقى أو أطالع الكتاب . داخلى فارغ ومرتعش وبجوفى اضطراب ممض على ثريا . وأعود وأغسل رأسى ووجهى بالماء الساخن والصابون وأحلق ذقنى ثم أرتدى ملابسى وأخرج . لايزال الوقت مبكرا على إفطار الفندق ، وعلى كل حال فليس عندى مقدرة على جدال العجوز البواب ولا حتى سوموتجو .

ولا يزال الجو بين النور والظلمة حين أتجاوز شارع مسيو لوبرنس ثم أدخل من سان جرمان شارع سان ميشيل . وتبرق صفوف العمارات الفخمة للبنوك والمكتبات والحانات ومحلات الملابس والألعاب فى أنوار المصابيح الكهربية وقد أبيض وصفا ظاهرها . بعض المقاهى والمطاعم والبارات مفتوحة . الناس يأكلون ويشربون فيها ومقهى دومينكو أكثرها ازدحاما وعجيجا وضجيجا . رجل رمادى الشعر يلعب مع إمرأة كثيرة النحول لها شعر ذهبى (البنج بول) يبدوان فى غاية السعادة والبشاشة والمرأة تميل بجسدها عليه وهى ميتة من الضحك أفكر فيم فعلاء طوال هذه الليلة .

بنهاية الشارع أرى الكنيسة الضخمة على الشاطئ الآخر للنهر فأتجه إليها . وأعبر الجسر وأمر من الميدان الخالى وبجانب تمثال الفارس الراكب حصانه للسيد شارلمان فى أحد جوانب الميدان أيضا وأصل إلى الكاتدرائية . تذكرت حين رأيت هذا المبنى لأول مرة فيكتور هوجو وأحدب كازيمودو وليس غيرهما . والليلة أو فى وقت السحر المجنون هذا أشعر بالسعادة لرؤيته .

وأدخل من الباب الصغير المفتوح . داخل المعبد العظيم مضئ . فرقة من القُسُس ينشدون فى نهاية المحراب الأصلى وهم يرتدون مسوحهم التى تفيض لمعانا وبريقا . وقسيس يعزف على الأورج . وفى الممرات الجانبية يخفت النور ويسكن الصوت قليلا . وأمضى للأمام بطول أحد الممرات وأجلس فى ناحية أبعد من مكان لإشعال الشموع وأستند على أحد عواميد أحد الأروقة ويتوقف إذ ذاك صوت الأورج والإنشاد . ويبـــدأ قسيس فى الموعظة صوته صاف وقوى يعلو أكثر عن طريق عدد من مكبرات الصـوت . لا أفهم كل كلامه ، يبدو أنه يتحدث عن العلاقة المباشرة مع الله لله . حول الوصول إلي السلام الفكرى والراحة الفكريةوالسعادة الفكرية وهذا ما يخرج عن دائرة شعورى . يتحدث عن نوع من الصلة والاتحاد : بين مخ الإنسان وجميع الكائنات ، مع إله العالم . حول شيئين اسمهما الميكرويونيفرس والماكرويونيفرس اللذين يتكرران معا دائما .. الميكرويونيفرس . وأغمض عينى وأحاول أن أفكـــر فى الماكرويونيفرس على ترانزيستور صوت قسيس نوتردام . لم أر خيـــرا قبـــل من الميكرويونيفرس .

حين كان (جدى) يقيم الروضة أول كل شهر ، كان لدينا قارئ روضة عظيم كان اسمه (أغا غليونى) أو السيد ذو النارجيلة . لم يكن اسمه مهما ، لكن بما أنه السيد الوحيد الذى كان يجلس قبل الروضة على كرسى ثم يبدأ بشرب النارجيلة كنا نحن الأطفـال نسميه (أغا غليونى) وكنا نحبه كثيرا . وكان أغا غليونى يعرفنا واحدا واحدا ويعرف كافة أهالينا وأصولنا ويستفسر عن أحوال كل منا . وكان أغا غليونى يلقى بموعظته قبل الدخول فى ذكر مصيبة كربلاء . وسائر معلوماتنا نحن الأطفال حول الله والبشر والأرض والعالم والموت وانتهاء أمر البشر كان

محدودا بما كان يقوله لنا أغا غليونى . كان يقول عن الأرض أن الأرض لو كانت طاهرة وجافة وليس فيها آثار النجاسة أى الدم والبول والبراز فهى طاهرة ويصح الصلاة عليها . وحول العالم كان أغا غليونى يقول أيضا إن الله تبارك وتعالى خلق السموات والقمر والشمس والنجوم من أجل خمسة أشخاص لذلك يجب محبتهم ، وكان أغا غليونى يقول عن الموت ..

ويعيدنى صوت موسيقى الأورج الالكترونى وصوت القسيس الفرنسى فى المكبر إلى نوتردام دو بارى والماكرويونيفرس . فضلا عن الخيرات والمبرات والنذور التى قدمتها فرنجيس فى طهران لأمير المؤمنين وفاطمة الزهراء أحاول أنا أيضا أن أفكر فى المكان الذى يقول السيد القسيس الفرنسى أنه فى مركز العالم كله فى المجرات والسموات والكائنات فى النقطة التى يجب التفكر فيها والتى يجب أن أمد يدى إليها . أحاول مغمض العينين أن أنسق مخى ، الذى يزن كيلو جراما ونصف من المادة الرقيقة المتداخلة ، بكل راداراته على طول أمواج الماكرويونيفرس .

أدعو . لم أدع كل عمرى الله شيئا إلا ربما مرة واحدة . حين كانت زوجتى فى فراش الموت . الليلة أيضا لم أطلب من الله شيئا لنفسى . يارب دع هذه الطفلة تبقى حية . دعها تصحو من هذا النوم الطويل .

تشير إلىّ راهبة مشغولة بإضاءة الشموع بأن أتقدم . تريد أن أشعل شمعة . وجهها ممتلئ ومنير كالقمر وتشبه الأمهات اللاتى يردن أن يرضعن أولادهن . لكن رداءها الطويل والأسود البراق وغطاء رأسها الأبيض المنشى يضفى عليها الوجود المعدنى . وأتقدم وأتناول الشمعتين اللتين مدتهما إلى وأشعلهما . وتقول لى أننى لست مضطرا لأن أضع ثمن الشمعتين فى الصندوق لأن هذه الشموع عطية الكنيسة . وأشكرها ثم أخرج من

الكاتدرائية . كان الجو حين عدت إلى الفندق أنار لتوه . أشعر بشعور أفضل وقبل الذهاب إلى المستشفى أتناول إفطارا دسما وحين أصل إليه كان النهار قد أشرق تماما . الصباح مشرق كثيرا والهواء بعد الأمطار الكثيرة بأول ليلة الأمس صاف ومتجدد بل حاد مع الإحساس الطيب الذى أشعر به بسبب الخبز والجبن الفرنسى واللبن والقهوة ، كذلك ارتفعت روحى المعنوية قليلا كأن ذلك نتج عن اتصالى بالماكرويونيفرس والفيض الخاص لكنيسة نوتردام باريس . لكن فى الساحة الخارجية بواجهة القسم الداخلى وقفت مجموعة صغيرة من الرجال والنساء السود بجوار سيارتين ، وانتظرت سيارة إسعاف لنقل الموتى وقد انفتح بابها الخلفى . وأقول لنفسى من يمكنه الموت فى صباح وجو كهذين ؟

وأرى جورجيت لوبلان تخرج من المبنى بمعطفها الأرجوانى فوق زيها الأبيض متجهة نحو باب الخروج . حتى هى تبدو لى فى الجو المنير لهذا المصباح أكثر شبابا وحيوية وترانى وتتجه نوحى .

– (صباح الخير مسيو آريان . عيد ميلاد مبارك) .

– (صباح الخير مداموازيل لابلان ، شكرا . عيد ميلاد سعيد) .

– (الجو بديع ، أليس كذلك ؟) .

– (بلى – جميل ، كيف حال بنت أختى ؟ أتمنى أن تكون أفضل) .

– (ليتنى أستطيع أن أزف إليك خبرا طيبا.. لكنها على نفس الحال) .

– (لم يحدث لها أى جديد ؟) .

– (اليوم انخفضت درجة حرارتها قليلا) .

– (هل هذه علامة طيبة ؟) .

– (نعم ، علامة طيبة . إنها ارتاحت أكثر بعد إجراء الدياليز عليها) .

أشعر رغم وجهها الشاب النضر الضاحك وكلامها السعيد أنها تكذب. وبدون استئذان منى تتوجه ناحية الأشخاص الواقفين بجوار عربة الإسعاف وتتحدث إليهم ولا يزال الوقت مبكرا عن صعودى المستشفى ، ربما لا يزالون يقومون بأعمال النظافة فيه أو يفتشون على المرضى . وأتقدم إلى الناحية الأخرى بنهاية الفناء وأجلس على أريكة تحت أشعة الشمس وأفتح الجريدة . وفى التاسعة والنصف يحملون أحد الموتى الذى تنتظره عربة الإسعاف الناقلة للموتى ويضعون فيها تابوتا فخما ويركب لابسو السواد أيضا ويخرجون فى عقبها .

ذهبت إلى الليلة السنوية للمهندس كامران نقى بور فى طهران .

ففى صباح أحد أيام الخميس فى أواسط شهر مرداد ذهبت أنا وفرنجيس إلى مقبرة (بهشت زهرا) كانت الشمس تصب أشعتها من فوق أشجار الرمان والسرو المنبعجة التى علتها القذارة والأتربة على مقبرتنا ومن خلف منارتين عاليتين . وبعد نهاية المقبرة بقليل بدت للأنظار أراض بائرة بترابها الجاف الأبيض ساخنة حتى فى اعتدال جو الصباح . ووقفت بضع أشجار من الصنوبر المعوج القصير والصنار المهترئ اليابس فى نهاية الأرض البوار تداخل بعضها فى بعض فى ذبول وانكسار . وأخذت العصافير تطير فى الهواء بين الأشجار وهى تشقشق مذعورة مفزوعة . وكانت نصال أشعة الشمس تهز خيوط العنكبوت بين الأشجار المغمى عليها . وكان وجه الأرض وماحول جدول الماء الجاف وفوقه تغطيه القمامة والفاكهة المتعفنة والمناديل الورقية الموطوءة بالأقدام وأكياس النايلون الممزقة وإعلانات مجالس

« الترحيم » التى أطارتها الرياح فتعلقت بداخل الأشجار الصغيرة وأشجار الشوك والحسك . اختلط صمت المقابر الرهيب بالصرخات فوق القبور . كانت مجموعتنا أكثر هدوءا من غيرها . النساء تضج بالبكاء ، والرجال يضربون جباههم بأيديهم والقارئ يتلو القرآن . وعلى الطرف الأبعد تجمعت أسرة مكونة من سبعة أفراد حول قبر . اتشح الجميع بالسواد حتى الأطفال . الليلة كانت ليلة الجمعة . أتوا ليقرأوا الفاتحة . وظل الرجل الذى كان يظهر عليه أنه كبير الأسرة يقول بلا انقطاع (الحمد لله ، الحمد لله) ويهز رأسه . ولفت الأم بعباءتها السوداء كل جسمها ولاتئن بغير (يارب ، يارب) . نصبت صورة ابنهم الشاب المغلفة ببرواز كبير بأعلى شاهد القبر . شعره مجعد وشاربه كث أسود ، وجهه شاب غض ويلبس معطفا رياضيا .

وأبعد منهم ، انبعثت ضجة عظيمة وحزينة فى الليلة السابعة لزوجين شابين قتلا فى شهر العسل فى حادث سيارة حتى أنها غطت على أصوات الضرب على الصدور أمام قبر بضعة شهداء كانوا أبعد قليلا عنا .

امتلأت الدنيا بالضجة وأصوات الألم والعويل والولولة والصراخ والبكاء والصياح والنواح والأنين والتضرع والنحيب .

وأمسكت بيدى فرنجيس وحاولت أن أوقف ارتعاشها .

حوالى العاشرة أرى الدكتور مارتن خارجا من المبنى ويريد التوجه إلى سيارته فأنهض وأتقدم وألقى عليه التحية .

(Ah, bien ! مسـيو آريان — هل تمتعت بعيد الميـلاد فى باريس أم غير ذلك ؟) .

ولا أدرى ماذا أجيبه . ويسرنى أنهم مجبولون على التلذذ والمتعة .

فأقول (مرسى يادكتر أنت فى غاية اللطف) .

فيقول (هذا يعنى غير ذلك !) .

وأسأله (كيف حال ابنتنا ثريا المغمى عليها اليوم يادكتر ؟) .

ويبتسم الدكتور مقفلا فمه ابتسامة فرح وفرج . ويرفع رأسه وينظر إلى نظرة عميقة متفلسفة يقول (آه Sorraya comatose ثريا فى الغيبوبة كنت تعلم أن لهذه العبارة نغمة تثير الخيال) .

وأنظر إليه .

ويسألنى (ما معنى كلمة ثريا فى الفارسية مسيو آريان ؟) .

– (لا أعلم يا دكتور ، لست واثقا) .

– (ألا تشير إلى وضع إيران القائم أو إلى الدنيا ؟) .

– (لا أدرى ، لا تشير إلى إيران إشارة مخصوصة) .

– (كيف تشير إلى العالم ؟) .

كنت سمعت أن الأطباء إذا لم يكن لديهم كلمة يقولونها عن مرضاهم يتحدثون عن السماء والخلاء .

فأقول (نعم تشير إلى العالم والسموات) .

(إلى أى شئ تشير فى العالم والسموات ؟) .

(أعتقد إلى جزء من القمر ونجم الثريا) .

(ها .. إن هذا يزيد الخيال إثارة ، تقريبا يصير رمزيا) .

– (أنا لا أفهم) .

"Sorraya comatose"

فأسأله (كيف حالها يادكتور ؟) أحاول أن أبطحه على الأرض على أسفلت مكان انتظار السيارات أمام المستشفى .

(حسنا ، ليست سيئة) ثم يقول (ها ، كنت ذاهبا لأتناول فنجان قهوة . هل تحب أن تصحبنى ؟) .

- (بكل سرور) .

- (نخرج ، قريبا جدا ، أنا عارف المكان) .

ويحمل شيئا من داخل سيارته كان يريده ثم يقفل بابها مرتين ونخرج سويا من باب المستشفى .

(هل أنت متزوج يامسيو آريان - أم أعزب ؟) .

- (كنت متزوجا ، أما الآن فلا) .

- (ها .. إذن يجب أن تستفيد أقصى استفادة بحريتك . أقصى استفادة ، هل تفهمنى ؟) .

فأقول خبط عشواء (طبعا) .

وندخل واحدة من مئات المقاهى على ناصية شارع ترتفع عن مستوى مبانى باريس . ونجلس على المقاعد أمام البار . الوقت وسط الصباح لكن البار صاخب . يقول الدكتور مارتن (Chercher la femme فتش عن المرأة .. هذا هو شعارنا) فابتسم أيضا وأقول : (Chercher la femme)

ويسألنى (هل أنت ؟ فى الوقت الحاضر ..) .

- (نعم ولا) .

- (هل هى حلوة معك ؟) .

- (إنها مريضة عملت عملية جراحية) .

- (ياللسوء .. سوف تتحسن بلا شك ، أليس كذلك ؟) .

- (بلى ، بلا شك) .

ويأتي عامل البار ويلقى على الدكتور التحية والسؤال عن الصحة ويصافحه . ولابد أن يحييني أنا الآخر ويصافحني لأنني مع الدكتور وجسمي أضخم منه . ويوصي الدكتور مارتن على قهوة اسبرسو ومشروب لا أفهم ماهو . ويأتي عامل البار بسرعة بكأس له بعد خلط مابه من زجاجات عدة . وأنا لي القهوة وحسب . ويسألني الدكتور (وأين هي الآن؟) .

- (من ؟) .

وأعتقد أنه قال (الكنارى الجريحة صاحبتك) .

فأقول (أوه ، إنها ذهبت مع أبيها وأمها إلى مرسيليا) .

- (وحين تعود .. سوف تطير إلى أحضانك .. أليس كذلك ؟) .

فأقول (يحتمل أن تطير إلى أحضان أحد الكتاب ذى شارب كث يعيش فى لندن) .

- (أوه ! C'est beau l'amour هذا حب جميل تشجع ياصديقى) .

ويرفع كأسه (يمكن أن يكون هذا مسرحية .. تقول حارب من أجلى ، أنت تعلم مثلث الحب الأبدى .. فى صحتك) ويشرب خمره حتى النهاية .

فأقول (دكتور .. بنت أختى .. كيف حالها ؟) .

ويترك الدكتور بل فرانسوا مارتن كأسه جانبا ، ويسحب أمامه فنجان القهوة.

– (بخير .. لايجب أن تقلق .. بخير مائة فى المائة) .

– (أليس من تغيير محسوس ، أريد أن أقول كلمة قاطعة لأمها. الأم المسكينة تنتظر بفارغ الصبر) .

ويتأوه الدكتور آهة طويلة وهى عند الفرنسيين من الرجال مد الصدر للأمام والميل بالخيشوم والفم إلى ناحية . يقول (الغيبوبة فى هذه المرحلة ، يعنى بعد خمسة أسابيع ، تدخل مرحلة حساسة) .

وأرجوه أن يشرح لى بالانجليزية إذا لم يكن ثمة مشكلة لأنى أفهم أكثر بهذه اللغة فيوافق هو بسرور ، لكنه يخفض صوته . ولغته الانجليزية قوية إلا أنها باللهجة الفرنسية . أمضى ستة أشهر فى بوستون فى دورة تخصصية . (فى هذه المرحلة من الغيبوبة وظيفتنا هى أن نبقى على حالة مريض الغيبوبة ثابتة ونمنع اصطلاحا تدهوره) .

– (وهل تتدهور حالة ثريا ؟) .

ولا يرد على مباشرة (فى المراحل الأولى ، الأمر الهام والحيوى – لمنع حدوث ضرر فى المخ لايمكن علاجه – الحاجة الفورية للمريض هى أن نمنع حين تجرى الفحوص المعملية أى نوع من الاختلال فى وظائف الجهاز التنفسى والدورة الدموية ولحسن الحظ تمت هذه المهمة بنجاح . والمريض وهو فى حالة الإغماء الثابت لا يحس من ناحية القاعدة بالمثيرات ، أى المثيرات التى تنفض النوم العميق مثلا كالصياح الشديد أو يشعر بشك إبرة الحقنة ، مع أنه يمكن أن يصدر فى الرد على المثيرات الشديدة رد فعل

عضلى وغير إرادى . فمثلا يمكنه أن يحرك يده قليلا مقابل ألم إبرة الحقنة) .

وأسأله (ألا تبدى ثريا رد فعل على المثيرات المؤلمة ؟) .

ورفع الدكتور مارتن فنجان قهوته ويشربه حتى منتصفه . ويقول (كانت تبدى رد فعل فى الأسبوع الأول ، وكان هذا الأمر الوحيد الذى يجعلنى أشعر بالراحة لكن الـ EEG الأخيرة لثريا ليست مرضية . فهى فى إغماء عميق من نوع الـ Hypoxia التى نواجهها ، حالة من الـ (ايزوالكتريك) أو بتعبير بسيط عدم رد فعل على فولت ٢ إلى ٣ موجة فى الثانية ، وهذا دليل زيادة عمق الإغماء . لكن حدث أن خف إغماء الهيبوكسيا من نفسه) .

– (ألم تختلف حالة ثريا مع فولتات أكثر ؟) .

– (لا .. لا ، قلت أشعتها غير مرضية) ويتأوه طويلا (للأسف إن نفس حالة الإغماء لاتعطينا أدنى إشارة إلى درجة سوئها ، وتشبه النوم العميق .

ولا نستطيع أن نقف على مبلغ سوء هذا (النوم العميق) إلا عن طريق دراسة الفحوص وحسب . أليست هذه الحالة فلسفية ؟) .

وأفهم أنه يواسينى بهذا السؤال .

– (ألا تبدى رد فعل على المثيرات العلاجية والنفسية أيضا ؟) .

– (أوه ، لا .. لا تبدى رد فعل على المثيرات النفسية . يوم أن أتيت وأمسكت يدها وتحدثت معها وتحدثت عن أمها – ونحن نعلم أنها تحبك وتحب أمها كثيرا – كان يمكننا أن نجد مثيرا نفسيا شديدا ، لكن رد فعل ثريا كان صفرا) .

- (هل يثبت هذا شيئا واحدا يادكتور وهو أنه ليس ثمة أمل أخير؟).

- (لا .. ليس الأمر كما ذكرت ، إطلاقا ، نحن نعتقد أن هذا يثبت فقط أن الصدمة التى أصابت قشرة المخ السربرال - كورتكس سرت أيضا إلى القشرة الوسطى للمخ . كانت مراحل إصابتها بالصدمة أنها سقطت على الأسفلت على صدغها الأيمن ثم اندفعت إلى الأمام بكل ثقلها فاصطدم الجزء الأعلى بجمجمتها بالرصيف . حددنا آثار هذه الحوادث بكثير من الفحوص والأشعة والرسوم . لكنه لا يزال من المبكر أن نحدد بحسم أن هذه الصدمات لايمكن علاجها . من ناحية بناء المخ ووظيفته وبيوكيمائيته عرفنا أشياء كثيرة . ونحن واثقون من أننا نعرف كثيرا من المعلومات الأصلية من ناحية عمل موتور مثل المخ . لكن طبيعة (الوعى) لاتزال إحدى أكثر جوانب نظام وظائف المـخ تعقيدا . عجز حتى الآن أطباء الأعصاب وأخصائيو كيمياء أعصاب المخ عن أن يوضحوا هذه المشكلة . وتشير كل الشواهد إلى أن مركز الوعى أو الإفاقة فى المـخ الأوسط ، ولازلنا نجهل علاقته بوظائف حركة السربرال كورتكس التى تتحكم أتوماتيكيا فى سائر الحواس . وبناء على هذا .. يجب أن أقول فى هذه الحالة مثل أجدادى فى المهنة (كله على الله ..) فنحن لانتحكم فى كل شئ فى هذا العالم . تحدث أشياء وكانت تحدث باستمرار وسوف تحدث فى المستقبل ، هذه هى الحياة . لكن حدث فى حالات كان فيها مريض الإغماء أكثر تدهـورا مـن حالة ثريا ثم تحسن) .

- (المريض الذى كان إغماؤه نتيجة مرض بالمخ ؟) .

- (آه .. نعم - بلا شك . أفهم ماذا تعنى بهذا السؤال . يفترق قليلا المريض الذى أغمى عليه بسبب صدمة فيزيقية بالمخ عن المغمى عليه

بسبب أمراض داخلية أدت به إلى الإغماء . تعرف أنه توجد علل أخرى بالإضافة إلى أسباب مثل جرح أو تهتك أو نزيف بالمخ تؤدى إلى الإغماء فمثلا ينشأ الإغماء بسبب أى نوع يحدث الجلطة فى الدم داخل عروق الوريد أو الشريان أو تمزق العروق أو الهبوط الحاد والفجائى لضغط الدم . وأسباب أخرى أيضا تؤدى إلى الاختلال الشديد فى التحول الغذائى فى الجسم مثل الهبوط الحاد لنسبة السكر فى الجسم ، أو فشل الكبد والكلوتين أو التسمم ، أو شرب المخدرات القوية مثل الكحول الكثير ، كل هذا يسبب الإغماء . لكن فى أبعاد حالة مريض الإغماء الذى أصيب بالإغماء نتيجة صدمة مخية أى تمزق ونزيف بالمخ يمكن أن يستغرق شفاؤه فترة أطول حتى تشفى خلايا الأنسجة المصابة . ومازال لدينا الأمل وينظر فى ساعته : (يا إلهى ، يجب أن أعود ، هل تسمح لى ؟) . وأتناول كشف حساب المشروبات لأدفعها ، لكن عامل البار لا يأخذ منى الفلوس بسبب أن الدكتور مارتن أشار إليه . ويدفع الدكتور ثمن كافة المشاريب وأشكره . ونخرج وأعود معه إلى المستشفى وأرى ثريا فى غرفتها ساكنة بنفس حالتها صامتة ممددة فوق السرير . هذه هى الحياة .

وأعود إلى الفندق على قدمى . فارقنى شعورى بحالة إشراق النهار ونضارة الصباح لا أشعر بشهية لتناول الغذاء ، ولا رغبة الذهاب إلى المكتبة ، ولا حتى الذهاب إلى السينما ولا قدرة على الذهاب إلى كنيسة نوتردام دى باريس والاتصال مجددا بالماكروبونيفرس . وبناء على هذا أتوجه على أية حال إلى الأريكة القريبة إلى الفندق ، وبعد ابتلاع الكبسولات أملأ بطنى بطبق كبير من الأرز الصينى ، ثم أدخل غرفتى بالفندق وأستلقى على السرير . وأشرب سيجارتين من سجائر نادر بارسى تلك ، وأجر ما بقى من

مخى إلى وسط الفصلين الثامن والتاسع من كتاب (كلاب الحرب) وأنتظر أحمد صفوى .

لكن أحمد صفوى يختفى ذلك اليوم ، فأقول لابد أنه قطع أمله فى وفى بيع العملة لى ، لكن صفوى يتصل بى فى الثالثة بالتليفون ويعتذر عن عدم قدرته على المجئ إلى لاتفاقه على موعد للقاء المؤرخ المعاصر جان فورجيه ونيته أن يقدم إليه نسخة من كتابه الذى ترجمه إلى الفارسية . ثم يقول (سأتصل بك غدا) .

– (شكرا) .

– (لابد أن تعذرنى جدا ياسيد آريان . اعتذر لك من صميم قلبى عن برنامجى اليوم بعد الظهر) .

– (لا تنزعج ياعزيزى ، فأنا لدى مواعيد أيضا !) .

– (إذن أستودعك الله) .

– (مع السلامة ياسيد صفوى) .

لكن فى نفس ذلك اليوم فى النهاية يظهر أمر غير متوقع وكان قد ضاع تماما . فقبيل الغروب وصلتنى رسالة طويلة موصى عليها من جنوب فرنسا من ليلى آزاده ، أسعدتنى حتى جزء من الليل :–

« جلال »

صورتك الآن أمام عينى ، جالسا هناك بقدك الفارع النحيف مرتديا البلوفر الأسود الذى شغلته أختك ، فوق قميصك الأبيض ، المفتوح الياقة . أعرف أنك قلق ، لكن لست حزينا . لم تكن حزينا فى أى وقت ، بل قلق. وحين ينتابك القلق تفيض عيناك وإذ ذاك أفهم أنك أكثر إحساسا

وإخلاصا مما سبق . حسن جدا لا تغضب . أنا سأتحدث عن نفسى . أشعر بالحاجة إليك ولهذا أخط إليك هذه الرسالة أعرف أنك لابد بحاجة إلى أحد .

نفس هذه الليلة ، آخر ليلة ، لو بقيت واعية ، سوف أسلم الرسالة لترسل إليك موصى عليها . والمفروض أن تصلك غروب الغد . أراك عدت من المستشفى ، واستلقيت على سريرك ، والسيجارة بين أصابعك ، وتقرأ ذلك العبث . ما أسعد هذه الرسالة الملعونة . كنت أتمنى أن تقرأنى مرتين أو ثلاثا فى غرفتك . لكن كيف يمكن قراءة قطعة من الورق ؟ وأنا أموت بسبب جروح أخرى . الجرح الذى ينزف لا يقتل .

الليلة عيد نويل . الجميع سكران . كل أفراد عائلتى الأشقياء تحت سكارى Joyeux Nöel وأنا جالسة فوق فى حجرة البودوار بجانب النافذة لا يفصلنى عن البحر غير بضعة أقدام . وضعت شريطا بطيئا لـ (جوجوش) يغنى (قلبى حزين) قلبى حزين من أجل البكاء . أين أمى ؟ أين مهدى ؟ أعرف أين مهدى . لايزال مهدى هو شيراز . ممزق يسف التراب بداخل دولاب خالتى . فقط أين قبرى ، لا أعرف . أو أين شخصيتى ، لا أدرى .

الليلة البحر مائج . لكننا أكثر سكرا من البحر . سكارى طول الحياة . أخى فرى شرب من الشمبانيا حتى الفواق . خطيبته جيلا تتفوق أيضا . أمى لاتخرج فواقا . أبى يتجشأ .أريد أن أصرخ مستغيثة . حياة فرنسا البسيطة الهنية . مهد العلم والأدب وقبرهما . منحت أبى الشمبانيا . وأعطت أمى الكافيار . سنذهب غدا الجمعة إلى بوردو . نعيش على هذه الحالة حتى أموت . فى مدينتكم عبدان الأطفال يموتون حتى يعيشوا . أواه، طيب جدا ، ليس لى الحق لأن أتحدث عن هذا . هذا الحديث يحق

للمرأة المعصومة العفيفة المحجوبة . أنا من أكون ؟ أنا من السوء حتى أقول حينا أن يأخذنى واحد لأشرب ويضربنى . وهـذا الضرب هـو ما فعله بى نصرت زمانى . كان هذا حقى .

رأيت فى منامى اليوم بعد الظهر أننا عدنا إلى شيراز وعادت أختى إلى الحياة كان العيد وقتذاك . كنت تعرف أن جدى كان واحدا من أولئك المتوكلين على الله الأنقياء الطيبين . كنت أحبه كثيرا . له لحية وشارب أبيضان ويلبس طاقية لامتصاص العرق بيضاء . وعليه عباءة جميلة من وبر الجمال . حين كنت أتدحرج إلى جواره ويقبلنى كم كانت سعادتى كأنى بلغت سحر الجنة وخلودها . لازلت أذكر رائحة الترياق الخفيفة والعرق اللطيف التى كانت تفوح من داخل لحيته وشاربه . لاتزال تلك الروائح الطفولية فى مشام روحى . لكن فى تلك السنة فى عيد النيروز حين كنا جالسين على مائدة السينات السبع أصيبت جدتى (خانم جان) بالسكتة . سكتة النهاية . بكينا جميعا أختى الصغيرة (برى) لم تكن تكف عن البكاء . وفى الصيف التالى أصيب جدى بدوره بسرطان البروستاتا ، ومات . ولم يتم الخريف حتى أصيبت مربيتى أغا طاووس بسرطان الرحم وماتت . كم شربت من ثدييها لبنا عذبا ..

لو كنت أنظم الشعر لكتبت قصيدة فى سرطان البروستاتا وسرطان الرحم . أترك هؤلاء يشربون قائلين (جوييه نويل) حتى يتمزقوا . لا أستطيع التفكير فى سرطان البروستاتا وورم الثدى والرحم الوخيم . وفى الأمعاء المتمزقة . وفى الأمخخ المغمى عليها . وكل حياتى الشقية الشريرة المريضة .

نحن فى بوردو لثلاثة أيام . سنعود إلى باريس لليلة رأس السنة . الشعار الوطنى هو : لا كنت حيا إذا لم تبق باريس . عباس حكمت فى تلك الليلة يلقى محاضرة فى المسرح المدرج لكلية الفنون الجميلة فى السوربون . أعرف أنك لا تخطو قط إلى مثل هذه المواضع لكن تعال - لمجرد الضحك . ألم يخطر ببالك قط أننا فى الواقع نحضر هذه الألعاب بسبب شدة سوء حظنا . ألا تعرف كم يؤلمنى قلبى لكى أشارك مجلس عزاء السيدات . أو مائدة أم البنين وليلة عشاء الغرباء وإضاءة الشمع وتقديم النذور للتكية . ليلة قتل الإمام الحسين وطبخ حلوى اللوز والزعفران وماء الورد . ليلة أن سمع بهمن قراكوزلو أنهم أعدموا أخاه شرب حتى أصابته نوبة قلبية ! يقال إن المرأة الإيرانية إذا عملت بالفن اليوم فهى سيئة الحظ . من هى المرأة الإيرانية البسيطة ؟ من هو الرجل الإيرانى ؟ إذا لم يحمل روحه على كفه ليضحى بها فى سبيل من يحبه ؟ إذا لم يكن الرجل الإيرانى بسيطا فماذا يفعل فى الواقع إذ ذاك ؟ لكن هؤلاء جميعا كلام فارغ . نحن دود لاتستطيع العيش إلا فى ظروف خاصة من الماء والطين . وإلا صرنا يابسين . وعلى طيف أوسع ، غزل الشقاء والمصيبة فترة فى مصائرنا لا تقدم أيضا ردا على العلة والمعلول . أى ذنب أذنبته ثريا بنت أختك حتى يحدث لها ما حدث ؟ هل أذنبت حتى تجرى حياتك لا محالة على هذا الشكل ؟

حين أراك ثانية سوف أقول لك كم أنا سعيدة لأنك هنا . كنت أشعر بالخوف فى آخر مرة كنت أنا هناك . جلال ، كنت أشعر بالخوف كإنسان وقف وسط مقابر أشباح أجداده وأرواحهم . كنت أشعر بالخوف من الصراخ المكبوت فى الصدر ومن الظلام . لكنى الآن أشعر بالخوف من أشياء أخرى هنا وبشكل مختلف ، وأعيش يائسة فى فسادى وتمزقى ..) .

ـ ١٨ ـ

رسالتها طويلة جدا وكلامها كثير جدا . أقرأها عن آخـرها تلك الليلة مرتين ، وفى أواخر المرة الثانية لا أستطيع القراءة . أترك كل شئ بجوارى . أطفئ المصباح . أحاول النوم . بعد قراءة رسالتها أشعر بالحرارة والأمان . فى هــذا العالم ، فى لحظة ما أشعر أنه ربما ، ربما يحدث أن كل شئ يستقيم . تشفى ثريا .. وربما يستقر أيضــا الشــعور وجــذور الإخلاص بين كناريىّ الجريح وبينى حتى يبقى .

أحس أنى أترقب ليلة رأس الســنــة كـالأطفــال ينتظرون بتـعلق ليلة العيد ... من الجنوب من مركز المناطق المنتجة للنفط أتيت إلى طهران وفى يوم الخميس بعد الظهر سنة ألف وثلاثمائة وبضع وأربعين هجرية شمسية .. لكن يوم الخميس هذا بعد الظهر يختلف عن كل أيام الخميس بعد الظهر،

يوم حافل وإن لم يكن بجلال الخريف منذ خمس سنوات سبقته .. وفى يوم الخميس هذا بعد الظهر أصل بالسيارة من مقر سمينار تعليم الإدارة فى المبنى المركزى لشركة النفط القومية الإيرانية فى شارع تخت جمشيد إلى شارع قـــوام السلطنة بجوار (مكان انتظار السيارات العام بشارع قوام السلطنة) حيث مطعم الريفييرا . وفى مطعم الريفييرا اتفقت مع ليلى آزاده على أن نتناول الغذاء معا .. وأدخل فى الواحدة والربع ، وترانى ، وتنهض واقفة من بين جمع أصحابها ورفاقها وكلهم جميعا من أهل الأدب وأهل النظر ، وتتقدم نحوى آتية ، وحين كانت تسير بمعطفها الجرسيه المشكل الألوان وشعرها الأسود الطويل والمصفف يتماوج على كتفيها وتحييني وتطلب أن نذهب الى الموضع الذى أنا به ... ولا أذكر الآن هل كانت فى الفترة الفاصلة بين زوجها الأول وزوجها الثانى أم زوجها الثانى وزوجها الثالث .

وأصرف سيارة الشركة وسائقها ونتقدم بسيارة ليلى آزاده الفورد تانوس الكريزية اللون نحو حديقة (ساعى) ، بين تساقط أوراق شجر الصنار الجميلة المنظر على جانبى الطريق ، وخلال الهواء والشمس الزاهية ، وفى مرمى البصر من الجبال التى غطتها الثلوج سطوع النور ، وهبوب الهواء ، وسير المتنزهين بأطراف الحديقة ، صوت (حميرا) العذب الدافئ من المذياع بمقدمة السيارة ، الحديث عن الرحلات الجديدة ، والأفلام الجديدة لـــون السماء الفيروزى الذى لا نهاية له ، الشارع الخالى الذى يتلفف بأشجاره الخريفية ويتلوى أمامنا ، وتنوع الحياة المنطلقة ، وتحت سيطرة الحب وانفعالاته . كل هذه المشاهد جزء من تاريخ عصرية ذاك اليوم البديعة .

تسألني (كيف حال مسجد سليمان ؟) .

– (ممتازة) .

– (ألا تزال نائمة وسط الجبال والتلال ؟) .

– (لا تزال) .

– (وكيف حالك مع إزعاجنا لك !) .

– (سعيد) .

وتنظر إلي (كنت أظن أنك لن تأتي) .

– (لماذا .. كنت أفكر فيك كثيرا) . وهذا محض افتراء لأني في هذه الفترة لم أكن أفكر في شئ غيرها . ويعلم الله كم أحببتها .

– (انتهت مشاهد فيلمك ؟) .

– (نعم) .

– (متى تخرجين ؟) .

– (يشتغلون في دوبلاجه بسرعة أو بالقول المعروف بسرعة !)

كانت كتبت سيناريو الفيلم الذى قاموا بتصوير بعض مشاهده في لالي قرب مسجد سليمان . وتعرف أحدنا على الآخر في نادى النفط في مسجد سليمان عن طريق صديق مشترك آخر لكلينا واتفقت معى على اللقاء في طهران في مطعم الريفييرا في مسجد سليمان .

(لا تزال شقتك الصغيرة بداخل تلك المنطقة السكنية المتعرجة وسط التلال ؟) .

– (نعم) .

- (١١٩ كامب كرسنت) .

- (لا تزالين فاكرة !) .

- (لم أنس .. لأن كل شئ جميل وبـ
وبسيط . ربما أكتب شيئا فى أحد الأوقات
سليمان) .

- (ليس كل شئ عندك ؟) .

- (لا !) .

- (إذن موافق) .

وتضحك (ألا تشعر بالملل هناك ؟) .

- (أنا سعيد هناك رغم ضيق الوقت) .

- (لكنك لم تبد سعيدا كثيرا) .

- (أنا الآن سعيد) .

- (وأنا سعيدة بمجيئك) .

- (اشتريت كتابك الجديد . « القفص »

- (أعتقد أنه أفضل عمل قمت بتأليفه
أفضل إنسان أحبه فى الدنيا كلها . أمى) .

- (هناك تضارب بين لمرأة وزوجها فى
أحدهما مع الآخر ؟) وقصدى لم يكن أباها و

- (لماذا تتحمله أمى . لكن أبى يتمتع
والسياسة والتاريخ والأدب والفن ومعرفة أحوال الـ

– (أين هما الآن ؟) .

– (فى فرنسا . أبى يقوم بشراء قصر فى الريفييرا أو مارسيليا . لكن أمى تنهض وتأتى إيران فى السنة اثنى عشر شهرا وتعود ..) .

– (أصحابك لم يفرحوا بتركك لهم) .

– (من هم ؟) .

– (فى مقهى الريفييرا) .

– (لا أظن . هناك مكان تجمعهم الأبدى . كلامهم وأعمالهم هناك دائما . يجلسون جميعا ويأكلون الاسكالوب أو بيرة (مجيدية) . ويتحدثون فى المدارس . هل تعرف عما كنا نتحدث اليوم ؟) .

– (عن ماذا ؟) .

– (هل تعرف أول مصرع لأول غزليات ديوان حافظ وهو (ألا أيها الساقى أدر كأسا وناولها) من قائله ؟) .

– (قاله حافظ ؟) .

– (لا) وتضحك .

– (من قال إذن ؟) .

– (قاله يزيد بن معاوية ..) .

– (من قاله ؟ !) .

– (يزيد بن معاوية) .

– (لا !) .

ثم تضحك ثانية (قلت لا .هكذا ! كأنى شخطت فيك وكان الشعر شعرك !) .

– (لا ياستى ، لا والله) .

ويضحك كلانا .

– (ألم تكن تعرف حقا ؟) .

– (أنا حتى لم أكن أعرف أن يزيد كان هذا الحيوان المتألق) .

– (كان حيوانا) .

وأسألها (وماذا كان يفعل معاوية ؟) .

– (لابد أنه كان يؤلف القصص القصيرة وسيناريوهات الأفلام) وتضحك .

– (أو كان رئيس جلسة فى السمنار والإدارة الصناعية) .

ويدخل كلانا فى ضحك خفيض ، وتلف هى حول ميدان (ونك) وتتركه قدما .

تقول (ألا يا أيها الساقى أدر كأسا وناولها) .

– (ما معناها ؟) .

– (يعنى هلم أيها الساقى وصب كأساً واشربها) .

– (يزيد ؟) .

– (نعم هو) .

– (إذن أنا يزيد ، أليس كذلك ؟) .

– (بلى ، تماما) .

– (استغفر الله) .

– (وما الحكمة والنتيجة الخلقية الطبية من هذا البيت لنا نحن الطلاب ؟) .

– (أن يصيروا هم يزيديين) .

– (لا .. إن العشق بدا سهلا أولا ثم وقعت المشاكل) .

والآن أى شئ أجمل من شمس الدين حافظ الشيرازى ومن غزليات حافظ الشيرازى ؟

معروف أن ليلى آزاده حين تقرأ بنفسها لك فى نهار الخريف مشاهد روايتها (القفص) رقم ١٠٣٣ فصوتها دافئ وإحساسها يثير الانفعالات لأنها تحب الشخصيات التى تكتب عنها بافتتان واجتذاب . وحين تقرأ هى بنفسها قصتهم تضفى القصة عليها مزيداً من الحماس والانفعال فتحيى تجاربهم مرة ثانية فى المشاهد التى صنعها الخيال ، وتصبح أصواتها وأحاسيسها ملموسة . ومن خلال حجب النافذة المذهبة ، تتضح جبال الألبرز ، وترى بينها الشمس وقد ألقت بأشعتها فوق الثلوج فى أجمل مناظرها . وعلى الجدار المجاور لسفوحها ترى تابلوها (للطبيعة الصامتة) بلون وصبغة شفافين ، واختلاط ألوان غامقة لكنها واضحة . حبات عناقيد العنب باللون الزيتونى ، طبق الجبن بلون الكرم ، الكأس البلورى البراق ، الزجاجة المغلفة بالغلاف الذهبى ، فوق صينية بجانب النافذة . ويقلب الهواء مشاهد الرواية . كما يقلب المشاهد رقم ١٠٣٣ ، وتقــرأ ليلى آزاده . وتمضى بداية مشاهد الرواية حسنة . ويستمد أبطال القصة الحياة تدريجا حول الببغاء . يتضح شكل القصة ، ويتضح زمانها ومكانها ويتضح بناء القصة وتشابك أحداثها وحبكتها الفنية . قصة تدور حول ابنة بسيطة فى شيراز تذهب الى منزل عريسها . وتحمل معها أيضا ببغاءها الأليف . ويشترى فى المنزل الجديد للببغاء قفص أوسع وأفخم من صنع إيطاليا به

مرائي وحنيات وله تعليقات وأغلفة وملحقات لكن الببغاء يزداد حزنها يوما بعد يوم . لم تعد تتكلم تمرض ، تقترب إلى الموت مثل صاحبتها فى منزل زوجها الجميل الفخم ..

وتكف ليلى عن القراءة .

– (تعبت شفتاى) .

– (خذى راحتك) .

غربت الشمس فوق الجبال . يقلب الهواء مشاهد الرواية الى الوراء . الجو بارد وليلى تنطوى على نفسها حيثما هى .

– (حين يأتى الخريف ، وقد غطت الجبال الثلوج الجديدة ، وأوراق الخريف ، يكون المنظر هنا جميلاً جدا) .

– (ممتاز) .

– (أجمل فصول السنة) .

– (لو كنا الآن بوسط المدينة ألم تكن جهنم ؟) .

– (مدينة جميلة . أنا أحب الناس) .

– (تمام) .

– (ألا تحب أنت الناس ؟) .

وأنظر إليها (ولم ؟ أحبهم) .

– وتقول (كنت فى هذا التفكير وهو من سيفوز بالجائزة الأولى غدا مساء) .

– (أى جائزة ؟) .

– (د .. غدا ليلة آخر المهرجان ، أفضل أفلام سينما الأطفال فى العالم الثالث أين حضرتك ؟) .

– (آه ، ذلك) .

– (فرح نفسها سوف تسلم الجوائز) .

– (فيلمك ليس داخلا فى المهرجان ؟) .

– (بلى .. لكن فيه فيلم أحد أصدقائى . عظيم) .

– (يفوز بهذه الجوائز اليوم المجر أو اليابان) .

– (إيران يمكن أن تكون الأولى هذه السنة) .

– (أنت مدعوة ؟) .

– (نعم) .

وأخاف هذا ، فعادة حين يدور الكلام حول الأفلام والأعمال وغيرها فيعنى هذا أنها لن يمكنها رؤيتى .

– (فعلا منظر الجبال وأشجار الخريف الآن جميل) .

– (أنا لا أضيق من التسكع داخل محلات بيع الكتب والمقاهى).

– (وأنا كذلك) .

– (هل قرأت كتبا جديدة ؟) .

– (كتابك فقط ، هذا) .

– (أى قصة منه تحبها أكثر ؟) .

– (نفس القصة التى تقرأينها) .

– (أنت فى الحقيقة بسيط) .

– (نعم أنا كذلك) .

– (هذه قصة نسائية فما الذى يعجبك فيها ؟) .

– (أنت) .

وتضحك (كتبت سيمون دوبوار مرة : كل العشاق مجانين .. غيرى وغيرك) .

(لكنى أحيانا أشك فيما يخصك ..) .

– (إقرئى) .

– (ألا نستريح ؟) .

ويشعل كلانا سجائر مرة أخرى . وتواصل ليلى القراءة . أشعر الآن بإحساس ناعم وبنوم لذيذ ، وتستمر فى القراءة ، وتجرى القصة قدما ، وتنبض شخصيات القصة بحياة أكبر ، ويتضح بصورة أتم الشكل والصراع لصورة البطل الأساسى للقصة ، ويتحدد بشكل أوضح إيقاعه بالزوجة الشابة فى قفصه الجديد ، ويتبدى بنحو أظهر معالم الهدف والمعنى ، لكنى فيما بين الجمل كأنى أسمع صوت هدير بعيد لنفاثة مقاتلة ، وكأن انفجارا زلزل الأرض شيئا فشيئا فى المنطقة البعيدة ، ويظهر صوت ليلى أيضا تموجا ناعما : (الرياح تهب خارج النافذة . وتقفل الزوجة النافذة لكنها تجلس مكانها وتنظر إلى شاطئ البحر . كأن زوجها لا يزال قابعا على كرسيه الدائرى الأبيض ، ويقرأ مجلة نيوزويك كأنه ابتعد أكثر عن الوجود . وكان موج البحر يزداد هديرا وتنفست المرأة نفسا عريضا وأدارت رأسها . كان الصمت يطبق على المنزل ، وتخيلت الزوجة أن الببغاء أصدرت صوتا فنظرت إلى القفص لكن منقارها الغليظ والبرتقالى كان لا يزال مقفلا

بإحكام وكأن رقبتها غاصت أكثر داخل جسدها) . وأشعر إذ ذاك ببرودة الجو وصوت سيارة الإسعاف آتيا من بعيد وأنا فى خضم جملات الكتاب وحلقات وأمواج دخان السجائر وطياته التى تشبه السيل . ثم يهز انفجار أكثر قربا من الغرفة ثم يتضح أشد خلف النافذة صوت (ج ٣) والرد المتتابع لطلقات الرشاشات عليها وتصل أصوات الصرخات والصياح من أناس يجرون خلف النهر وأسمع أصوات طلقات مدافع الهاون وهى تضرب جذوع النخل .

- ١٩ -

استيقظ فى همهمات السحر وفمى مر وجسدى خاو . أقرأ ثانية رسالة ليلى واضبط بعد أخبار الساعة السابعة صباحاً بتوقيت إيران . ويأتى الصوت غير واضح والأخبار المذاعة عن حرب العراق لإيران أصبحت أكثر إفزاعا (الصداميون البعثيون الكفرة) حاصروا مدن الأهواز ودزفول بالمدافع والصواريخ ، (تعبئة المستضعفين) نقلت ما يقرب من مليون مشرد حرب إلى صحراء لرستان وفارس وسكنتهم وسط الصحراء فى مخيمات . أبطال الطيران الخاطف فى القوات الجوية يدكون بهجماتهم كالبرق المؤسسات العسكرية ومحطات النفط والمصافى النفطية والبتروكيمياوية العراقية . ويبدو عدد القتلى مبالغا فيه حتى لو اعتبر مبالغا فيه أو أنه بدا لى هكذا فى هذا الوقت من السحر .

ولايزال الوقت مبكرا للنهوض والنزول . مازلت يداخلنى الشرود والنوم ، فأبقى على السرير وأقرأ بين النوم واليقظة كلاب الحرب . أقرأ نفس الصفحتين أمر لقائد عملاء عمليات الزنزبار كوت شانون فى موضع من فرنسا بمكالمة تليفونية من مكتب السير جيمس مانسون فى لندن. الأسلحة أمريكية لكنها تشترى عن طريق أحد البلاد الشيوعية ويدفع ثمنها فى هولندا بالجنيه الاسترلينى لكن بقيمة العملة الهولندية يجب أن تسلم الأسلحة فى ساعة محددة إلى بضعة عملاء على جزيرة بالقرب من الزنزبار فى أفريقيا حتى يقلبوا رئيس الجمهورية جان كيمبا بضربة انقلاب واحدة . لا أتذكر بدقة ربما هى أسلحة روسية اشتريت من بلد أوربى ودفع ثمنها بالعملة الهولندية لكن بقيمة الاسترلينى.

ولا أميل إلى قفل الكتاب وإطفاء النور لأنى أعلم أننى بمجرد إغماض عينى وسط الظلام فسوف تنصب على رأسى ذكرى ثريا أو ليلى آزاده أو العفاريت الملتهمة الأبعد منهما وتتسرب داخل رأسى خيالات الموتى والقتلى ، وما دام المصباح منيرا وعيناى على صفحات الكتاب فلن تجد إلى رأسى الخيالات سبيلا .

وفى النهاية يغلبنى النوم وأستيقظ فى الساعة السابعة والنصف صباحا ولا يزال المصباح موقدا والكتاب مفتوحا بجانبى لكن رسالة ليلى سقطت تحت السرير ، فأقوم وأضع الرسالة وسط الكتاب والكتاب بجانبى ، وآخذ كالإنسان الآلى حماما وأغسل رأسى ووجهى وأنزل للإفطار .

الوقت لايزال بين النور والظلمة حين أخرج ، وأمشى سائرا من جنب حديقة لوكسمبرج وأتجه نحو المستشفى . وينادى على بجوار الميدان إنسان

من بعيد ولا أعرفه فى البداية ، لكننى حين أتمعن فى النظر إليه يظهر أنه أحمد صفوى يؤدى ، تمرينات الصباح بمعطفه الحافظ للحرارة ، وسرواله الأحمر والأبيض وهو يتمرن على المصارعة الإيرانية (شلنك وتختة) ويتقدم نحوى . يبدو أنه تمرن جيدا لأنه يردد أنفاسه بانتظام ويأتى ويصافحنى ، ويفتح فى تلك اللحظة معطفة الأكثر ضخامة وقد تعلق كماه خارجين من رقبته ، ويلبسه .

مرتين أو ثلاثا لأنى لا أستطع أن أركز أفكارى ، وأستمر فى القراءة . يصدر(السلام عليكم يا جناب آريان ، صباح الخير)

(السلام عليكم)

(ياله من جو !)

(لم أكن أعرف أنك من الرياضيين ؟)

(ولماذا ؟ كل يوم .. فى أى مكان فى العالم أكون ، سلامة الجسم يعنى سلامة الفكر يا سيد آريان . خاصة الليلة الماضية كنت ضيفا وأكلت أكثر من اللازم) .

– (إذن فلن أزعجك)

– (لا ، أنهيت ساعتى ، تفضل نفطر معا ، ونتحدث أيضا)

– (أنا أفطرت)

– (إذن قهوة)

– (قهوة ممكن)

– (يقول أرسطو إلى طلابه حاولوا أن تحافظوا على الوحدة الجسدية بفن الاهتمام بأجسامكم ، لأنه حين يحافظ على الوحدة الجسمية تتحقق أيضا الوحدة النفسية والعرفانية الروحية) .

– (بارك الله فى أرسطو)

وندخل مطعم (دانتون) ويطلب أحمد صفوى ، صنفين من العصير ونصف حبة جريب فروت وبيضتين نصف سلق ، سلقتا لمدة ثلاثة دقائق وخبز محمصا بدون قشدة لكن بجبن الروكفور . وأنا نفس القهوة الإسبرسو .

يقول (أهدى إلى أخيرا كتاب مفيد جدا وقيم من أحد الأصدقاء العلماء والمحبين للبشرية حول المحافظة على الجسم بتمرينات المشى أو بالاصطلاح الأمريكى « جكنج Joging أى المشى بمهل » أترجمه إلى الفارسية ، أشعر أن الميدان لمثل هذا الكتاب بين « مجتمع إيران القارىء » خال) .

– (صحيح)

ويصله إفطاره المتنوع ، وأجلس أنا طالما أن ليس ورائى أعمال حتى العاشرة صباحا ويسألنى (حسنا يا سيد آريان أى جديد من الأخبار ؟ هل تسمع أخبار إيران ؟)

– (سمعتها صباح اليوم)

– (هل أطلقوا الرهائن ؟)

– (لا ، إلى الآن ، ما تزال الضجة مثارة)

فيقول (بما أن الحكومة يلزمها الفلوس فتطلق كل الرهائن . وإن كان أغلب الأموال تحتجزها أمريكا بنت الكلب . فلن يعاد إليهم من بضعة وعشرين مليار أكثر من ستة أو سبعة مليارات)

– (عندك خبر الموضوع ؟)

– (لا ، لكنى فاهم حكومة كارتر الديمقراطية وأقرا أيضا الجرائد . هم الآن فى مأزق يريدون أن يفصلوا القضية بأى شكل حتى العشرين من يناير حين يسلم الحكم إلى الحزب الجمهورى حتى لا يراق ماء وجه الحزب الديمقراطى أكثر من هذا والإيرانيون أيضا يلعبون بمهارة يا عزيزى . أنا أظن أنهم سوف يماطلونه حتى آخر لحظة ويريقون ماء وجه كارتر حتى آخر ثانية ويعذبونه) وبمهارة يضرب عنق البيضتين المسلوقتين العسليتين بسكينه ويخلط بالملعقة الصغيرة والذهبية اللون فى السرفيس الصفار بالبياض داخل القشر بلطف ثم يرش عليهما قليلا من الملح .

ويذكرنى شاربه ويداه النحيفتان بالطالب الثورى بكلية النفط فى عبدان الذى أصبح بعد تخرجه وعمله عامين فى مصفاة عبدان ، بعد الثورة ، أحد القادة الإداريين والسياسيين فى عبدان .. وبعد بداية الحرب ظل يتضور جوعا لمدة أسابيع داخل التحصينات بالخط الأول للجبهة حتى أخرجوه من داخل المتاريس فى نهاية الأمر مصابا بقرحة المعدة والاثنى عشر والنزيف المعوى ومغمى عليه .

ويدهن صفوى أعلى التوست بجبن الروكفور ، يغطى بمهارة فائقة كل سطح التوست بكثافة متساوية . يقول (ينقضى نصف قرن ويلزم وقوع أحداث فيتنام وإيران ونيكاراجوا لكى يفيق فى النهاية العم سام . الممارسات التى كانت الإمبريالية الإنجليزية تقوم بها أوائل هذا القرن وقت سيطرتها وإمبراطوريتها تقوم بها الإمبريالية الأمريكية من أواسط هذا القرن . والاستعمار عادة يفرض نفسه على البلاد عن طريق سيطرته على الأجهزة الحاكمة لهذه البلاد . قامت انجلترا بهذه الممارسات سنوات طوالا ثم أفاقت وتخلت عن هذا الأسلوب ثم فعلت أمريكا نفس الأسلوب بعد ذلك بفترات ربع قرن أو أكثر بقليل . أى أن أمريكا تبحث عن جماعة صغيرة من الهيئات الحاكمة وعن طريقهم - مثل كابوكى ومثل الشاه ومثل سوموزا - تنفذ مخططاتها وتتعب الشعوب تعبا تاما - بعد هذا ما الذى نفعله ؟ الثورة والحرب والموت لأمريكا .. سواء فى الشرق الأقصى أو الأوسط أو فى أمريكا اللاتينية)

- (يعني أمريكا استيقظت الآن وتفرك عينيها وتريد أن تعمل وفقط لأجل صالح شعوب الشرق الأوسط وأمريكا اللاتينية ؟) .
- (لا ، نعوذ بالله ، لكنها تفرك عينيها .. لأن كل هؤلاء رفسوها فى وجهها وفى النهاية تشعر بأثرها .. أنا مسرور الآن لأن إيران وجهت ركلة قوية فجعلت أمريكا تركع ساقطة حتى أن صوت سقطتها سوف يظل سنوات .. يجب المقاومة ويجب إنقاذ حياة الأمة ووجودها) .

وهو الآن يقطع نصف حبة الجريب فروت قطعا هندسية الشكل ويرش عليها رذاذ السكر ، تظهر أعماله تماما مثل كلامه منطقية وبسيطة ولا يمكن رفضها .

وأقول (أبقاك الله يا سيد صفوى ، مازلت شابا وغضا)

فيقول (أمشى فى الثانية والستين من عمرى حين يأتى الرابع والعشرون من فبراير القادم)

– (أطال الله عمرك . فأنت رشيق القوام ، متين البنية ، سالم الجسد) ويضحك بغرور ، ويقول (والله لابد أن أتغذى بالخارج أو لا آكل من أصله لأن الله أعطانى زوجة حمارة ، فهى فى الواقع لا تتعلم وليس لها شعور . عشرين أو ثلاثين سنة وهى فى الخارج ولا تزال تستخدم السمن الطبيعى ! فى القلى والأرز والعجة وتحمير العشاء والبطاطس .. وتصب السمن الطبيعى الذى حمرت به على كل شىء . عندها تجلط الدم والكلسترول وتصلب الشرايين كلام فارغ . لكن إذا وضع على الطعام بقدر عقلة الأصبع ثوم من فوق مقلى وزيت فهذا عيب . كلما كنت أعود من إيران أو تذهب هى وتعود لابد من إحضار علبتين من السمن الطبيعى الكرمانشاهى . وإذا ما قلت لها ذلك لا يأتى على مزاجها أولا ثم تغضب وتتشاجر وبعد هذا تعود ريمة إلى عادتها القديمة) .

وأهز رأسى وأنظر إلى خارج المطعم .

ويسألنى (طيب وكيف أحوال بنت أختك ؟)

– (نفس الحالة وأظن على أسوا)
– (هل عملت شيئا من أجل الفلوس ؟)
– (لا ، حتى الآن)
– (ألا تحتاج فلوسا ؟)
– (كان معى خاتم ، بعته ، كنت اشتريته فى أمريكا ، حصَلت منه على خمسة عشر ألف فرنك ، وماشى أنا بهم) .
– (ولا تريد المائة والخمسين ألف فرنك التى سوف ترسل من طهران ريالات مقابلها ؟)
– (ولم لا ، لكنى لم أصل إلى قرار حتى الآن ، قدمت أوراقا إلى التأمين الطبى بالجامعة والمسؤولين الحكوميين ببلدية المنطقة وإداراتها)
– (على كل حال أنا جاهز للخدمة)
(أشكرك)
(أعرفك أنى راجع إلى أشتوتجارت فى الحادى والعشرين من يناير لأن عندى ميعادا مع مقوم أسنانى)
– (كما تريد)
– (وأكرر أيضا إذا ظهر خدمة أقوم بها فيما يخص الفلوس حتى تاريخ ذلك السفر وأنا على وعدى رهن إشارتك)
– (ممنون)

والآن يأكل مع القهوة باللبن آخر مثلثات التوست المدهون بالجبن ويسألني (ألم تر صاحبنا نادر بارسي ؟)

– (لا) وانهض قبل أن أكمل كلامي .

– (يبدو أنه مشغول بألعاب عيد نويل)

– (وألعاب أخرى)

– (هل ستذهب إلى متحف اللوفر عصرا ؟ أنا عارف أنك ذاهب للمستشفى في الصباح)

– (حسن جدا ، وأنا ماشي إذا سمحت لي)

– (إذن إلى اللقاء بعد الظهر – ها هذا هو السيد مجيدنيا ..) ويأتي الدكتور مجيدنيا هو الآخر بزي الرياضة المدفيء ويلحق بنا . وأبقى دقائق أخرى . وصفوى يبدو دمث الأخلاق ومعدته مملوءة (أستاذ تأخرت ، أنا فداك) .

يصافحنا . ومجيدنيا كان أستاذ الاجتماع بالجامعة الوطنية ، تخصص المجتمع الإيراني والعالم الثالث . يقول (مشيت نصف ساعة أكثر) ويضع يده على بطنه (أدخلت فيها البارحة أكثر من اللازم ، وحسبت فرأيت أني أن أردت وضع شيء آخر فيها يجب على أولا أن أرفع عنها شيئا ! ها ، ها!)

فيقول صفوى (أعرف من أجلك كتاباً عظيماً يا أستاذ ، إذا لم يكن لديك أرسله لك من أشتوتجارت)

– (أي كتاب ؟)

– (كتاب جديد اسمه جلنج – مفتاح سلامة الحياة . وبداخله ملحق صنف فيه أطعمة العالم الأساسية حسب عدد سعراتها الحرارية ووضح التركيبات الجيدة جداً من أفضلها فإن تناولت فى اليوم ثلاث وجبات متنوعة ففيها ما يقل عن ألفى سعر ، يعنى هذا أن تخفف من وزنك .. لكن بساعة سير متمهل فى اليوم !)

– (لا .. لم أقراه)

– (إذن أرسل لك نسخة منه)

– (شكرا هل أفطرت ؟)

– (نعم يا أستاذ ، تفضل أنت)

فى تكية درخونكاه ، فى ليالى الجمعة كان المعزون يطفئون المصابيح ويقفون حول دائرة ويدقون صدورهم . الأطفال وسط الدائرة ، والكبار حولها مادارت . حينا يشتد ضربهم لصدورهم قائلين (كرب وبلاء وبلاه على الحسين) ويلطمون وجوههم بقوة حبا فى الحسين حتى يسقط بعضهم ، ويغمى عليهم .

ويطلب الدكتور مجيدنيا عصيرا خليطا من التفاح والجزر ونصف حبة جريب فروت وعجة خضروات والكمأة omelettes aux fines herbes avec champignons والكرواسون والقشدة والمربى وطبق بيكن زيادة de bacon وجبن فونتان بلو .

ويقول صفوى ألا تحب يا سيد مجيدنيا جبن الروبلاشون(Roblachon?)

– (نعم ، ممتازة ، هى نوع من جبن المناطق الجبلية الناعمة تأتى من فرساى ، لكن يجب أكلها طازجة ، أفضل منها جبن الروكفور)

فيقول صفوى باختصار (أكلتها الآن وافتقدتك)

– (هنيئا ! فيها عروق مائية وتصنع من لبن النعاج ومعه خضروات خاصة وطازجة ويصنعونها فى المناطق الجبلية ، ويجب أن تؤكل مع البوردو الأبيض !)

– (لا أشربها .. وعليه فأنا آكل الجبن فى الإفطار !)

– (بالهناء والشفاء !) ثم يسأل مجيدنيا كأن وحيا عظيما ومحدثا صدر من مركز عالم الكائنات (هل سمعت التنفيذ الجديد ليوجين أورماندى للسيمفونية التاسعة من سيمفونيات بيتهوفن ؟ يصاحبه أوركسترا فيلهارمونيك فيلاديليفيا ؟ عظيم جدا !) فيرد صفوى (سمعت فقط الخامسة منها الليلة الماضية فى منزل صديقنا جناب رهنما)

– (إنها ضجة ! فى الواقع هذا العمل العظيم هو لأستاذ استطاع فى النهاية بعد أربعين سنة أن يعطى لبيتهوفن ولادة حقيقية فى القرن العشرين) .

فيقول صفوى (أعتقد أن أفضل تنفيذات سيمفونيات بيتهوفن هو تنفيذ آرتور توسكانينى الذى أسس فى أوائل العقد الخامس لهذا القرن شركة (آر سى أى فيكتور) الأمريكية . بقيت هذه السامقة فى صورتها الكلاسيكية حتى الآن فى سائر العالم) .

– (بالصدفة لدى كل السيمفونية التاسعة منها . تلك التى نفذها توسكانينى بأوركسترا فيلهارمونيك أن بى سى كانت ضمن الأفضل فى

ذلك الوقت . لكن عمل يوجين أورماندى هذا هو سامقة السامقات . كذلك الخامسة منها فى ديوان سى تصنيف ٠٦٧ : يبدأها موفمان أولا بإيقاع سريع ونشيط ، ثم يتجاوز التكنيك البشرى للفنان وأستاذيته ، يرتفع فى سحاب نبوغ بيتهوفن نفسه)

– (هل سمعت بتنفيذ إيجور إسترافينسكى لـ (طقوس الربيع) ؟)

– (نعم)

– (هذه الأوركسترا عظيمة)

– (هذه أفضل من تلك أيضا)

(La Sacre de Printemp كانت خروجاً على التقليد الكلاسيكى !)

– (إسترافينسكى يساوى الخروج على تقاليد الموسيقى الكلاسيكية)

ثم يقول الدكتور مجيدنيا (.. هل سمعت آخر خبر من أمريكا أيضا ؟)

– (أى جديد ؟) ويشرب صفوى آخر جرعات عصيره .

– (أى خبر ؟) أعتقد أنه خبر عن الرهائن .

فيقول مجيد نيا (كارتر مصاب بالبواسير !)

– (لا !) ويضحك صفوى

– (أذاع هذا النبأ التقرير الطبى للبيت الأبيض)

– (لكل شىء سبب ، فقراراته خراب ! هه هه ، لكن هل تتحدث بجد؟)

- (كانت ضمن أخبار النيوزويك ..)

ويضحك صفوى مرة أخرى (طيب ، هل هو إنسان مختلف . الإنسان فان قابل للمرض - حتى زعيم أكبر قوى العالم !)

وأنهض وافقا !

وينهض صفوى ومجيدنيا كلاهما ويصافحاننى بأدب جم ولطف وظرف

ويقول صفوى (إذن أصل إليك بعد الظهر يا سيد آريان ، الساعة الثانية)

- (لابد أنى سأكون بالفندق)

- (تحت أمر سعادتك)

- (أستودعكم الله)

- (مع السلامة يا سيد آريان)

ويقول مجيدنيا بدوره (مع السلامة يا صديقى)

وأترك أحمد صفوى والأستاذ مجيدنيا فى مقهى (دانتون) منهمكين فى الحديث المتفرق حول عالم الجكنج والمأكولات الممتازة وعلم السعرات الحرارية وعالم الموسيقى السيمفونية وأعود ماشيا إلى المستشفى .

لا خبر فى القسم الذى تعالج فيه ثريا ، جورجيت لوبلان بزيها المنشّى مشغولة فى رتق المهام وفتقها . وعلى مكتب الاستعلامات توجد امرأة مشغولة بالتسجيل فى دفترها ، العمال يلمعون الأرضية . تخرج ممرضة بصينية دواء من غرفة وتدخل غرفة أخرى . تفتح الأبواب وتقفل دونما صوت . يتحرك عقرب ساعة الحائط البيضاء بلا صوت ، ثريا نائمة بلا

حراك في نومها الكابوسي المجهول .. ولا يعلم هل اختفى الأمل في الحياة في هذا الصمت والشدة أو أن جفاف الموت يهبط بقول إريك برن ؟ هل مات كل شيء لنا وبدأت حالة البرزخ أم أن هذا نوم مؤقت ؟

وتمضى الحـال تقريبـا بنفس الأوضـاع فى اليـومين أو الثـلاثة التـاليـة .
وفى عصر العشرين من ديسمبر فى يوم مطير ، وفى ممر صالة ٣ (salle 3)
بمسـتـشـفى فـال دوجـراس يلمع قـاسم يزدانى على أفق هذه الرحلة .
خرجت من مكتب القسم عند مارتن وأحببت أن ألقى نظرة أخرى على
ثريا قبل عودتى إلى الفندق فإذا بقاسم يزدانى هناك واقف فى عقب الباب
ينظر إلى سرير ثريا . رأيته طوال هذه الأسابيع الثلاثة التى قضيها فى فرنسا
بضع مرات مع سائر الطلاب أو منفردا ، وسلمت عليه وسألته وأجبته مرارا
مثل بقيتهم ، ولكن ليس باهتمـام أبلـغ . شـاب صامت ومؤدب ، تقاطيع
وجهه جميلة أو حتى يمكن أن توصف بأنها جميلة ومنسقة . بشرته غضة
نضرة وبيضاء . حاجباه دقيقان ولحيته وشاربه أحمرا اللون خفيفا الشعر

ناعماه ، خاصة عيناه العسليتان هادئتان تبعثان على الثقة والاطمئنان يسألنى (ما آخر الأخبار يا أخى ؟ السلام عليكم)

– (عن السياسة والأحوال ؟ أم عن ثريا ؟)

– (عن ثريا هانم)

– (نفس الحال La même condition ، نفس الأوضاع كما يقولون)

– (أليس من تغييرات محسوسة ؟)

– (لا للأسف)

– (أنا قاسم يزدانى تحت أمرك)

وأعرفه اسمى بدورى ، هو الذى يضع زهور النرجس بأغصانها وأوراقها بجوار ثريا لأنى حين أتيت لم تكن موجودة .

– (أنت خال ثريا هانم ، مضبوط ؟)

– (أجل ، هو أنا)

– (سعيد بمعرفتك ، هل أنت بخير إن شاء الله ، وصحتك على ما يرام ؟)

– (نعم ، مرسى)

– (كيف حال السيدة والدتها ؟)

– (إنها تعانى من عرق النساء ... موجودة) ثم اشرح له باختصار شيئا عن المرحوم الدكتور والد ثريا وأنهما لم ينجبا غير هذه الابنة .

– (إن شاء الله سوف تتحسن الأحوال)

– (أتيت بهذه الزهور الجميلة ، وتحضر أغلبها ، شكرا)

– (أنا والأولاد الآخرون مشتركون فيها)

– (لكن ثريا بنتنا مغمى عليها وللأسف لا تنتبه لهذه الزهور وللطفكم)

– (الله موجود .. هو رب العالمين)

– (على كل حال متشكر جدا)

– (ألا تسمح بأن نتعرف أكثر ، تفضل كوب شاى ، عصير .. إذا استطعت أن أقوم بأى خدمة ، تفضل على الرحب والسعة)

– (بكل حب) ليس ورائى عمل ، كما أنه حرك فى إحساس الفضول وعليه أقول (أكون سعيد ا)

– (هل تفضلت بالخروج ؟)

– (نعم ، ليس ورائى فى الحقيقة عمل هنا)

– (إذن تفضل)

ونعبر الممر حيث أول السلم ونهبط وأسأله (هل لديك معرفة كبيرة بثريا ؟؟)

– (لا ، ليست كبيرة . فهى بنت فى غاية التقوى والاعتزال . لم تكن تختلط كثيرا ، رأيتها مرة أو اثنتين مع طالبين متزوجين كنا نعرفهما جميعاً)

– (هل كانت ثريا تشترك فى المظاهرات هنا ؟)

– (لا ، بنت أختك كانت تخشى الله)

- (هل تعلم أن زوجها خسرو إيمان كان استشهد فى مظاهرات أواخر شهر يور سنة ١٣٥٧ ش ؟)

- (نعم ، سمعت هذا)

ونخرج إذ ذاك من المستشفى ونمشى سائرين ونلف متجهين إلى محطة المترو ويقول قاسم يزدانى (تحب تتفضل إلى (المدينة) وترى كيف نعيش نحن الطلبة ؟)

- (موافق)

- (تشرفنا)

- (نأخذها مشيا أو نأخذ المترو ؟)

- (المسافة لا تزيد عن خمس أو ست محطات ، لكن يجوز أن تتعب من المشى)

- (لا ، لا شيء ، نمشى)

ويعرف شارعا ضيقا باسم شارع دولا جلاسيه يتجه من الشمال إلى الجنوب ويوصل بسرعة إلى قبالة حديقة دوسونتسورى التى تفضى إلى أول حى (المدينة الجامعية) لباريس وينزل المطر بتفاوت بين القطر والهطول ، وليس معنا مظلة واقية من المطر .

فقط يقول لى أنه يدرس للحصول على درجة دكتوراه الدولة فى الكيمياء ولعله ، كما يبدو ، حصل على البكالوريوس فى طهران من كلية العلوم جامعة طهران ، ولما كان أول دفعته بعثه أبوه لإكمال دراسته .

(بما أن الاسلام لا يخالف العلم ، وأنما لا يخالف غير الفساد والفحشاء)ولا يتحدث كثيرا هنا عن نفسه ، ولكن لا أظن بحالته هذه من نحافة الوجه وعدم بروز الصدر والبطن أن فصلا من الغذاء الدسم سوف يؤثر في سلامته الصحية . أحب أن أدعوه لكي نأكل شيئا معا ، لكن بما أنه هو الذى دعانى فأرى من شروط اللياقة أن أكون تبعا له .

وأقول له (دعنى أخمن . ألست من أهل مشهد وما حولها ؟)

فيضحك (حسنا اقتربت . أنا من تربت حيدريه ، كيف خمنت ؟)

– (أنا نفسى لا أعرف . إلا أن فيك شيئا روحانيا وخراسانيا مقبولا)

– (وهل أنت من عبدان ؟ سمعت من السيدة شارنو أنك شرفت إلى هنا من عبدان)

– (لا ، أنا من طهران)

– (من طهران نفسها أم من محافظة طهران ؟)

– (ابن حارة سويقة درخونكاه وشارع شابور)

– (لكن فيك حرارة أهل الجنوب وصفاءهم وبساطتهم)

الهواء به حدة البرودة وأشعر أن الصداع سوف يتلاعب برأسي وأقول في نفسي كان من الأفضل أن أخذنا المترو الملعون .

. ويسألنى (ماذا كان هدفك من بقائك في عبدان بعد أن بدأت فيها الحرب ؟)

– (أنا ، لم يكن لى هدف)

- (لم يكن لك هدف وقصد خاص ؟)

- (لا ، كنت بالمستشفى)

ويستفسر منى عن سكتتى المخية المشهورة ، وأصدق له على الواقعة

- (ألم تتزوج ؟)

فأنظر إليه وأضحك ، وأعتقد أننا نقترب الآن إلى موضوعه المحبب ، فأقول (مر ة ، منذ سنوات ...)

ويهـز رأسه ، لكن لا أظن أن تحريكه رأسه كان بسبب فقدانى لزوجتى . لا يسألنى عن كيفية ما حدث ، فليس لهذا أهمية ، الأغلب أن هزه لرأسه كأنه بسبب امتناعى عن تكرار الزواج .

- (كيف لم تتزوج ثانية ؟ يجب على المرء أن يتزوج !) وكان نغمة صوته تحمـل المزاح وأضحك أنا أيضا وأدع هذا السؤال يمر ، لكنه يعيد السؤال (لم تجبنى ..) ويظهر من نغمة صوته وأسلوب تعبيره أنه لا يؤمن أصلا كثيرا بنوعيتى وطبقتى ، لكنه على كل حال يتلطف بى ويترفق .

فأقول (والله ذلك الشخص الذى كنت أود الزواج به يفكر فى أشياء أخرى . ربما لا أزال ضمن قائمته ، وهؤلاء الناس الذين كانوا يودون الزواج بى كيف أعرض عليهم ؟)

- (سيادتك نفسك ليست عندك قائمة ؟)

- (لا - هه ، وأنت ما حالتك يا سيد يزدانى ؟ ألست متزوجا ؟)

– (لا ، لكن ما إن يتم عملـــى هنا وأعـــود إلى إيران فلابد من الشروع فى الزواج)

– (عارف ، المرء لابد أن يتزوج !)

ويرد على بضحكة ساذجة

– (لم تفكر فى واحدة معينة) ولا أشير إشارة خاصة إلى ثريا ، لكنه يفهمنى

– (لا ، إذا كانت إشارتك الضمنية تتعلق بثريا هانم ، لابد أن أفصح بأنى كنت مهتما بها وحدها بعد الحادثة)

– (طيب ، لكن معرفتك بثريا كانت سطحية ؟)

– (فقط من بعيد لبعيد ، كانت ثريا لا تختلط إلا بالسيدة شارنو وهى من صديقات دراستها السابقة والتى أظن أنك قابلتها)

(نعم) تعبت جدا من المطر الشديد والبرودة وأقول فى نفسى حين نصل شقة الأخ قاسم يزدانى فلسوف أتناول شاياً ساخنا .

ونمر من أمام حديقة دومنتسورى ، ثم نتجه نحو واجهة حديقة عارية الأشجار مبللة ، وندخل حارة ضيقة وقذرة تنتهى بنهاية مسدودة أكثر ضيقا وقذارة . والمبنى الذى ندخله شىء خرب قديم مفروض أن ينهار ببابه وهيكله الآن أو بعد ساعة واحدة . وفى الطابق الهرمى الأخير غرفة صغيرة يفتح قاسم يزدانى بأصبعه نهاية بابها الأمامى المهشم وندخل بعد خلع أحذيتنا . ويشير إلى بالجلوس على الكرسى الوحيد . وحين ينصرف إلى

معاناة إشعال موقد الغاز ، ألقى النظر على ما حولى . باستثناء السرير الوحيد وموقد الغاز الصغير ذى الشعلتين ، وصنبور الغسيل وقليل من الأطباق والأواني ومنضدة ونفس الكرسى الوحيد وكليم نظيف وتل مختلط من الكتب العلمية والفنية والتكنولوچية والكتب الصغيرة والكراسات فإن باقى الأثاث بالغرفة من الوضاعة بحيث (تصبها فى قطارة وتقول للأعمى بالشفاء) صورة مبروزة مرسومة بقلم أسود لجسر قديم والمباني العتيقة فى باريس معلقة على جدار مائلة معوجة أو كانت على حالها منذ سنوات . وعلى الجدار القائم بالناحية اليمنى للباب معلق صورة اشتغلها قاسم يزدانى بنفسه بورق أحمر بلون الدم بقَصَّة قبة ومئذنة بحيث يظهر أعلى المئذنة على شكل صورة ملتقطة فى الواجهة وكتب بالفارسية على بطن القبة كلمة (القبلة) وعلى طول المنارة كلمات (حى على الصلاة) وعلى الصورة الملتقطة بتمامها كلمة (الله) . والغرفة باردة وأحد زجاج النافذه مكسور ولصق بالورق .

وأخلع معطف المطر مقتديا به . إلا فليرحم الله غرفتى فى فندق پالما أرتعد بردا وأسأله (هل كل هذه الغرفة بتمامها ملك لك ؟)

وكان انتهى لتوه من إشعال الموقد ووضع سخان الشاى . يضحك ويقول (جميل أن سألتنى بالمصادفة ! نعم كلها ملكى قانونا . لكن أحدهم وهو مرتضى حمامى الذى لم يدفع إيجارها أكثر من شهرين يأتى هنا بالليل وينام بأحد أطرافها ، حشرنا بطانيته وملاءته تحت السرير حتى لا يراها البواب Concierge)

– (عفارم عليك !)

– (طيب ما رأيك ؟) وينظر حواليه ثم يجلس على طرف سريره

– (مثل القمر) .

– (مثل القمر ؟ أو يجب أن نبعث هذا العفش إلى القمر)

– (أرسله إلى عبدان)

– (لا ، إيران لم تعد تريد مثل هذه الكراكيب والعفش البالى)

– (فى حجرتك هذه تعيش فى سلام وهدوء . يضربون عبدان من الصباح إلى المساء ومن المساء إلى الصباح ويدكونها ويقتلون من فيها ويرسلونهم شهداء)

– (سوف نظل نقاتل حتى يتوارى الكفرمن العالم)

ولست واثقا من ماذا يقصد بدقة ، لكنى أقول (أنا على ثقة من أنك حين تعود إلى إيران يمكن أن تكون قيمة علمية لأى كلية)

– (ولكن ليس لمثال هذه الجامعات ومراكز الفساد)

وأحاول أن أغير موضوع الحديث

(لنترك يا سيد يزدانى موضوع الجامعات جانبا ، قل لى لأرى رأيك فى ثريا هل تعتقد أنها سوف تشفى ؟)

– (إن شاء الله . على الله)

– (أليس ترى رأيا أكثر دقة)

– (ماذا تعنى ؟)

– (مكثت أنت هنا فترة أطول ، ورؤيتك العلمية أوضح ، ولغتك الفرنسية أفضل كثيرا) ويطأطىء برأسه .

فأسأله (هل عرفت من الأيام الأولى لحادثة ثريا ، هل كنت حولها من البداية ؟)

– (عرفت من ثالث أو رابع يوم)

– (كيف كانت ؟ هل كانت فى البداية أحسن أو أسوأ ؟)

– (كانت أحسن . طبعا أنا كنت لا أراها يوميا)

– (هل تعتقد حقا أنها كانت أفضل ؟)

– (بلا شك هذا رأيى الشخصى . أعتقد أنها كان لها رد فعل)

– (هذا ما قاله لى الدكتور مارتن)

ويرفع حاجبيه (يجب قطعا أن تدع كل شىء لله)

وأصعد زفرة وأستند على الكرسى .

– (فى الوضع الراهن أى عمل آخر يمكن القيام به ؟)

– (كن مع الله)

وغلى الماء فى سخان الشاى وينشغل الأخ قاسم يزدانى بأمر الشاى . وبجوار الموقد ، على أحد أطباق أكواب الشاى ، بقى كيس شاى جاف استخدم وحوفظ عليه من المرة السابقة بخيطه وورقته وكل شىء . لكن مضيفى لا يستخدمه ويضع فى السخان كيسا جديداً وينقل الأول إلى جوار النار ويعود ويجلس حتى يفور الشاى .

وأقول (ما رأيك أنت شخصيا ؟ أريد أن أعرف كل شيء عن البنت، . أمها قلقة أيضا وتنتظر)

ويفرك قاسم يزداني عينيه وحاجبيه بيده ثم يمسح بها على لحيته الناعمة ، ثم يتنفس نفسا عميقا .

(أنا لا أعرف كثيرا من الإغماء أو الكوما ، ولا أعتقد أن الأطباء وجراحي الأعصاب والأخصائيين فى هذا التخصص أيضا ، أو فى التخصصات البيولوچية والباثولوجية والبيوكيمية يعرفون عنها القدر الكافي أيضاً . الصدمات التي تصيب المخ لا تقبل التقويم . لأن نفس وظائف عامة أقسام المخ لم تكتشف حتى الآن .ولا ينتهى موضوع المعرفة التامة لمخ الإنسان حاليا وهناك أشياء أخرى أيضا)

– (وما هى هذه الأشياء الأخرى أيضا ؟)

– (أسرار الخلق وإعادة خلق الإنسان بإرادة الله)

– (صحيح)

(يجب أن نراعى أن الإنسان خلق من قسمين وفهمهما بلا شك ليس صعبا . القسم الأول الجسد والجسم المركب من عناصر هذا العالم . وهذا التركيب بنفسه يبلى ويتجزأ فى أخر الحياة وبلوغه نهاية الدائرة ، لكن مادته الأصلية لا تفنى . مثل هذا الماء الذى يغلى فى السخان وصعد بخاره إلى الهواء ، لكن الماء يبقى فى الهواء فى صورة البخار حتى يعود ثانية إلى الأرض وبناء عليه يبقى محفوظا . أما القسم الثانى للإنسان فهو الروح والنفس التى ليس لها خواص المادة ولهذا لا يحدث لها تغيير أو تجزؤ

وتبقى بنفسها . هذا القسم وهو رمز الحياة وروحها يقطع بعد موت الجسم علاقته بالجسد ويستمر هو نفسه فى الحياة ويوجد فى عالم الأرواح والأنفس . سمعت أن مثل هذه الأفكار ورد فى الأساطير الزردشتية . وتستمر حياة الروح حتى تجتمع يوما بإرادة الخالق العناصر الأصلية للجسم ويتخلق من جديد وتعود الروح إلى جسدها)

– (لكن هذا مفزع يا سيد يزدانى ؟)

– (ما المفزع ؟)

– (.. أنا لا أريد أن تموت ثريا فى هذا الحين ثم تعود إلى الحياة بعد مليار سنة أخرى على أثر فعل الانفجارات الذرية وانفعالاتها العكسية . أريد أن تشفى ثريا غدا أو بعد أسبوع أريد أن تعود ثريا إلى نفس حياتها هذه حتى اصطحبها إلى أمها . هذه المخلوقة المسكينة كل عمرها ثلاث وعشرون سنة ، لم تر إلى اليوم من الحياة خيرا ، ليس هذا عدلا ..)

– (لا .. ربما ليس هذا عدلا فى ظاهر الأمر)

– (إذن تعتقد أنت أيضا أنه ليس عدلا)

– (لكن إذا أراد الله هذا فماذا يمكن عمله ؟)

– (أنا أعتقد أن الله جل وعلا عن أن يريد ظلما)

– (برر الموضوع على هذا النحو وهو أن الله يختبر عباده)

فأزفر آهه وأهز رأسى (نعم)

(نعم وهنا يجب أن نهتم بجانب الروح فى الإنسان أو مسألة الإيمان) .

إذا تحركت بين ناس هذا المجتمع وخالطتهم على المقاهى والحانات بل وفى محلات بيع الكتب تراهم انغمسوا فى فساد عبادة الجسد وعبادة المادة ، يعيشون سكارى لأنهم لا يرون الحقيقة .. اسمح لى بأن آتى بالشاى . آسف لأنى ليس عندى غير الشاى) ويبتسم . لا أظنه يرمى إلى الخمر ، وأدعها تمر على كل حال .

ليس لديه غير فنجان واحد ، لهذا يصب الشاى لنفسه فى كأس ويخرج كيس الشاى من داخل السخان ويتركه جانبا . على الأقل شايه ساخن وحلو المذاق . عنده حلوى المن الاصفهانية بقعر العلبة فيأتى بها ويدعها أمامى . ثم يأتى ويجلس متربعا على سريره ثم يستأنف (ورد فى القرآن الكريم قصة حول الإيمان يقول فيها تعالى إن إبراهيم فى مناجاته يوما مع الله قال (رب أرنى كيف تحيى الموتى) فيجيبه الله (أو لم تؤمن) فيقول إبراهيم (بلى ولكن ليطمئن قلبى) قال الله (فخذ أربعة من الطير)[1] واقتلها - وليس القتل فى القرآن ولكن فى التفسير - ثم قطّع لحمها واخلطه (واجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا واعلم أن الله على كل شى قدير) عالم برموز العالم .. هذه القصة وبلا شك أشارة موجزة جدا إلى أسرار عالم الخلق والبعث ، لكنها أصل الإيمان بالبعث وإعادة العدل الإلهى)

- (نعم ..)

---

١ - (وصرهن إليك) قيل لا يفهم منها معنى الذبح وإنما الإستئناس لأنها بعد قتلها - والمفهوم قتلها ضمنا - أتينه سعيا حين دعاها لاستئناسها به (المترجم) .

– (قلت ليس عدلا أن تموت ثريا وهى فى الثالثة والعشرين . طبعا ليس عدلا . لكن أصل هذه الحقيقة هو الإيمان أعظم وآخر حقيقة أيضا والذى لا يراه غير عين الحياة . ومن لا يرى هذه الحقيقة هم من يعيشون فى إغماء أبدى عن الحياة وكل شيء) .

وأسقط الآن فى نوبة متتالية من العطس وأنظف بالمنديل أنفى وفمى وأقول فى نفسى جميل جدا ، الزكام ونزلة البرد فوق البيعة . لكنى أدعه يتكلم وأثناء حديثه أراه فى الرابعة من عمره فى تربت حيدرية طفلا جميلا ذكيا . ينصت فى ركن الحجرة وهو جالس فوق السجادة وأمامه المخدة . سمع هذه الأصول فى ذلك الوقت وسجلها وأضاف إليها بكمبيوتر عقله الممتاز الرشيد المتنامى وبلغ عظمة الكون وأبعاده ولم يغيروا أساس هذه الأصول لديه حتى الآن وهو فى بضع وعشرين من عمره يأخذ درجة الدكتوراه فى علم الكيمياء من واحدة من أكبر جامعات أوروبا .

– (كأنك أصبت بنزلة برد ..)

– (لا أعرف ، منذ أيام وقد ضرب خيشومى بأنفى ..)

– (لدى أسبرين) .

– (أنا نفسى صيدلية متحركة) وأمد يدى إلى داخل جيبى ويضحك كلانا .

وأشعر أن قاسم يزدانى هبة لى بالقياس إلى صفوى ومجيدنيا وبارسى وعبد العلى آزاده . الشيء الوحيد الذى لا أستطيع إدراكه هو الفلسفة الاقتصادية وراء كيس الشاى الجاف الذى استخدمه من قبل لنفسه وزهور النرجس لثريا والذى يعقد الأمور أكثر . ولا يمكن أن يكون الأمر تمثيلا لأنه لم يكن يعرف أنه سوف يدعونى إلى غرفته .

وبعد تناول الشاى والحلوى ، نتحاور لنصف ساعة أخرى حول الإيمان برب الكائنات واللاهوت وفلسفة المعاد والبعث والخلق ونهاية العالم والبشر من وجهة نظر الدين ، والموت والبرزخ بعد انفجار الأرض أثر زلزالها وإخراجها أثقالها ويقول الانسان مالها حائرا ، ومعبر الصراط الأحدّ من حد السيف والأدق من الشعرة ومن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شراًيره .. وحين يتوقف المطر أقترح عليه أن نخرج لنتناول عشاء خفيفا فيشكرنى ويقول لابد أن يصلى ثم يكمل كتابة تقريره المعملى . يقول أنه يتناول فى حجرته عشاء خفيفا بالليل . ليس عنده ثلاجة ولا يوجد أيضا صندرة ملحقة بالخارج بغرفته ولاكومدينو . لا أستطيع أن أخمن ما هو قصده من العشاء الخفيف داخل غرفته اللهم إلا أنه يغلى مرة أخرى كيس الشاى الجاف ويشربه مع الحلوى الأصفهانية. فكرة أن يتصل بالتليفون لكى يحضروا له عشاء من ماكسيم ما هى إلا جنون .

فى اليوم التالى ، أوائل العصر أذهب مع صفوى إلى اللوفر ولم يكن صفوى مرشدا لى وحسب بل كان دائرة معارف متحركة . لديه معرفة بكل تابلوه وكل تمثال وكل مجموعة فنية فى كافة الأقسام أكبر من مسؤولى المتحف . وظهر اليوم التالى له أيضا يصل بارسى وزوجته وأخت زوجته سيمين برزكر بسيارة زوجة بارسى السيتروين الجديدة ويريدون أن نذهب إلى نافورة (فونتان بلو) فأقول هناك اتفاق على أن يأتى صفوى لى وأصبرهم حتى يأتى صفوى ونذهب جميعا ويحب بارسى أن يعرف ألم تعد ليلى آزاده بعد فأجيبه بأنها لم تعد بعد . فيقول سمعت أن عباس حكمت المفروض أنه سيلقى محاضرة ليلة رأس السنة فى مسرح كلية بوزار بالسربون فأرد عليه بأنى سمعت هذا أيضا .

اليوم الجو صحو ، جلست بجوار سيمين فى السيارة ويفوح منها رائحة جميلة .

ونافورة (فونتان بلو) الزرقاء ليست سيئة كذلك . ويقول صفوى إنه يعرف مقهى يقدم طعاما إسبانيا شهيا ، ويقول إن امرأة تأخذ الفأل عجوزا من جبال الألب تدير هذا المقهى .

ونذهب المعطم الأسبانى . كل معلومات صفوى صحيحة ، وبعد غذاء طويل حين تسخن أغلب الرؤوس تأتى العجوز آخذه الفأل لتأخذ فأل امرأة بارسى وأختها سيمين . على المائدة تأتى العجوز الداهية بكل ما خفى منا جميعا وتقول لسيمين أن رجلا عسلى العينين رمادى الشعر سوف يسقيها فى المستقبل جمّ السعادة والعذاب ، فيقول نادر بارسى الذى لا يكل نفسه من النظر إلى أخت زوجته مازحا : جلال لا تعذبها ، ونضحك جميعا ، وبعد أن نخرج من المقهى نمشى قليلا ويتجه صفوى وبارسى وامرأته إلى هذه الكنيسة القوطية الكثيرة القدم وتبقى سيمين فى السيارة أمامى .

عيناها الفاتحتا الخضار والحادتان تشبه عينى لاله أحمدى زوجة أخ زوج فرنجيس . يقبضون غروب أحد أيام الربيـــع فى طهران على لاله أحمدى أمام الجامعة وهى تتحدث مع بضع فتيات وفتيان آخرين . كان سن لاله إذ ذاك الحادية والعشرين فى الفرقة الثالثة بكلية الاجتماع بالجامعة الوطنية . لم يسبق وقتها على زفافها غير عام وكانت حاملا فى شهرها الرابع . ويرمون بلاله وصحبها فى عدد من سيارات البيكان يأخذونهم ويدعونهم فى السجن بتهمة توزيع صحف غير قانونية . وفى زنزانة السجن يغمى على لاله وحين تفيق فى سحر اليوم التالى تشعر بآلام شديدة فى صدرها وبطنها تحاول أن تمنع نزيفها بقطع من لباسها الممزقة ، لكن طفلها يسقط .

وتنقل فى اليوم التالى إلى سجن القصر ويحبسونها بصحبة خمس عشرة امرأة أخرى فى سجن النساء . وبعد سبعة أشهر يطلق سراحها بدون محاكمة أو حتى ملف لها . لكن زوج لاله كان قد انتحر فى ذلك الوقت ودفن منذ أربعة شهور فى (بهشت زهرا) . ملازم أول مهندس كامران نقى بور أدخل وهو داخل الحمام ماسورة مسدسه فى فمه وأطلق رصاصة باتجاه الفك الأعلى وتناثر مخه على الحائط أعلى الدش .

وأتحدث مع سيمين عن ميشيجان ، كان تعيش فى جامعة ميشيجان فى إيست لنسنج فى أحد دور المبيت حيث (يختلط ويمتزج) الأولاد والبنات ولاتكون لديهم مشكلة الجنس . إدريس ابن مطرود فى عبدان بعد عجزه عن بيع السجائر الونستون كان له حب واحد هو أن يقبل بين المتطوعين ويلحق بصفوف محبى الحسين ويعجل إلى لقاء الله ، ويوم أن ذهبت إلى (هلال بريم) لأ ساعد فيض بور الموظف بتعليم شركة النفط لاخلاء منزله كان عشرون طالبة أتين من جمعية الإسعاف وشغلن المنزل وديا وتمركزت الأخوات المتنقبات المرتديات السراويل المتكسرة وأحذية التنس والمسلحات بالرشاشات فى المنزل وكن يتحدين الأخوة الذين استقروا فى عمارة لاتبعد كثيرا . تقول سيمين برزكر إن ايست لنسنج ليست سيئة لكن باريس فى نظرها أحسن مع أنها تعشق سويسرا . وأقارنها بسوموتجو صاحب الفندق وهو سويسرى الأصل وكأن قواميهما خرجا عن قالب واحد ، فقط جسم سوموتجو مثل عروسة صنعت من الجبن السويسرى ووجهه من البساطة إلى حد أنه لا يبين سنه هل هو خمس وثلاثون سنة

أو خمس وستون ، بينما لا تتجاوز سيمين برزكر الخامسة والعشرين وصنعت من اللبن والعسل السبلانى وفوقهماجميع إنتاج مصانع كريستيان ديور . وحين تعود بقية المجموعة وأسألهم ماذا حدث حتى تأخروا بهذا الشكل يقول صفوى مازحا « ذهب السيد بارسى ليعترف لكن سيادة القسيس انفجرت مرارته وأغمى عليه » .

خارج ميدان بوابة بهبهان وأمام المسجد لكن وقت العصر يؤتى بجثث بضعة شهداء وقد وقف ما يقرب من عشرين ألف معزّ على أهبة التحرك . غطيت الجثث داخل توابيتها الصغيرة بالسجاجيد والحرير المشجر وزهور الشقائق الحمراء يدق الأطفال أمام صفوف المعزين صدورهم ويهتفون « الموت لصدام . الموت لأمريكا الموت لإسرائيل ، الموت لروسيا » . وخلفهم عدد من الأخوات التابعات لحزب الله بعباءاتهن السوداء والرشاشات (ج – ٣) وقفن مستعدات للعرض . ثم وقفت بعد هن النعوش ثم الرجال فى صفوف مختلفة ومن كل نوع مسلحين وغير مسلحين ويتبعون جميعا رجلا يمسك بمكبر صوت ويهتفون وراءه وخلف أولئك جميعا تبكى مجموعة فى سكون . ويدفعنى بكاؤهم إلى البكاء وخارج المدينة ، يقف بنا السائق آسيد رضا ، أمام حديقة ملك أحد أقاربه لكى نستريح عند تناول الشاى . الحديقة ساكنة صامتة وجافة . وفى أحد أركانها توجد غرفتان كأنهما بنيا منذ مائة عام ثم توقف الزمان عليها . لكن « ولى الله خان » رجل طيب أتى لنا بالشاى والبلح . وأرى فى طرف الحديقة قفصا يحجز وراءه بنتا فى الثالثة أو الرابعة عشر من عمرها وتحجز فيها يبدو لخطرها ، وحين نمر بجوار القفص تخمش البنت

بمخالبها نحوى وينفتح فمها على شكل مستطيل ويخرج من حنجرتها صرخة كصرخة الممسوخ .

يظل الجو صحوا فى الأيام الثلاثة التالية مع أن المطر يسقط بالليل لكن سماء باريس زرقاء نهارا يتفرق فى أعماقها البعيدة السحب البيضاء فيبدو منظر المدينة بديعا .

وأذهب إلى منزل كريم بور ذات ليلة مع بارسى وأهل بيته ومنزله ملاصق لمدرسة يدرس فيها وكريمبور اشتراكى متطرف وشاعر مجيد ودمث الخلق وحيى . . وشيوعيته الإيرانية جعلته طبعا قليل الكلام غامضا يلحق بمدرسته أولاد المشردين الإيرانيين مجانا أيضا .

وأعجب به . وإحدى الليالى الكثيرة الإملال أذهب الى منزل بارسى نفسه ونتفرج على أفلام بارسى التسجيلية وشرائحه الفنية عن السويقات والمبانى المخربة والأطلال ولايلين جفاف الليل غير وجود سيمين برزكر . وتظل حالة ثريا بلاتغير وأقضى الليلة السابقة لنهاية العام وحيدا فى الفندق أقرأ وأنتظر تليفونا من فرنجيس إذ تتصل بى كل ثلاث ليال .

ومع أنى تناولت كبسولاتى بانتظام أشعر الليلة من الغروب بصداع ثقيل ودوخة كبيرة لم يحدث مثيلهما لى خلال شهر وكسر قضيتهما هنا، بل إنه فاق صداع تلك الليلة وأنا سائر بشارع سان ميشيل على ناصيته شارع دزكول . ويتجمع شعورى بالهدوء مع إحساسى بتثاقل عجيب فى آن واحد تحت جبهتى وبقفاى . أقول أذهب إلى المستشفى ليكشف على الدكتور، لكنى لا أقوى على الكشف والفحص والتمريض أقول أتصل

ببارسى وأذهب إليهم ، لكن تحمل نادر بارسى وزوجته يتطلب صبر أيوب . كنت أتمنى أن تكون ليلى بالمدينة ! وحين تدق فرنجيس جرس التليفون كنت تقريبا غائبا عن الوعى وأن كان حديثى معها أحيا معنويتى قليلا .

وفى تلك الليلة فى لحظة ما خطر على بالى فكرة فى الواقع ظريفة . قلت أجلس وأكتب وصيتى : وأمسكت ورقة وأخذت أكتب ، ماذا يفعلون إذا فارقتنى الحياة ليلة وأنا فى فندق بالما . لكنى أترك هذا العبث . فإذا لم أكتب وصيتى مثلا فماذا يفعلون ؟ نفس الأمر الذى أفعله أنا – أروح فى داهية . يسلمون جثتى إلى قسم الشرطة المختص ببلدية حى سان سولبيس وأتذكر كلام ليلى آزاده إذ قالت إن صادق هدايت من ثلاثين سنة مات فى نفس هذه المناطق داخل غرفة . إذ يفتح الغاز فى غرفة ضيقة ويتمدد وسط حمأة دم حياته فينتظر جفاف الموت . لكنه يا بابا كان رجلا يحسب له وأنا من أكون ؟ وماذا يفعلون بى ؟ إن البلدية لاتكاد تعرفنى . سوف يرسلون من بلدية سان سوبيلس إلى المحكمة وإدارة الهجرة تقريرهم ثم يخبرون سفارة الجمهورية الإسلامية الإيرانية فى باريس فيأتى الأخوة ويهتمون بالأمر ويخطرون طهران . لا ! إن فرنجيس لا تطيق هذه المصيبة .. وماذا يحدث لثريا ؟ لا ! أيها المجنون أترك هذه الأفكار ..

وأتخلى عن فكرة كتابة وصيتى والموت على عجل . لن أموت الليلة . أقول لنفسى لوساءت حالتى أذهب إلى المستشفى . جئت هنا لأقدم المساعدة ، ولم آت لكى أفقد حياتى بلا موت بلا قرف !

وأقوم وأتناول مجموعة إضافية من كل الكبسولات وليس هذا علاجا ناجعا ، أعلم . وأغمض عينى وأحاول أن أسافر إلى عالم أحلامى الشديدة الخصوصية . الأمر هين حين كنت صغيرا . أعود بسفينة الحياة فى نفس الزمان وأصطحب آنابل أيضا إلى داخل السفينة . نأتى ليلة رأينا فيها شخصينا فى ضيافة . ثم نتمشى على الشاطىء شاطىء قريب إلى فيشر منزوارف . الشاطئ منير ثم ليلة أخرى ، ومكان آخر . أريد أن تمارسى الحب معى . لا يبعد البحر عن النافذة . المنزل ساكن والدنيا هادئة .ثم تختفى سفينة الخيال فجأة ، وتختفى آنابل ولا يعود المنزل ساكنا ولا الدنيا هادئة . لا يظهر غير سفينة معارك المجانين فى نفق الموت . نهبط بقارب قديم له موتور من تشوييده على شاطىء نهر بهمنشير . أنا وفشاركى هذا وبعض المخلوقات الأخرى من عبدان . تتمارج مياه بهمنشير السوداء ونصل إلى الأغوار بأسفل فارس من الناحية الغربية للجزيرة . ويترنح القارب الخشبى تحت وطاة عفش منزل فشاركى الذى حمله من بوارده . ويقترب منا قارب أصغر آخر يحمل أربع بقرات من تشوييده . ويحجزونا فى المرسى وسط الأغوار علينا أن ننتظر . إنه الجزر . وننتظر وننتظر ثم ترتفع الشمس المنيرة من خليج فارسى من أقصى سواحل العراق . وترتفع الطائرات العمودية القاذفة الروسية لصدام حسين أيضا . تتجه هذه إلى الطرف الأعلى للجزيرة . وتزمجر فوق رؤوسنا أيضا طائرات الفانتوم الأمريكية لإيران . وترفع أبقار القارب الصغير رؤوسها من وسط العلف أمامها . وتنظر إلىّ إحداها . لا يزال العلف معلقا بجانب من فمها . وعلى أرض بعيدة ، تبرق الشمس الكبيرة الحمراء اللون لخليج فارس بأعلى قرنى البقرة . عيناها جميلتان

لكنهما حائرتان . وأتذكر جدى السندباد البحرى . كأن عينى البقرة تقوم لى لماذا لا تأكل . ليس لدينا ما نأكله . وضع البقر أفضل منا . أود العودة من قارب الكابوس إلى سفينة الخيال ، فى الظلمة ، على ساحل فيشرمنزوارف ليلة كريسماس ١٩٦٠ ، لا أستطيع ، الطريق مغلق . الخروج ممنوع . خلفى طريقان ضيقان يجذبانني إليهما . أحدهما إلى ذلك المستشفى الذى ماتت فيه فى تلك الليلة آنابل بعد وضع طفلها الميت والثانى إلى عبدان . هبوط اختيارى . القارب ذو الموتور وشاطىء نهر بهمنشير . ثم نهبط أعلى الجزيرة .

عبدان ، عبدان ! أذكر هذا اليوم بخير حين أتت ثريا وزوجها خسرو إيمان إلى عبدان عندى لقضاء شهر العسل . مطار عبدان الدولى . منزل منعزل فى بريم الغربية خلف نادى كلستان أتت ثريا وخسرو بعد يومين أو ثلاثة من زفافهما . أى زفاف وأى حدث ! على أية حال أتيا عبدان . كانت عبدان مدينة أخرى وفى زمان مختلف وفى دنيا مختلفة . أحبت ثريا شوارعها المشجرة والهادئة . وأعجب خسرو بشاطئها . كانا يسيران سيرا لا نهاية له . كنا نتناول عشاءنا فى نادى التجديف على الشاطىء الكبير . عصر الجمعة كانا يلفان حول جزيرة مينو بقارب الدكتور نوريسا ويعودان يلتقطان الصور . ثم يعودان سائرين حتى ميدان ألفى ويشتريان الكتب والمجلات من المطبوعات العالمية لحسن العربى . كانا ينامان بالليل فى إحدى غرف النوم المطلة على الحديقة . الشىء الذى أتذكره جيدا أنهما كانا سعيدين . كان المنزل ساكنا والدنيا هادئة .

كانت تلك سنة ١٣٥٦ هـ ش التى قتل بعدها فى الخريف خسرو أواخر شهر شهريور . وفى الربيع التالى أرسلت فرنجيس ثريا إلى باريس . المسكينة فرنجيس .

ويغدو دوار رأسى أخف وأهدا . أفكر فى فرنجيس وحدها وأنا مغمض العينين . المذياع مفتوح بجوار سريرى على الموجة القصيرة . تراكمت المحطات الأوروبية بعضها على الآخر . كأن المذياع له حياة منزلقة ومنفصلة على أرض بعيدة . فى محطة تغنى امرأة . كلماتها حول القيود قيود الروح فى هذه الدنيا . من أحصى قيود روح الأنسان ؟ متى تتخلص الروح من القيود ؟ فى البداية تغلّلنا بقيد رحم الأم لكى نتغذى من دمائها . ثم نأتى إلى الدنيا لنتغلل بقيد عجز الطفولة وضعفها . من الذى سوف يوقّفنى ؟ من الذى سوف يطعمنى ؟ والسنوات التى تتقيد فيها أقدامنا بقيود المدرسة سنوات قاسية . إذلال المدرس ، عقوبات التأديب ، قيود عذاب البلــوغ .. ثم يلى دور قيود الحب وتجارب الفشل الأكثر مرارة ، بما أننا الآن كبرنا . قيود العمل أشد القيود إيلاء وإحزانا . ثم قيد الزواج وهى سلاسل جديدة على الروح والجسد . قيود الأولاد قيود أبدية ، لأن الأولاد ورثة الحياة والروح . قيد الشيخوخة والكهولة والمرض ، آلام العضلات والذبول شيئا فشيئا والتوارى فى رماد العمر . لكن كل هذا لا يزال أول الهموم . الدنيا غير آمنة ، المستقبل مظلم .. والحياة غير مضمونة . لا أحد يعلم إلام نذهب . لا أحد يمتلك زمام اختياره .. لكن الانسان ضئيل على نحو ما .. بين كل هذه القيود . المتغلبة ..

تلك الليلة على أية حال لا يجب أن أنام متأخرا جدا ، لأن هذا أيضا من كرامات كبسولات الآدالات والجافرين آراكس والنيتورو لينجوال والكومادين .

ولا أتذكر أنى سمعت أخبار منتصف الليل .

•

— ٢٢ —

فى صباح يوم ٣١ ديسمبر تنتقل ثريا إلى قسم الرعاية المركزة الخاصة. حدود العاشرة صباحا حين اتجه إلى المستشفى تقودنى جورجيت لوبلان إلى الدكتور مارتن ويوضح لى الدكتور أن ثريا تعانى مشاكل فى التنفس وتحتاج إلى (تنظيم التنفس) وركبوا لها أيضا جهازا لإجراء الدياليز التدريجى لقسم من (مجاريها) الحيوية . فوق ذلك فحالتها (بالشكل المنطقى) حسنة ، لكنهم بأدب جَمّ لا يسمحون لى بأن أذهب لأراها .

وقرب الظهر حين أود الخروج من المستشفى ، تصل كريستيان شارنو أيضا وكانت عرفت بالأحوال لتوها . ولا أحب أن أطيل الوقوف والحديث معها اليوم لكنى تجبرنى بأن أنتظر حتى تذهب وتتحدث إلى مداموازيل

لوبلان (كلمة واحدة) وتأتى . الظاهر أن معرفتى بالفرنسية ليست محل رضاها . وحين تعود تقول (طيب ، كيف الأحوال) .

– (قولى أنت لى) .

– (كانت ثريا فى قسم الرعاية المركزة قبل الآن أيضا فى أوائل ..)

– (ولماذا نقلوها إليه الآن ؟)

– (لا أدرى . مشكلات . تعقيدات . لكن حالتها تتحسن)

– (أتمنى ذلك)

– (طيب ، وأنت كيف أحوالك ، وكيف أنت ؟)

– (لازلت حيا)

– (لا تتحدث هكذا . لم ينته العالم . قمت فى البضعة والأربعين يوما التى قضيتها هنا بأعمال كثيرة . لكن الإنسان لا يستطيع أن يتوقع أشياء كثيرة . لكن الأمور بلا شك يمكن أن تتحسن)

– (نعم ، ممكن)

– (حسنا ، بذلت أقصى ما فى وسعك ، وقمت بأفضل مساعيك)

وتعبر بالفعل الماضى بشكل يوحى بأن حالة ثريا أسوأ مما أظن . أظن أنها تعرف أمورا لا أفهمها .

فأقول (لكنك قلت إن حالتها تتحسن)

فرد كريستيان شارنو (أنا متفائلة دائما)

وأنظر فى عينيها الصغيرتين الزرقاوين اللتين تشبهان حبتى المسبحة ومع أن فيهما كل شيء شريف وودود دائما ، لكنى لا أعرف لماذا لا يجب الاطمئنان إليهما .

تتغير حالتها المرحة وثرثرتها الدائمة وتبدو أكثر جدية قليلا .

ونمشى حتى الكريدور ونهبط السلالم .

تقول (تعال الليلة إلى منزلنا ، لدينا حفلة صغيرة . أنت عارف أن الليلة بداية السنة الجديدة)

– (شاكرا جدا) وأقول كاذبا (عندى موعد)

– (.. أى موعد ؟)

– (ذاهب إلى محاضرة)

– (أوه .. أى محاضرة)

لا تكف عن السؤال

– (أحد الكتاب الإيرانيين أتى من لندن)

– (أوه .. كنت وثريا نذهب إلى كل هذه المحاضرات . وهذه المحاضرة أين تعقد ؟)

– (بمسرح بقاعة كلية بوزار فى السربون)

– (ومن هو الكاتب ؟)

– (عباس حكمت)

وتعيد كريستيان شارنو اسم عباس حكمت بصوت خفيض .

– (أليس هو الذى ألف رواية عن تمرد أحد الناس ؟)

– (أظنه هو)

– (ثريا كانت تقول إنها إحدى الروايات الجيدة التى ساعدت على قيام ثورة إيران)

– (بالضرورة) وأعجب بذكاء كريستيان شارنو وعلمها . المخ الفرنسى شغال .

– (وماذا يفعل الآن ؟)

– (من ؟)

– (مسيو حكمت ، لابد أنه الآن أحد قواد الثورة الثقافية ، أليس كذلك ؟)

– (ما أعرفه أن مسيو حكمت مقيم بلندن – يعنى من فترات وهو يعيش فى لندن)

– (لم يرجع بعد نجاح الثورة ؟)

– (رحل بعد نجاح الثورة ؟)

– (لماذا ؟)

– (لا أدرى ، لابد بسبب أن ليس عندنا بيرة)

وتضحك (هل يشرب البيرة)

– (سمعت)

– (حركوا الثورة ثم هربوا . يشعلون الفيوز ثم يصرخون من الاحتراق بعد اشتعال النار – أليس كذلك ؟)

– (لا .. لا يمكن التعميم)

– (طبعا لا .. لايمكن التعميم ، لكن رنين كلمة البيرة أضحكني)

لكنه لا يدعو إلى الضحك . لا شيء يدعو إلى الضحك من صباح اليوم . أحـــب أن أختلي إلى نفسي . فأقول (شيء شبيه بهذا)

– (طبعا لابد أنه لايملك شيئاً حول رسالة « الشهادة »)

– (رسالة الشهادة قضية هذا النظام – أليس كذلك ؟)

– (لا ، على حد علمي)

(Comme si , comme Ça كذلك)

ونخرج وقتذاك فوق سلم الحديقة . وتتثاقل ثانية رأسي ، لكن أصل معها حيث تنتظر سيارتها ، تقول :

– (هل تعرف أن ثريا نفسها تكتب الشعر ؟)

– (لا ، لا أعرف ، ثريا ترسم جيداً)

– (كانت ترسم رسماً ممتازاً .. لكنها كانت تكتب قليلاً جدا لكن بروعة .. حيناً كانت تترجم بعضاً من شعرها إلى)

– (لا ..... لم أكن على علم بهذا)

– (حين تأتينا هذه المرة أريك دفتراً لها وأشعاراً وبعض مذكراتها فيه)

– (مرسى)

وتنظر إلى إذ ذاك بدقة أكبر

(أنــت شاحب اللون فى نور الشمس وتبدو مريضاً قليلاً . حالتك طيبة ؟)

– (أكثر مرضاً بالليل)

تضحك وتقول (كن متفائلا . أنت عارف أن ثريا متفائلة دوماً . عانت جروحاً كثيرة لكنها إنسانة متفائلة دائماً . أحبت كثيراً شاعرة إيرانية لاأتذكر اسمها ، فروخ .. فرخه .. زاده ؟)

– (فروغ فر خزاد ؟)

– (نعـم نعـم ، نعـم . ترجمت ثريا لى شعراً لها . تذكره بهذا النحو (وتقول كريســتيان شارنو ترجمة هذا الشعر) أغرس يدى فى الروضة / سوف أخضر / والعصافير مكان فصوص خواتمى الذهبية / سوف تضع بيضها)

ووصلنا إذ ذاك إلى سيارتها وتسألنى (أليس هذا مما يدعو إلى الأمل؟)

– (لا أعلم)

–(إنه يبعث على الأمل تماماً)

وأنظر إلى عينيها

تقول (كانت ثريا حساسة جدا إزاء الرموز (الغرس) و(الاخضرار) و (وضع البيض) كل رموز فنية جادة)

وأهرش رأسي ، لايبدو كلامها سيئا .

أقول (طيب ، أستودعك الله)

– (هل أنت واثق أنك لن تستطيع أن تزورنا ؟)

– (نعم ، ومتأسف)

– (يمكن أن تأتي متأخراً . أريك دفتر أشعار ثريا)

– (سوف آتي خلال الأسبوع)

– (.. مثل هذه الضيافات تبدأ من الثانية عشرة منتصف الليل . ليتك تستطيع المجيء . أحب أن تقرأ لي أشعارها وتترجمها لي)

تخرج شفتيها بشكل قبلة خيالية . لعينيها الصغيرتين كحبتي المنبحة ربما علامات طريفة .

أقول (أيضا ولابد أن أكتب الليلة أيضا بضع خطابات)

– (تعال بقدر استطاعتك)

– (مع السلامة)

– (إلى اللقاء)

وأتناول طعام الغداء في مطعم صغير وأتصفح أثناء شرب القهوة الصحف التي اشتريتها ثم أترك المطعم وأخرج . وأعود إلى الفندق حوالى الثانية وأشعر أن الآلام الأولى لنقل ثريا إلى قسم العناية المركزة كأنها خفت في . ووصلتني بضع خطابات أحدها من فورنجيس . ورسالة أيضا من ليلى آزاده . كلها يسلمها إلى سوموتجو ويقول إن مداموازيل أتت شخصياً

وكتبت رسالة ويضيف (كانت حلوة جداً جداً) . وأقرأ رسالتها فى الأسانسير . وبعد السلام تقول ولاغير أن محاضرة عباس حكمت سوف تنعقد الثامنة مساء وتريد أن أذهب إليها بالضرورة لأعلم - لابد أنها أضافت أيضاً من باب الدعاية أن (رجال الحكومة) أدانوا الآن هذا التجمع الذى يتسم بجانب سياسى !

أعطى رقم تليفون فرنجيس إلى سوموبخو فى مكتب الفندق وأريد أن يوصلونى بها . وأنتظر مدة وأخط رسالتين إحداهما لفرنجيس وأخرى رداً على خطاب صديق أرسله لى من شؤون المستخدمين بشركة النفط . كنت طلبت منه قبل ذلك أن يمدوا إجازتى بدون مرتب فأجاب اليوم بأن طلبىقبلوه بارتياح بعد أن تم الاستغناء عما يقرب عن سبعة عشر ألفاً من الموظفين الرسميين فى صناعة النفط فى عبدان حالياً ، ثم يتمنى لى فى النهاية أمنيات السلامة لى ولبنت أختى ويبدو أنهم احتفظوا فى ملفى الشخصى بنسخة من خطابه على أنه نصف رسمى . فأرد عليه وأؤكد له وصول رسالته وأرسل له شكرى . ولايظهر من أى خطاب شىء غير متوقع لأنى أولاً فى حالة عصبية إلى حد ما ثم أننى أتوقع مكالمة لاتصلنى مع أنى أعلم أن أختى تنتظر مكالمتى فى هذا الوقت . أرفع السماعة وأطلب من سوموبخو فى مكتب الفندق أن يتحقق من أنهم يبحثون فيما حدث لمكالمة طهران . فيرد أن الليلة ليلة رأس السنة الجديدة والمكالمات الدولية متراكمة . وبناء على هذا أشعل سيجارة أخرى وأنتظر . وفى النهاية بعد عشر دقائق يتصل التليفون بمنزل فرنجيس وأفصل لها حالة ثريا فى ذاك اليوم . وتقلق فرنجيس كثيرا وأظنها أنها أخذت تبكى . وأشجعها بأن الحالة ليست بهذا

القدر من السوء ، وكانوا نقلوا قبل ذلك فى البداية ثريا إلى قسم الرعاية المركزة . وأعتقد أن اضطراب فرنجيس هبط إلى حد مابعد مدة ، خاصة حين أسألها عن أخبار إيران وأوضاعها . فتقول إن أعداد القتلى والشهداء وتشييع الجنازات يتم فى الشوارع يومياً عشرة عشرة وعشرين عشرين وثلاثين ثلاثين وتظهر أيضاً فى التليفزيون . تقول إن الألم ليس يخصنا وحدنا وليس يخص أسرة واحدة . الألم عام شامل . أعدها أن أتصل بها بانتظام كما هى العادة إلا إذا ظهرت أخبار جديدة فأتصل بها فوراً وتطلب فرنجيس منى أن أهتم بنفسى وتطمئن على أحوالى فأقول أنا عن نفسى بخير وأترك السماعة بعد وداعها .

وقت الغروب وأنا أحلق ذقنى لكي أخرج إلى العشاء حين يدق التليفون ثانية وحين أرفع السماعة فإذا به صوت سوموبجو يقول (مسيو آريان . كلم مستشفى ڤال دوجراس)

ويسقط قلبى فزعا

– (حسن جدا ، أوصلنى به من فضلك)

– (كلم دكتور مونيه)

ويأتى الصوت (مسيو آريان ؟)

– (نعم ، أنا مسيو آريان)

فيقول الصوت (أنا الدكتور مونيه من ڤال دوجراس ، فيما يخص مداموازيل ثريا)

– (نعم ؟ نعم ؟)

– (أنا مساعد الدكتور مارتن ، هل يمكن أن تأتى المستشفى لبضع دقائق للتوقيع على استمارة) فأقول فى قلبى ياحضرة الماكروبونيفرس !

(نعم ، بكل تأكيد ، أى استمارة يا دكتور ؟)

(ظهرت حاجة ملحة لأن نجرى عملية الكتروترابى بسيطة لقلب ثريا . ولابد من موافقتك)

– (بالتأكيد أنا قادم الآن)

– (متشكر جدا)

– (هل حدث شيء يا دكتور)

– (لا يا سيدى ، فى الحقيقة لا ، إجراء بسيط طبى)

– (سوف أصل لكم خلال أقل من خمس دقائق)

– (مرسى ، مسيو)

وأرتدى بالطو المطر وأصل إلى المستشفى بالتاكسى . الدكتور مونيه مساعد الدكتور مارتن رجل فى مقتبل العمر شديد البياض نحيف القوام ، لكن وجهه ورأسه بارزان إلى حد ما وشعره مدهون وشعره بأطراف رأسه مصفف فخيم وظهر فرق أبيض عريض فى أحد جوانب رأسه . جلس فى مكتب الدكتور مارتن وحين أدخل أراه يتحدث مع لوبلان وممرضتين أخريين وطبيبة أخرى بحال هادئة ووادعة . لا أرى فيهم حالة قلق وينهض الدكتور مونيه ويصافحنى ويرحب بى ويضحك ويتفقدنى باقى الحضور بل إنهم يقدمون لى كأسا من البوردو فأعتذر لهم .

اتضــــح أن الموضـوع بهـذا الشكل وهو أنه يلزمهم عـملية الكتروترابى للقلب تلك الليــلة . ويطلبـون الموافقة على العملية أو فى الحقيقة على كشف treatment الالكتروترابى للضرورة يشرحون هذا لى . هذه العملية العــلاجــيــة الخــاصــة تجـرى لتــحــريك القلب المعــتــدل عن طريق الالكتروسيستوليك ويطلبون اسـتمارة الموافقـة للظروف التى ربمـا تحدث ضرورة لها فى أى وقت من الليل أو فى منتصفه ، لكى تكون بالملف .

وأسأل (متى يعود الدكتور مارتن)

فتقول جورجيت لوبلان ضاحكة (أخذ الدكتور مارتن إجازة لبضعة أيام)

– (فهمت)

– (سنة جديدة سعيدة مسيو آريان ، لابد أن تشرب كأسا من البوردو)

– (اعفونى حقيقة ، شكرا لكم)

– (كما تحب)

– (سنة سـعـيـدة جـديدة) وأقـول فى نفـسى رحم الله أجـدادكم وأسلافكم .

حين أغادر المستشفى تكون الساعة اقتربت من السادسة والربع . وأرى فى الخارج قاسم يزدانى فى المستشفى الزائر الوفى لثريا وولدا وبنتا آخرين وهم فى قلق على ثريا ، وأتحدث معهم لبضع دقائق وأشرح لهم باختصار حالتها فى هذا اليوم . فينتاب الجميع خاصة قاسم يزدانى الحزن . وأودعهم بعد عدة دقائق . عقرب حالتى العصبية الذى يعلو ويهبط منذ

الصباح مثل (اليويو) لايزال يثب ويقفز . لا أفكر بالذهاب إلى مسرح بوزار لحضـــور محاضرة عباس حكمت ولا حتى رؤية ليلى . يعرض الفيلم السينمائى لقصة كلاب الحرب . فأذهب وأقضى ساعتين . موضوعه الذى أحسن عرضه الكتاب ظهر على شاشة السينماعلى شكل أكروبات جاسوسية دولية وسياسية . الاستفادة الغربية وتهريب الأسلحة والضرب بالرشاشات والتفجيرات والقصف والقذف خارجا برؤساء الجمهوريات للبلاد الصغيرة مثل عقب السيجارة خارج النافذة . ويبدو السير جيمس مانسون نفسه فى الفيلم أكثر وضوحا عن شخصيته فى الكتاب . والجدير بالذكر أن كلاب حرب التاجر الإنجليزى نجحوا فى طرد رئيس حكومة الزنزبار عن بلاده وتثبيت رئيس للدولة عميل لهم .

أتنـــاول فى مطعم صينى على العشاء خليط الأرز المحمر والشاى الأخضر . وحين أضـــع رأسى وسط الطبق تكون حالتى أشبه بحالة جدى هوليوود ذلك فى تلك النكتة القديمة الذى يلتهم شريط فيلم ملقى به فى مقلب قمامة خلف أحد الاســـتوديوهات وكان يقول لنفسه فى همس (كتابه كان أفضل) . وأعود إلى الفندق ولم ينقضِ وقت طويل من الليل .

– ٢٣ –

لكن تلك الليلة لاتمضى بنفس هذه البساطة . فأدخل الغرفة ثانية حين يدق جرس التليفون ثانية هذه المرة ليلى آزادة بنفسها . تتصل بى من مكان صاخب بالموسيقى كما أسمع من التليفون . يموج صوت موسيقى الجاز من خلال السماعة .

– (سلام يا جلال)

– (سلام . تتصلين بن لتفرحينى ؟)

– (نعم ، أتصل بك لأ فرحك)

– (إذن افعلى)

– (كان قلبى منزعجا عليك)

– (هل تعرف من أين أكلمك)

– (صوت الموسيقى الصاخبة يصل منه)

– (المشهد : مقهى دولاسانكسيون)

– (حب ومتعة ؟)

– (لم لا تأتى ؟)

– (لا)

– (كنت عارفة أنى سأجدك عندك . كنت أعلم أنك سوف تأتى إلى المستشفى بأول الليل من أى مكان كنت فيه من أجل مكالمة أختك)

– (أتيت)

– (يمكننى أن أحاسبك)

– (يمكنك أن تفعلى أشياء كثيرة)

– (نعم ، بإمكانى . تعال الآن لأنى أريد أن أراك ، وإلا أتيت أنا بنفسى)

– (ماشى)

– (هل تحب أن آتى إليك ؟)

– (تعرفين الرد)

– (تعال إلى متى أتحايل عليك ؟)

– (كيف كانت المحاضرة ؟)

– (ممتازة . حضر ألف مشاهد . كانت جادة جدا . مستنيرة ، كما يقال لكن غَيِّر الموضوع . تعال إلى هنا . الليلة ليلة رأس السنة كلهم حاضرون . الشمع والورد والفراشة والبلبل)

- (كذلك سماع صوتك أفضل)
- (لا ينقصك غير هُدْبة درخونكاه التي يتفاءلون بمسكها ليلة العيد)
- (هل ستأتي أم آتي أنا ؟)
- (ماشي) .

وحينما أصل يتضح أن ليلى آزاده كانت تريد وحسب أن تكتمل مجموعتها . صدقت كان الجميع حاضرين . يبدو أن بعد محاضرة عباس حكمت شدت النواة المركزية لهذه المجموعة من أصحاب القلوب رحالها من صالة المسرح المدرج لبوزار إلى دولاسانكسيون . الليلة أغلب الحلقة الموجودة في المقهى أدباء وأهل علم ، و بالإضافة إليهم بضعة من المتطفلين فعلاوة على شخصية عباس حكمت حضرت ليلىَ آزادة ، وأختها الشابة الحسناء برى ونادر بارسي الأستاذ المعزز وبيجن كريم بور وأحمد صفوى والدكتور أحمد رضاكوهسار وبهمن قراجوزلو والدكتور خطيبي والدكتور سياست والدكتور أردكان والدكتور مجيدى وأحمد قندى وبضعة آخرون . الليلة - وبينهم الشخصية التليفزيونية حسين آب باك ومنتج الأفلام المشهور دار يوش فرهاد - حضر أغلبهم بزوجاتهم أو رفيقاتهم . حضر أيضا أحد الفرنسيين وهو جـــان إدمون الذى يعرف الفارسية ، وتبين بعد أنه كان الملحق الثقافي في سفارة فرنسا في طهران ويعد الآن كتابا يحوى ترجمة للقصص القصيرة الإيرانية لكتاب نصف القرن الأخير . لكنه من ناحية الشكل والمنظر يشبه الفايكنج أكثر من الأدباء الفرنسيين . قامته طويلة وفي حمرة الدكتور قاسم خطيبي وبياضه وزرقة عينيه ، إلا أن قشرة

جمجة خطيبى مفروشة بجلد مشكل اللون لامع أما شعر جان إدمون فأحمر ومجعد ويغطى جزء منه جبهته .

احتلوا ناحية منفصلة من المقهى الكبير . وفوق منضدة طويلة لابد أنها تختص بالضيوف ما تشتهى من صنوف الطعام والشراب ومعها زهور ليلة رأس السنة وزيناتها . عديد من زجاجات البوردو والبورجاندى وزجاجتا برنو وبضع زجاجات (جونى ووكر) وزجاجة كوروازيه وزجاجة رمى مارتن وزجاجات الشمبانيا والبيرة إلى حد الوفرة .

ومن أصناف اللحوم الباردة والساخنة — والطيور والسمك والمأكولات الساحلية وأنواع الجبن المختلفة . وليلى آزاده فى غاية السعادة . تتحدث حينا وتضحك وتلمع . لكن من المعروف أن نجم الليلة الساطع هو عباس حكمت . رأيته قبل هذا مرة أو اثنتين ، لكن وجهه ولحيته وشاربه الفرويدى لم يتغير شكلهم عن صورته التى كان تطبع فوق أغلفة سائر مؤلفاته قبل الثورة . وحينما أدخل أجد كل الرؤوس فى انشغال حار وأجلس فى مكان بآخر المنضدة البالغة الطول بين صفوى وأحمد قندى ومعه مذياعه المذكور وتقبل ليلى لتحيينى وتستقبلنى لثوان عديدة وتغمز إلى بطرفها قائلة (جسم الإنسان شريف) إشارة منها إلى الطرفة المنتشرة فى حفلهم عن أحمد قندى الجالس بجوارى ، والتى قالها عباس حكمت متأثرا ببيت لشاعر عذب البيان .

هل جسم الإنسان شريف بروح البشرية ؟

لا ! إن نفس هذا اللباس الجميل علامة البشرية

ويأخذ عباس حكمت والأستاذ كوهسار ويبدو أنهما صديقان قديمان ورفيقا الحمـــام والروضة فى تلك اللحظة فى التحاور بلغة أهل الكار بصوت مرتفع . جان إدمون ونادر بارسى انشغلا على طرف المنضدة فى نقاش وبحث وأنا لاأفهم فى البداية موضوع الحديث . يرتدى عباس حكمت بذلة أسبورا منقوشة بمربعات صغيرة بيضاء وسوداء ومشكلة ، وقميصاً ليمونياً جميلاً ورباطة عنق ومنديلاً وجيبا اسكتلنديا يغوص داخل جيب الصدارى المخملى الأسود . أما ظاهر صداريه على بطنه البارز فمنتفخ أطار زرارا فخرج منه جزء من القميص الليمونى بل وجزء من عراقته . أسنانه بلون القهوة وتمتلىء بالثفالة ومعوجة مقووسة . أغلب رموشه طارت وبقى مكانها قراع . لاتزال بشرة وجهه بيضاء بلاغضون وتلمع بالكريم واللوسيون الغض الجديد يقول للدكتور كوهسار بلغة أهل الكار .

– (ازحمزد –به زه بازارسى زى به زه جوزو !)

– (زى به زه جزم ؟)

– (به زه جوزو يازاروزرنه زه ميزى دزه .)

– (خوزو دزت به زه جوزو !)

– (به زه جوزو بازا روزر خوزوش كه زه له زه از مازانه زه من زى ده زه)

– (خوزو دزت به زه جوزو !)

يضحك الجميع المتحلقون على المنضدة تقريباً مقهقهين الا جان إدمـون الذى لايفهم بلا ريب لغة أهل الكار ونادر بارسى الذى لعله لايسمع بسبب غيظه أو أنه لايسمع أصلا لجلوسه بآخر المنضدة .

ويسألني صفوى (لم تحضر المحاضرة ؟)

– (لا)

– (كنت بالمستشفى ؟)

– (ذهبت مرة أخرى وقت الغروب)

– (كيف حالها ؟)

– (ليس طيبا ، نقلوها إلى قسم الرعاية المركزة)

– (آه ، آسف)

و أشعل سيجارة جديدة . جلست ليلى بجوار حكمت لكنها تسمع حوارنا وتسألني من الجانب الآخر للمنضدة (كيف حدث ، نقلوها إلى قسم الرعاية المركزة ؟)

– (حالة قلبها وتنفسها سيئة)

– (آه !)

ويرتفع صوت بارسى الآن وهو يتحدث مع جان إدمون .

فأسأل صفوى (ماالموضوع؟)

فيضحك صفوى (مسيو جان إدمون يطبع مختارات من القصص القصيرة لإيران المعاصرة)

– (وليس فيها شيء عن بارسى)

– (لا – وهذه الضجة والزعيق من أجل هذا . يقول بارسى هذا وصمة عار في ذيل تاريخ أدب نثر إيران المعاصر فى نظر العالمين ولايمكن أن يتغافله أحد قط) .

– مارأيك ؟ أنت تعرف نادر جيداً ؟)

فأقول ببساطة (ألا يمكن أن يعتقه ؟)

– (يعنى يترك ذيل النثر المعاصر موصوما بالعار ؟)

– (يمكنهم إضافة عمل لبارسى داخل مختارات المسيو)

فتقول زوجة بارسى التى تجلس بعيداً جداً عنه (يمكنهم بعد ذلك أن يرسلوا ذيل النثر للغسيل بالبخار) .

فيقول صفوى (معك الحق يا هانم ، إلا إذا كانت من البقع التى لاتزول بالغسيل الجاف !)

فيقول الدكتور أردكان الجالس بالقرب منا (من فضلكم إرفعوا أيديكم عن الأدب المعاصر لأن الموضع تطور إلى نبرة OVERTONE جنسية)

فيضحك فى هذه المرة الجالسون على هذا الجانب من المنضدة ضحكا شديدا ويمضى الوضع تقريبا على نفس المنوال طوال الساعة التى قضيتها هناك . وتظل ليلى آزاده بجانب حكمت وتنظر إلى حينا لكن أغلب نظراتها منصبة على جان إدمو ن . ويقف الدكتور أردكان ويراقص زوجته . ويذهب بهمن قرا جوزلو يضع كاسيتا . ويرقص دار يوش فرهاد مع برى آزاده أخت ليلى . أنهما متحابان أو متحابان هذه الليلة . ويرى الدكتور خطيبى رأس بارسى بعيدا فينهض ويراقص سيمين التى ترتنع برأس عن الدكتور خطيبى المبطط المستدير ، وقميصها المفتوح من الأمام. الليلة أكثر كرما وسخاء عما مضى . ويعب حسين آب باك الجالس فى زاوية من المنضدة بجوار أحمد قندى كأس بيرته السبعين ويصف لى عباس حكمت .حسين آب باك فيما

يبدو مفتون بعباس حكمت بإخلاص قلب لامائة قلب . يصف قصص حكمت في الكتاب الأول لقصصه القصيرة بأنها في الواقع (أصيلة وأساسية)وفيها ميول إلى هدايت نفسه . تأثر في هذه القصص بهدايت نفسه . المرحوم هدايت بنفسه قرأها في البداية وقدم لها . وحكمت ألفها بـ (التزام) وكان هدايت هو الغول بالنسبة للجميع ثم آل أحمد ثم حكمت كتاباته دارت حول آلام الشعب وعن انسحاق الطبقات الدنيا . عن فقر الناس . عن قذارات المجتمع . عن انغلاق عيون الناس وأسماعهم . عن جهل الطبقات الشعبية وسوء حظها .

ونثر حكمت سلس بلون المرآة . بلا أوشاب وأكدار . ليس له مانع ورادع . لايبقى لدى من يقرأ (شمع شبستان) شبهة واحدة عن التزام حكمت في تشريح آلام المحرومين والتنبيه إليهم وشقاء بلده . وحكمت ابن فارس . درس في طهران عمل في أوائل شبابه في السفارة الإنجليزيه . ثم انتقل إلى شركة النفط . عمل فيها عشرين سنة . ثم أصبح حكمت رئيساً لمكتب أمير عباس هويدا لما كان وقتها أحد أعضاء مجلس إدارة شركة النفط . زار حكمت موسكو ولندن ونيويورك بصفتة كاتبا معاصرا ومكث فيها بضع سنوات . كان كاتبا مقيما .

كان قد درّس في جامعة لندن لدورتين . كان عباس حكمت كافل أمر الأدب الفارسي في العالم الحر . وماتت زوجته العام الماضي .

ولعل الحكومة البريطانية الآن عهدت إليه بمهام من قبل فأصبح يعمل ضمن قسم تابع لوزارة الخارجية أو ربما أيضا في الـ (بي بي سي) .

عمل مستشارا أدبيا ولغويا فى جامعة لندن . حكمت مهم ومتصف بالأصالة . أموره ماشية فى أوربا أو على الأقل هكذا يعتقد حسين آب باك .

– (هل تعلم أنه يتمتع بطبع مرح وظريف ؟)

– (لا ، لا أعرف)

– (أوه ، مرح وظريف كان قد كتب نقدا منذ سنوات على المسرحية القصيرة (عصا التى ألفها بارسى التى تعد نموذج المسرح الحديث والمدرسة الرمزية عند بارسى تحت عنوان (معلومات السيد نادر بارسى !)

– (لا !)

– (صدقنى) ومنذ عامين أوكل له محاضرة (كأستاذ زائر) فى مكتبة « الدراسات الإفريقية والآسيوية » بجامعة لندن . إذا حكى هو بنفسه هذه النكتة بطن الإنسان تؤلمه من الضحك . ملأ مرة استمارة بيانات للجامعة فكتب أمام خانة (الدين) (هرهرى) أى دينه : ملحد بلا دين . وفى نهاية العام حين يصدر الكتاب السنوى للكلية وبه إحصاء عن الأساتذة الزائرين والأجانب ورد فيه : عدد كذا من المسيحيين وعدد كذا مسلمين ، ومثلهم بوذيين ، وكذا يهود ، وكذا .. وواحد (هرهرى) أو ملحد . حين يحكى هذا بنفسه يموت الإنسان من الضحك) .

وينقر عباس حكمت على المنضدة قائلا (يا أولاد ، انتبهوا)

وتقول ليلى (انتبهوا يا أولاد انتبهوا !)

ويعلن حكمت (شغلتكم من أول الليل ..)

– (لا .. تحت أمرك)

– (اسمعوا – أريد الآن أرقصكم قليلا)

– (جميل جدا !)

– (أرقصكم ! !)

– (ربنا يسعد ك)

ويقول حكمت (كان هناك درويش مجذوب والذى يروى الأستاذ بورداود شعرا عنه . هذا الشعر لسان حالنا جميعا الليلة . شعره راقص وإيقاعى . سوف أنشده وعليكم أن تنقروا بأصابعكم بإيقاع أو تدقوا بأقدامكم بتراقص) .

ويبدى الجميع فجأة انتباهه وسعادته .

وتقول ليلى (الجميع مستعد !)

فيقول حكمت (الجميع عليه أن يكرر معى هذا الترجيع : هو حق مدد ، نظرة يامولانا . ويكرر (مستعدون ؟)

– (نعم ، نحن مستعدون)

– (الجميع مستعد)

– (هو حق مدد ، نظرة يامولانا . هيا . هو حق مدد ، نظرة يا مولانا)

فيصيح الجميع مرة أخرى (هو حق مدد ، نظرة يامولانا)

ويبدأ برتم إيقاعى عباس حكمت الذى يشبه صوته ولهجته الفتوات والدراويش :

(مما نحن هكذا مساكين ؟

عاجزون مغمومون ؟

هل تشردنا من ديارنا ؟

لم ير أحد مثلنا فى التشرد !

ويبسط يده ويصيح الجميع :

هو حق مدد ، نظرة يامولانا

هو حق مدد ، نظرة يامولانا

ويرفع حكمت يده :

انظر إلى إيران قد خربت

انظر حب الوطن صار خرافة

شعبها جن فى كل مكان جنونه

يهلك هكذا الإنسان

هو حق مدد ، نظرة يامولانا

هو حق مدد ، نظرة يا مولانا

من الآن فصاعدا نطلب طريق الرجال

ولآلام الوطن نبحث عن العلاج

ونقول إيران إيران إيران

في ورد الليل والنهار والسحر

هو حق مدد ، نظرة يا مولانا

هو حق مدد ، نظرة يا مولانا

ويرفع أحمد قندى بجوارى صوت مذياعه قليلا والذى بدأ يذيع أخبار إيران فى نشرة نصف الليل ويقربه إلى أذنه ولايبتعد كثيرا عن أذنى أيضا . يبدو أنه قلق حول أخبار إيران وموضوع الرهائن الأمريكيين . بما أن كارتر منع دخول الإيرانيين أمريكا .

وأحمد قندى ينتظر بكارته الأخضر وقلبه المشتاق الوصول إلى أمواله بأمريكا . وأثناء قراءة عباس حكمت الشعر يأتى صوت وقائع إيران على الموجة القصيرة التى طولها ٣١ مترا بذبذبة مقدارها (٩٠٠٢٢) كيلو هرتز من صوت الجمهورية الإسلامية من قلب إيران ويفترق عما يجرى بمقهى دولا سانكسيون فرق السماء من الأرض حتى أن اللحن المميز للأخبار الذى يسمع الآن من وسط شعر حكمت يصد موسيقى حكمت وإيقاعه وجلبة محبته لإيران .

وحد هو وحد هو وحد هو وحده

وحد هو وحد هو وحد هو وحده

لا شريك لاشريك لاشريك له

لا شريك لاشريك لاشريك له

أنجــزه أنجــزه أنجــزه وعـده
أنجــزه أنجــزه أنجــزه وعـده
نصـــر نصـــر نصـــر عبـده
نصـــر نصـــر نصـــر عبـده
أنجـزه وعده ونصر عبده ..

يعلن فى البداية فى موجز أهم الأخبار البيان الثالث بعد المائة لجيش الجمهورية الإسلامية الإيرانية المذاع الليلة أن جنود الإسلام وهم يرفعون علم الجمهورية الإسلامية الإيرانية ذا اللون الدموى بهمة ، من وضعوا أرواحهم على كفوفهم وهم الحرس والمتطوعون والفدائيون بجيش جمهورية إيران الإسلامية وأبطال شرطة الجمهورية الإسلامية الإيرانية والطيارون الخاطفون فى سلاح القوات الجوية لجمهورية إيران الإسلامية والفدائيون والعشائر الغيورة والعاديون من أمة الاسلام أنزلوا ضربات قاصمة على جيش الكفار البعثيين المعتدين .. أظهر العدو العاجز والنجس حين رأى نفسه عاجزاً عن صد الأمة المسلمة وهزيمتها دناءته وعجزه بقصف المناطق السكنية فى دزفول والأهواز وكوت عبد الله والخويزة وبستان وعبدان وخونين شهر وقتل الآلاف من النساء والأطفال والأبرياء وتشريدهم .

ويقول حكمت :

آه آه لأننا بالخـــمـــر سكارى
أثر فــينا الأفــيــون والنوم والوهن

غفلنا عن أنفسنا فعجزنا لهذا
ولم يعد لدينا خبر عن أنفسنا
هو حق مدد ، نظرة يامولانا
هو حق مدد نظرة يا مولانا
ياقبلتنا ياإيران
نحن العبيد وأنت الإله الواحد
ملأ الآن حبك قلوبنا وأرواحنا
أنت روح القلب ونور البصر
هو حق مدد ، نظرة يامولانا
هو حق مدد ، نظرة يامولانا
من أجل الوطن نجاهد بأرواحنا
من يد الأجل نلبس خلعنا
ومن كأس الفناء نشرب السم
حتى يحلو فم الوطن بالسكر
هو حق مدد ، نظرة يامولانا
هو حق مدد ، نظرة يامولانا
انشر روحك هو هو هو هو
ناد على الدرويش هو هو هو هو

اصـــــرخ واســــحب فــــأســـا

هو حق مــــدد ، نظرة يا مــــولانا

هو حق مــــدد ، نظرة يامــــولانا

ويقـبَل حكمت كـالدراويش يده ويضـعـهـا على جـبـهـتـه ، ويهـديهـا للحاضـرين الموجـودين فـيـصـفق الجـمـيع . ويرفع حكـمت كـأسـه الطويلة المملوء بالبيرة ويشربهـا فى نخب صحتهم . على مقـهى الريفـيـيرا لقـوام السلطنة لم يفعل الأصحاب مثل هذه الجلبة والرقص .

علـــى أيـــة حال لا يتحدث عباس حكمت عن نفسه مثل بارسى وليس فى جمله كلمة فرنسية واحدة ولايعتبر الكتاب الايرانيين بلا قيمة كما يظن صفوى . لايزال بشكل عام يعمل فى شخصيته الطين الكائن بقعر الجداول بالحوارى الخلفية لبلاد محافظة فارس التى أتى منها ، خاصة حين لعبت برأسـه بيـرة الـ (باينت) . لاتظنه أنه الكاتب المقـيم بلندن وموظف بريطانيا العظمى . لاتزال لغته الفارسية على وتيرة واحدة وخالصة . يتحدث مثل خبّازى رفنسجان .

وأنهض حـوالى الحـادية عـشـرة والنصف واسـتـأذن . ولا آبه بحكمت المنشــغل بقص حـكاية منزل اشـتـراه لنفســه فى (كنجـزرود) ويريد بناء (مسـتـراح) إيرانى فيـهـا ويحاول جاهدا مع موظفى بلدية تشلس وساوث كـزينجـتـون للحصـول على إذن لبناء هذا المسـتـراح الإيرانى فى منزله . أنا مهـتم بأمر ليلى آزاده ، لكنهـا منصـرفة أكـثر إلى جان إدمون أكـثر منى أو حتى عباس حكمت . تتحدث معه وتضحك هذا ما أنتظره منها . هذا أيضا

من توقعاتى الكبيرة لليلة رأس السنة . يبدو أن حكمت سوف يبيت الليلة فى شقة ليلى آزاده . وسوف تذهب ليلى عند أختها برى لتنام عندها وهذا هو محضر الجلسة .

ولاتزال برى أخت ليلى بدورها تراقص داريوش فـرهاد . وبارسى هو الآخر لما رأى زوجته مبتعدة يلاعب أختها . زوجتا بارسي وصفوى الضخمتان تتحادثان في ناحية . لا أفهم فى أى شىء . لكنى لا أعتقد أنهما يتحادثان حول القومية فى العالم . بقية المهاجرين كل مشغول فى أمر يبدو أن خطبة حكمت الكبير وليلى واضحة الواضحات .

المفروض أن تسافر ليلى إلى لندن فى شهر فبراير . لا يزال الجميع جالسين مع الزجاجات والكؤوس وأطباق الطعام والأوردوفر والفاكهة والحلوى ، يتحدثون بلهفة ويسمعون بإقبال حين أقف ناهضا . وحين أخرج من الباب يأتى نادر بارسى من خلفى ويناديني ، فى الواقع يمسكنى وسط ضجيج جماعة ليلة رأس السنة من كاهلهى ويوقفنى .

– (إلى أين أنت ذاهب يا جلال بهذه السرعة ؟)

– (الفندق)

– (أنالم أتكلم معك ، لم تدع الضجة والضجيج أن أتحدث معك بكلمة) معربد فى سكره .

– (أنا ذاهب إلى الفندق)

– (لماذا بهذه العجلة ؟ سوف يبدأ فى الثانية عشرة الجلبة والزعيق

والقبلات والأحضان)

- (نعم)

ويضحك (إذن تعال)

- (أتى ميعاد نومى ، وحياتك)

- (من ابن الحرام هذا ؟)

- (ابن حرام من ؟)

- (جان إدمون ابن الحرام .. الذى تعلقت به ليلى ؟)

فى الواقع ذهبت ليلى أثناء ذلك وجان إدمون بحجة شراء سجائر إلى جوار أحد البارات . لكن بارسى لا يراهما بسبب إدارته ظهره لهما .

- (ومن أين لى أن أعرف ؟)

- (ألا تعرف بجد ؟)

- (كنت تتكلم معهم من أول الليل حتى الآن)

- (يتفاصح متغافلا .. الآن هل تريد آداب إيران مثل باقى الأشياء الأخرى لإيران وكيلا وصيا ؟ هل تعرف أخبارا بين ذلك وليلى؟)

- (لا - والله)

- (وحياتى؟)

– (لم أر ليلى منذ أسبوعين من الآن . والمسيو أيضا وقعت عينى الليلة حالا على جماله الفتان)

– (ألم تر كيف كانت تنظر إلى ابن الحرام ؟)

– (من ينظر إلى من ؟)

– (ليلى إلى ابن الحرام ذلك)

– (ليلى تنظر بمثل هذه النظرة إلى نصف سكان الكرة الأرضية)

– (لا)

– (وإذ ذاك تصعد هى وحكمت تقريبا سلالم المأذون)

– (هل قالت لك ليلى إنهما سوف يتزوجان ؟)

– (أنا ماشى يابابا ، مع السلامة)

وأقف فى ذهول .

– (لم تفعل شيئا حتى اليوم لحل مشكلة الفلوس ؟)

– (لا)

– (كم تحتاج الآن ؟)

– (حوالى مائة وأربعين أو خمسين ألف فرنك)

– (أنظر يا جلال أنا كلمت خالى)

– (عظيم)

– (يمكنـه أن يعطيك المبلغ . سعر تغيير التومان فى السوق الآن

الفرنك بأربعـــة تومانات واثنى عشر ريالا ، لكنه سوف يغير لك على أربعة تومانات)

– (ماشى)

– (تعال هذه الليلة نرجع الى منزلنا ياجلال)

– (هل تحب أن أكلمه ويأتى لك إلى الفندق صباح باكر ؟)

– (لا ، فعلا لم أصل إلى قرار حاسم)

– (إذن لا تأخذ فلوساً من واحد آخر)

– (ماشى)

– (تعال هذه الليلة نرجع إلى منزلنا يا جلال)

– (وحياتك أنا تعبان)

– (أقول لك تعال وكف عن دلالك)

– (لا وحياتك)

– (إذن كن على اتصال بى)

– (ماشى)

– (تحت أمرك)

– (مع السلامة)

– (فى أمان الله ياجلال)

ويعود ، وأدير رأسى بجانب الباب وأنظر اليه . ويفترق عن الجماعة

السكيرة والمجنونة فى البار ويجلس بمواجهة ليلى التى عادت إلى المنضدة — فى المكان الذى تركته . ويضع جرسونان عدة زجاجات جديدة فوق المنضدة وبضعة أطباق . ويقول عباس حكت على رأس المنضدة شيئا ويضحك الجميع . كلهم سعداء . ينتظرون الساعة الثانية عشرة وحلول لحظة السنة الجديدة والتقبيل والاحتضان والغناء .

وتهب فى شارع سان جاك رياح باردة قارسة لكن الجو صاف . مثل الليلة التى هاجم العراقيون فيها داخل حي ذو الفقارى ومقابر عبدان . نمنا هذه الليلة فى تحصين فى بوارده الشمالية أمام كلية النفط . لدغت عقرب رجل أحد الطلاب طهرت موضح لدغته بالسكين لكنا لم نستطع حتى الصباح الخروج من التحصين . ظل ينتظر حتى الصباح وصول لحظة موته .

على تقاطع شارع وجيرار وشارع سان ميشيل فى سكوت الليل وخلوه فى الشارع ، أسمع صوتا كأنه صوت عربة المصير المفصولة المكبح وهى آتية . تعزف ولولة شكمانها مع أسفلت الشارع الضيف مارشات العزاء . أنظر سيارة (آيودى) زيتونية اللون موديل جديد عليها رقم لافتة ألمانية . أوقفها سائقها بجانب الشارع . يصمت الصوت ويناديني رجل كث الشارب (مسيو ..)

تزعق الدنيا فى ظلمة الليل بأنه إيرانى . أراد (نعم)

– (آه ، أنا فداؤك ! هل سعادة البك إيرانى ؟)

– (أجل يا سيدى . تفضل . السلام عليكم)

– (أخى ، برج إيفل هذا أين مكانه ؟) . على المقـعـد الخلفى جلست امرأة . وثلاثة أطفـال صـغـار . والرجل نحيف القـوام يرتدى بذلة رمادية وملامحة شمالية مقبولة وشعره مجمعد فأرد (برج إيفل من هنا بعيد)

– (علينا أن نجد برج إيفل ميفل هذا الليلة ، ولم يمكنّا) ، كلامه إصرار.

– (ماذا تريدون فى هذا الوقت من الليل من برج إيفل ؟)

فيقـول (المثل يقـول لو كان لدينا الفرصة يقولون لنا فرصتكم على الله . نريد أن نذهب إلى بيت بنت أختى التى قالت إنه على ناصية شارع يواجه برج إيفل . لكننا ضللنا الطريق إليه الليلة)

– (إيفل بعيد عن هنا نسبيا)

– (قالت لنا إن منزلها فى شارع يواجه ميدان برج إيفل . أتينا اليوم من ألمانيـا . لا خـلا ولا عـدم منك . لكن على ناصيـة هذا الشـارع اصطدمت بنا سيارة بيجو بيضاء أرادت سرقتنا ، فدفعتنا نحو جانب الطريق فطلعتنا على الرصيف المقابل وانخلع شكمـان السيارة . من بالله من هو أسوا منا . ألف رحمة على شارع (أسمال بزاز) بطهران . والله أفضل والله ألف رحمة على شارع أسمال بزاز)

– (بهذا الشكمان والضوضاء يمكن أن يعمل لكم البوليس مخالفة دعـونى أحكم الشكمـان بسلك لكم . عندكم سلك ؟) فـيـخـرج ويصافحنى ويقول :

إن اسمه عباس مير محمدى .

– (أين يكون سلك معنا فى هذا الوقت من الليل .. ليلتنا سوداء . جاءت الحزينة تفرح مالقت لها مطرح– الحزينة هى عباس مير محمدى)

ويبكى واحد من أطفاله فى السيارة وتصرخ فيه أمه . وأخلع حزامى وأبدأ فى ربط الشكمان المخلوع من مكانه تحت اكصدام السيارة .

– (معك تليفون بنت أختك ؟ يمكن أن تتصل بها فتأتى وتجدكم)

– (معنا تليفون بنت أختى ، لكن ليس معنا رقمها الكودى)

– (لو أنها فى باريس فلا يلزم الرقم الكودى)

– (والله حتى رقم التليفون ضاع منى . سلمنا جواز سفر المدام لتدبيس صورة إسلامية لها كانت ورقة رقم التليفون بداخله .. ضاعت يا سيدى . والله ما هذا العقاب والمتاعب التى حدثت لنا . فى هامبورج كل الفلوس التى كانت لدينا أنفقت شيئا فشيئا فى تجريش وراحت . قلنا بعد هذا نأتى ونبحث عن بنت أختى هذه)

– (بإمكانى أن أحجز لكم الليلة غرفة فى الفندق الصغير الذى أنزل به ، ويمكن أن يستريح الأولاد حتى الغد حين تسنح الفرصة وتجد بنت أختك) .

– (لا ، فديتك بروحى ، لابد من الذهاب إلى بيت بنت أختى والعثور عليها بأى شكل زوجتى مريضة . فصيلة دمها صعبة الحصول . لا أدرى هل هى O مخفى أو B سالب ... المهم أنها صعبة الحصول. بنت أختى طبيبة يمكنها مساعدتها) .

– (لو كانت دكتورة يمكننى أن أحصل على رقم تليفونها .. ما هو اسمها ؟)

– (عاجز عن شكرك . ولطفك . لن نزعجك . أخى كنا عايشين وكنا مرتاحين كان لنا فى بندر بهلوى شركة ومحل . وكان لنا فى طهران بضع قطع من الأرض . لا أدرى والله كيف حدث ما حدث . ماذا حدث لهؤلاء الناس . على رأى المثل أول ما تنشفهم ينسل غزلهم . من بقى يا سيدى بإيران فى الحقيقة هم والله أسوأ حظا) .

وأنتهى من ربط ماسورة شكمانه وتبقى ثابتة وأنهض وأعطية العنوان كيف يصل من أى طريق إلى الميدان الذى يؤدى إلى ساحة برج إيفل . لكن كأنه أصلا لا يقرأ كما وضح من طريقة أخذه لقصاصة الورق ووضعها فى جيبه . على أى حال أقول يمكن أن يسأل عن العنوان هناك ، لو اقترب إلى المكان .

– (شكرا ، نفسى فداك)

– (طيب ، فى أمان الله)

يصافحنى ويحتضن كل منا الآخر نفس ماكنا نفعله فى عبدان بعد الحرب . ويجلس وراء عجلة القيادة ويتحرك بضوضاء أقل إلى الاتجاه الذى حددته له أو الاتجاه الذى أبقاه له مصيره ويختفى فى نهاية سان ميشيل الشمالية . أريد أن أنادى عليه من خلفه يا بابا لماذا هربت أنت أيضا لكنى أراه . لا يقل عن غالبية البقية .

ربما هذا السيء الحظ أتى هنا بسبب مرض زوجته التى فصيلة دمها «O مخفى» !!

صباح اليوم التالى ، فى باريس صباح عطلة ميتة ، حتى فندق بالما بدوره كأن ليلة رأس السنة أسكرته حتى لم يستطع أن يفيق من نومه إلا قبيل الظهر . لا يزال الجو باردا والسماء مقبوضة . خارج الفندق تقع عيناى على قاسم يزدانى بقامته الطويلة وشعره القصير ولحيته الكثة واقفا يظهر عليه التردد هل يدخل أم لا . ألقى عليه التحية وأصافحه . يبدو أنه أكثر الأولاد الذين يعرفون ثريا وفاء ويقول أنه أتى للاستفسار عن حالة ثريا وهو شاعر بالقلق . أشكره ونخرج سائرين معا حتى ناصية سان ميشيل ، وأبتاع جريدة ، وأضع رسالة فى صندوق بريد بناحية . ثم نتوجه مترجلين إلى المستشفى . فى عينيه فوق القلق نوع من الرجاء والتمنى البرىء لكن ليستا مثل ماسورة شكمان سيارة مير محمدى . يحمل تحت إبطه كتابين ضخمين أولهما كما أتخيل لابد أنه يتصل بدروسه وشغله فى دكتوراه الكيمياء بالجامعة . زاد أكثر اهتمامه هذه الأيام بحالة ثريا ، مع أن هذا الاهتمام فى نظرى ليس بغير قصد . شخصيته بالمقارنة بنوعية الإيرانيين الملتفين حول ليلى آزاده بسيطة وجذابة . واحد من هؤلاء ، ربما يصدقه الإنسان حتى إذا قال أن الأولاد أدوا البارحة فى مسجد باريس دعاء (كميل) ثم وجد نفسه بعد هذا الدعاء حالة من التجرد والشفافية . وبوسط شارع جيلوساك مقهى مفتوح وأمامى حتى دخول المستشفى لا يزال وقت طويل فأقول (ما رأيك فى فنجان من القهوة باللبن يا سيد يزدانى ؟)

– (بكل حب .. لكنك ضيفى)

- (الـــدور على وقد تكرمت على فى المرة السابقـة . ثم إنى الذى طلبت أولا)

- (ميزانيتك الاقتصادية بسبب نفقات ثريا هانم ....)
- (مرتفعة)
- (فعـــلا ؟)
- (لاتقلق عليها)
- (مائة وخمسون أو ستون ألف فرنك مبلغ لا يستهان به)
- (لا ، لكنه سوف يدبر)

وندخل المقهى ونتنحى جانبا ويضع كتابيه على المنضدة وينفخ فى يديه ويفركهما حتى يدفأ . أطلب القهـوة باللبن الفورية ويسألنى يزدانى (سمعت أنك تريد أن تأتى بفلوس من إيران)

- (أطمنك على أن هذه الفكرة انتهت تماما)
- (إذن فكيف تحب دفع مصاريف المستشفى ؟)
- (بطريقة ما فى النهاية ندفعها فى نفس هذا المكان)
- (يمكننى أن أقوم بالخدمة)

وأنظر إليـه (شكرا يا أخى العـزيز . . هذه المشكلة تخصنى وتخص أختى ثـــريا وأنا سوف أحلها بطريقة أو أخرى وأنا واثق أنك بدورك لديك مشاكلك .. كل واحد عنده مايكفيه . وأتمنى ألا تكون تعانى ، على أية حال أنا متشكر)

يصل فنجانا اللبن والقهوة ونبدأ فى ارتشافهما .

– (مدام شارنو كانت تقول إنك بعت خاتمك)

وأضحك (ضاق على أصبعي . بعد إذنك لاتتحدث فى هذا الموضوع)

فيضحك ويقول (ماشى . . ولكن لماذا ! ؟)

– (أنا معجب بك وأحبك . وأنا من أعجب به وأحبه لا أتحدث معه عن الفلوس . ثم أني قدمت طلبا من طرف كلية ثريا لتسديد تكاليف العلاج عن طريق التأمين)

ويطأطىء برأسه الآن ويشرب فنجانه .

(مدام شارنو كانت تقول كانت هناك أيضا إشكالات وتعقيدات بخصوص تأشيرة إقامة ثريا هانم وكانت مدة تأمينها الجامعى قد انتهت)

– (معقدة شيئا .. لكنا سوف نحلها)

– (إن شاء الله ، بالأمل فى الله)

ولكى أخرج فكره عن موضوع الفلوس أسألة (ماذا تقرأ ؟كتب جامعية ؟)

– (لا .. هذا الأول) ويرفع أحد كتابيه الضخمين (بالإنجليزية ، أرسل إلىّ توا من أمريكا Brain : the structure and function بناء المخ ووظيفته . سيادتك تعرف أن علماءهم أخيرا قاموا بخطوات هامة جدا فى هذا المجال)

– (هامة . هل قرأته ؟)

– (لازلت أقرؤه)

– (هل فيه إشارة إلى الكوما ؟)

– (أشير إليها فيه فى بضعة مواضع .. ثلاثة أو أربعة ، حينما يدور البحث فى جانب الوعى بالمخ)

– (أنا نفسى أخذت كتابا صغيرا من أحد الأطباء بعد حادثة سكتتى المخية كنت أقرؤه حين بدأت الحرب . وذلك الكتاب الآخر ما موضوعه ؟)

ويرفع يزدانى الكتاب الثانى (هذا بالفرنسية Psychologie mystique كان عند أحد الأولاد فذهبت صباح اليوم واستردته منه)

– (ما موضوعه علم النفس العرفانى ، أم ماذا ؟)

– (يـــدور حـــول أشياء كثيرة منها علم المعنى ونفس الإنسان .. ويليام جيمس وحده بحثها فى كتابه (التجارب العرفانية) .. لكنها فى الشرق لدينا علماء كثيرون لهذا العلم . مولانا الرومى والعطار وحافظ وغيرهم كثير .. لكن برؤية الأستاذ مطهرى فأول مؤسس لمدرسة العرفان فى الإسلام هو محيى الدين بن عربى أعجوبة عمره لأن محيى الدين كان له يد طولى فى العرفان والرياضيات والحكمة جميعا ، وكان من أهل الرياضة والمجاهدة كذلك)

– (صحيح . ليس به شيء عن المخ ..)

يضحك (لا .. علم معرفة المخ من ناحية بنائه ووظائفه يدخل فى دائرة النشاط العلمى والتكنولوچى العصرى .. لكن الإنسان المفكر اليوم

يصل بين الحين والآخر إلى نقطة ويشعر أن هناك علاقة بين وجود مخ الإنسان ووجود كافة عالم الملكوت واللاهوت .. فى القرن الثامن عشر كان حضرات العلماء يقارنون نظام المخ بعلبة الساعة المسننة وتروسها . بعدهم فى القرن التاسع عشر شبهوه بعمل أسلاك الكهرباء . اليوم فى القرن العشرين يعدونه شبيها بكمبيوتر فى منتهى العظمة والتعقيد يعمل بطريقة إلكترونية وكيميائية . فى القرن الحادى والعشرين يعلم الله بم سوف يشبهونه ؟ لكن السؤال هنا : هل يصل الإنسان فى النهاية إلى نقطة لا يرى فيها غير الله ؟)

– (أعد الشرح يا سيد يزدانى ..)

– (لابد أنك مهتم طبعا بهذه الموضوعات)

– (أنت دائما تثير عجبى)

– (عجبك الحسن أم السيء ؟)

(الحسن .. هل قمت بدراسة هذه الموضوعات عن المخ وعلم النفس وغيرهما من أجل ثريا ؟)

فيقول مبتسما (ثريا هانم كانت الدافع إليهما)

– (وما هو إحساسك بخصوص ثريا ؟)

ويحمر فجأة لونه كالفراولة ، ويحمل فنجانه إلى شفتيه . ويشرب قليلا ويتنفس نفسا آخر . وأخرج علبة سجائرى من جيبى وأخرج منها واحدة لى وأقدم له أخرى .

وينتهز هذه الفرصـة لكيلا يرد على السـؤال . فقط فى النهاية يقول (قضية ثريا هانم يمكن أن تكون إشارة وعطفا إلى أشياء كثيرة رمزية لنا جميعا)

– (أوه .. أى إشارة وعطف ؟)

– (تعلم أن مركز الفكر والوعى فى المخ . وهذا الفكر والوعى بالمعنى دائما يزيدان ويقلان فى قالب المخ أو تتغير أبعادهما . قال سانتياجو رامون كافال عالم المخ والفيلسوف الأوربى مادام مخ الإنسان شيئا مجهولا لدينا فإن كل شىء يمكن أن يعرفه المخ عن المعنى والمفهوم الكلى للحياة سوف يظل مجهولا أيضا . لكن معرفة وظيفة المخ وأبعاد قدرته إذا لم تكن غير ممكنة عن طريق علم التشريح فهى ليست سهلة الوصول . لأن عظمة المخ لا تنحصر فقط فى معرفة تكوينه البيولوچى وعظمة قدرته فى الأعمال المختلفة . مثال ذلك أنه لا يمكن بدقة معرفة عمارة كنيسة سيستين فى «فلورانس !» – التى رسم على سقفها مايكل أنجلو تاريخ الخلق – بتجزىء الطوب وإحصائه ومعرفة الجص والجير . ما استطاعوا أن يفهموه حتى الآن هو أنهم أدركوا أنه يوجد نوع من المقاطع العصبية أو لسان يترجم المفاهيم الخارجية ويتحكم المخ بداخله فى هذه المفاهيم مستفيدا بأشعة تصدر كل جزء من المليار وبذرات تزن الواحدة جراماً من المليار من المواد الكيمائية ، هذا المقطع لا يزال مجهولاً ، لكن ما يؤدى هذه الوظيفة فهى خلايا المخ المسماة بالنورون وعددها ما بين عشرة إلى مائة مليار كما عرفوا أخيرا . لكن كل واحدة من هذه النورونات تتصل عن طريق معابر اتصال بعدد

كبير آخر من النورونات فى الأقسام المختلفة بحيث أن عدد تركيب هذه الخلايا المتصلة يصل كارد يليون يعنى واحد وأمامه خمسة عشر صفرا فى رواية وأربعة وعشرون صفرا فى رواية أخرى .. والآن – إذا تكرمت – هذه النورونات بقول البروفسير ويليام شوماكر كل واحدة منها بنفسها كمبيوتر فى غاية التعقيد وكامل . بعبارة أخرى لو تفضلت بالانتباه فإن مخا متوسط الحجم يحتوى على كارد يليون كمبيوتر معقد وكامل فى المتوسط)

وأصدر صفيرا .

– (من ناحية أخرى ، يجب أن نأخذ فى الحسبان أنه حتى أفضل الكمبيوترات وأكملها التى يمكنها تزويدنا بالمعلومات والقيام بالعمليات الحسابية وتخزين معلومات كثيرة مختلفة فى مكان واحد عن الواقعة وإصدار القرارات تعجز عن أن يكون لها عاطفة مثل مخ الإنسان أو منطق أو تثار من الناحية النفسية ويكون لها أحاسيس والقوة والدافع الخلاقان وأشياء كثيرة كثيرة أخرى .. لكن أفضل من كل شيء وأعلى أنها لا يمكن أن يكون لديها الإيمان .. بينما المخ فضلا عن احتوائه على عدد فلكى من الكمبيوترات يمتلك كل هذه الأشياء التى ذكرتها)

وأصدر صفيراً آخر .

– (ثم نصل الآن موضعين أصليين : الأول موضوع الوعى .. موضوع أن المخ يمكنه الاطلاع بهذه الأبعاد العظيمة لكنها متناهية على أشياء أكبر عظيمة ولا تتناهى . وحدود المعرفة بهذه الأشياء الأعظم التى يمكن أن يصل إليها عن طريق هذا المخ .. بعبارة أخرى لدينا كل

الإجابات فى هذا المخ) ويشير بإصبعه إلى نهاية حاجبه (فقط يجب – أن نحصل – منه – على جزء من المليار وبذرات تزن الواحدة جراما المعرفة!) ويطول سكوته هذه المرة ليسمح لى أن يستقر الموضوع فى ذهنى ...وأشد نفسا عميقا من سيجارتى ، ثم أسألة (طيب وما هو الموضوع الثانى ؟) .

– (الموضوع الأصلى الثانى هو لماذا وعى المخ هذا يتوقف فجأة ، كما حدث لثريا هانم .. بالتأكيد الإجابة السهلة والبيولوچية هى أن مانعا فيزيقيا أخل بالنظام فى داخل عامة المخ أو أن شريان المخ الذى يأتى بالدم إليه تمزق فى موضع ما أو تهتك جزء من نسيج المخ فى ناحية منه .. كأن أورطى القلب مثلا انسد وتسبب فى وقف جريان الدم)

– (ألم يحدث مثل هذا ؟)

– (أقول إن الإجابة المبسطة والبيولوچية يمكن أن تكون بهذا النحو) .

– (كان مارتن يقول أنهم على ثقة تقريبا من أن نقطة صغيرة لكنها مهمة من مخ ثريا – أظنه قال Neucleus basalis تهتكت)

– (نعم ، لكن يمكن أن تكون الإجابة هى أن المخ بإرادة الله قطع صلته بالخارج عن طريق المدير العام لهذا الجهاز)

– (دعنى أفهم – يعنى .. صدر أمر إلى مخ ثريا أن تسقط من على الدراجة ، أو أن بعد سقوطها من على الدراجة صدر أمر بأن تقطع صلة وعيها بالدنيا ، وثريا الآن فى حالة تنفيذ هذه الإرادة ؟)

– (شيء بالضبط من هذا القبيل)

وابتسم وانظر فى ساعتى ، حدود العاشرة فأقول (يا سيد يزدانى العزيز يلزمنى بدلا من كارديليون وصلة نورونية مائة ألف كارديليون حتى أجتذب إلى فهمى هذه العمليات السماوية – الأرضية .. هل تحب فنجانا آخر من القهوة ؟)

– (لا ، شكرا .. لكن حين ذلك ندخل فى أبحاث اليوم وندخل فى علم النفس العرفانى وندخل موضوع الأسرار والرموز الإلهية المطروحة بين الخالق والمخلوقات التى يسلتزم استنباطها أشياء كثيرة)

– (أجل .. الإيمان)

– (وحين يتسلح المخ بقوة الإيمان يعلم الله كم من القوة سوف يحصل عليها) . لم يزل ممسكا عن إجابة سؤالى ، فأقول (على كل حال إذا شاءت إرادة الله أن تشفى ثريا ونرجع جميعا سويا إلى طهران ، فأنا على ثقة من أن أختى سوف تسعد بتصرفك الشهم الذى يفوق المعتاد حين ترى شابا مثلك لم يبخل عن أى معونة لثريا هنا وقدم لها الزهور فى كل يوم طوال فترة إغمائها)

فيقول (عملى الذى لا يذكر كان طمعا فى رضا الله . قلت موضوع تسديد نفقات المستشفى عن طريق الجامعة إلام وصل ؟)

– (كتبنا التماسا ووافق رؤساء الجامعة . وأرسلوه الآن إلى إدارة الجوازات وما يتبعها)

– (هذه التى بآخر سان جرمان بالقرب من ميدان موبريه ؟)

– (لا ، ولكن تلك التى على الجـهـة الأخـرى من سـان جـرمـان بداخل ايل دولا سيتيه)

– (وافقت عليه إدارة البوليس ؟)

– (كـمـا يقـال فى طريقـهـا إلى الموافـقـة . لكن مـشكلة لا تزال موجودة.

يعنى أنهم يستطيعون أن يصنعوا المشاكل)

– (أى مشكلة ؟)

– (كـانت دراسـة ثريا انتـهت من ثلاثة شـهـور ، ولما بدأت الحرب وأقفلت المطارات وكانت موجودة هنا وتأشيرة إقامتها انتهت ، ولم تكلف نفسها أن تذهب لتمدها)

– (فى مثل هذه الحالات يصعبون الأمور على الإيرانيين)

– (لكنى أخـذت بينى وبين نفـسى عـهـدا ألا يرسل لى فلوس من إيران .. يوجد قدر من ذهب ثريا نفسها .. بقى بعد زواجها ، يمكننى أن أبيعه هنا وأدفع تكاليف المستشفى)

ويقـول قـاسم يزدانى (بإمكانى بكلمـة للأولاد أن أجـمع لك القـدر المطلوب)

فأشكره كثيرا (يا أخى أغلب الأولاد هنا فى حالة يرثى لها)

– (هؤلاء أنفسهم يؤثرون على أنفسهم)

– (أوه ، أنا واثق .. وأشكرك يا سيد يزدانى)

– (تحت أمرك يا أخى)

وفى المستشفى لا تزال ثريا فى قسم الرعاية المركزة . ولا يسمحون لى ولقاسم يزدانى بالدخول ولا أجد من أعرفه من بين الموظفين لأسأله هل أجروا لثريا كشف الإلكتروترابى على القلب . قالوا لم يأت الدكتور مارتن صباح اليوم لكن الدكتور مونيه رأى ثريا فى الثامنة . فأسألهم عن موعد عودة الدكتـــور مونيـه المفـــروض أن يعـــود الثانيـــة عشـرة والنصف . ونخرج من المستشفى على أساس أن نعود إلى المستشفى حدود الثانية عشرة ويودع كل منا الآخر أمام بـــوابـة المسـتشفى . فيقول قاسم يزدانى .

– هل تعلم ..... قال مرة آية الله الطالقانى إنه إذا توفر الإيمان أصبح كل شىء ممكناً كل شىء) .

– (الإيمان هو الشىء الذى أراه نادرا هنا)

– (كن مؤمنا تنصلح الأحوال)

– (أنا واثق أنك تقول هذا الكلام أيضا بدافع الإيمان)

– (حسنا ، رعاك الله)

– (بسلامة الله ، ياسيد يزدانى)

– (حضرتك سوف تشرف هنا فى العصر ؟)

– (لابد أن أكون هنا)

– (فى أمان الله) .

بمواجهة البوابة الحديدية للضلع الشرقى من المستشفى أرى سيارة فورد ألمانية حمراء تتوقف وواحدا يشير إلى بهزه يده من داخلها . لا أتبين وجهه الأبيض من خلف نظارته الغمقاء المستديرة وتحت قبعة من جلد الحملان سوداء تدلت على جانب منه . يرتدى أيضا معطفا جلديا أسود . أتقدم نحوه فإذا هى ليلى .

– (السيدة آزاده !)

تقول (أصرخ وأقول لك صباح الخير !)

– (ماذا حدث ؟)

– (Selles !!) – شئ يجنن)

– (أين أنت فى هذا المكان ؟ !)

– (رأسى .. تنفلق) نظارتها الغامقة الواسعة الاستدارة عجيبة . لها عدستان كبيرتان جدا غامقتا اللون ، لكن بوسطها عدستين بدون لون مربعتين بحيث تبدو من الظاهر نظارتين مزدوجتين إحداها فوق الأخرى . كأنها مثل الكائنات العلمية الخيالية الفضائية التى هبطت من المجرات والأكوان والعوالم الأخرى وأتت من أزمان سحيقة جدا .

أسالها (ألم تنامى الليلة الماضية حتى الآن ؟)

– (من أين عرفت ؟ عرفت من عينى ؟)

– (ولا يزال تحت معطفك ذلك القميص الأصفر المزهر الذى ارتديته البارحة ؟)

وتفتح باب السيارة المواجهة لى وتأمرنى Venez ici تعال هنا !!)
وأدخل السيارة وأجلس بجوارها . لهجتها ثائرة كذلك

– (أخفتينى . !)

– (كيف حال ثريا ؟)

– (لاتزال فى قسم الرعاية المركزة)

– (من كان ذلك الذى يتحدث معك ؟ ذلك الملتحى المرتدى معطفا شبه عسكرى ؟)

– (ولد طيب . من أصدقاء ثريا . كنا نتحدث حول علم النفس العرفانى)

– (ماذا يا جلال ؟)

– (أنت نفسك سألت من الذى كان يتحدث معك ؟)

– (أين تذهب ؟)

– (ليس إلى مكان محدد) ثم أقول (يجب أن أعود الثانية عشرة) ثم تقول (رأسى !) فى تلك اللحظة تخيفنى فعلا . يأتى إلى فكرى لعلها شربت شيئا أو فعلت فعلا ولا يزال أثره حتى الآن .

أقول لها (تقدمى أبعد للأمام إلى ناصية شارع (أولم) إذا أحببت وتوقفى فى أى مكان . وننزل ونشرب قهوة)

– (لا .. أستطيع !)

– (لماذا يا ليلى ؟)

– (أريد أن أموت)

– (ليلى آزاده هانم !)

– (أقفل باب السيارة)

وأقفل الباب وتدير المفتاح بدون أن تكون رجلها على الدبرياج . الموتور (معشق) داخل ترس السرعة فتقوم السيارة بدفعة سيئة وتسكتها . ويسقط المفتاح فى دواسة السيارة (آه ، فى داهية !) وترتعش يداها . أنحنى والتقط مجموعة المفاتيح وأعطيها لها . وحين يواجه وجهى وجهها يصدر منها أشعاعات التوباكو والكحولات الأثيرية الشديدة . فارقتها حالة السعادة والضحك والثرثرة أو الجنون تقريبا التى كانت بالبارحة . حل محلها اليوم حالة المرارة والذهول والانكسار . ربما هذا أكثر خطرا أيضا .

واسألها لمجرد الحديث (هل ذهبت إلى الفندق ؟)

– (اتصلت بالتليفون قالوا إنك خرجت فجئت هنا)

– (أين تحبين التوجه ؟)

– (أريد الذهاب إلى شقة برى)

– (ماشى)

– (Feu .. !)

– (خير ، ماذا حدث)

« ... ! Selles » هذا السباب كان ضمن معجم ألفاظ مدامازيل آدل فرانسوا . تضع عصا تروس السيارة فى وضع الأمان . ثم تدير المفتاح ثانية .

هذه المرة يدور الموتور . تديره مرة أخرى . لايدور . تمر من جانبنا عربة البوليس السيتروين المختلط لونها بياضا وزرقة .

تقول (جلال هل يمكنك أن تسوق هذه السيارة الطيارة ؟ !)

(نعم)

وأقوم وأفتح الباب ناحية عجلة القيادة ، وتنزلق ليلى وهى بداخل السيارة من أمام المقعد خلف عجلة القيادة . وأجلس وأدير السيارة بالاستعانة بالبوجيهات . ترس السرعة ثابت . أترك الموتور يعمل بدون أن نتحرك ويلين واسحب المكبح اليدوى . أحمل فى جيبى رخصة قيادة دولية انقضت مدتها ، لا أهتم بها اليوم . أقول لكن اطمئنها (لدى رخصة دولية ، صادرة من قبل الميلاد)

– (لا يهمنى !)

– (إلى أين نذهب ؟)

– (باسى – رقم ٣٧)

– (على الشط الآخر للنهر ، أليس كذلك ؟)

– (امش فى شارع راسباى ، واتجه مباشرة للأمام ومر فوق كوبرى الكنكورد وسأقول لك بعد هذا أين تلف)

– (مبارك . إذن أنا مساعد طيار مرشد . وأنا أيضا تشارلز ليندبرج)

– (ماشى)

عقرب بنزينها على الصفر . والموتور يشحط أيضا وغير منتظم . أوقف الموتور وأخرج أرفع كبود السيارة وأفحص زيت الموتور وماء الرادياتير .

وأرى أيضا الشمع والدينامو والمارشادين . الزيت فيها قليل ، ويتسرب الزيت من أعلى السلندرات . الرادياتير ليس فيه ماء . الشموع متسخة . لابد من تنظيف كل من الدينامو والمارشادين . سير المروحة مفكوك أيضا . البطارية كذلك السائل الحمضى فيها منخفض ، وتجمعت الأملاح فوق كلبساتها الموجبة والسلبية .

أترك الكبود وأعود إلى داخل السيارة وأديرها .

وتسألنى ليلى (كيف حالها)

– (ممتازة !)

– (فاضحة !)

– (كيف أتيت بها ياصبية ؟ !)

– (حالتها كثيرة السوء !)

– (تحتاجين بنزينا وماء وزيتا على جناح السرعة . فقط شمعها لاينير، مولدها لا يولد ، رادياتيرها لا يعمل ، كاربيراتيرها عطلان . بطاريتها أيضا منخفضة لا توصل كهرباء . حالتها ممتازة باستثناء هذا)

– (يجب أن نتركها هنا ونواصل بالتاكسى . وغداً أرسل لها ميكانيكيا ؟)

– (س س س ، لا تتعجلى ، ندفعها إلى أول محطة بنزين) .

وأدفع أمامى السيارة بأى شكل . الشارع خال وأزجها بسهولة من مونبارناس حتى بداية شارع راسباى .

– (لعلكم بليلة الأمس زودتم من الحب والرقص ؟)

– (كانت ليلة قاسية !)

– (حكمت ذهب إلى شقتكم ؟)

– (نعم ، هناك)

– (ظللتم هناك إلى متى ؟)

– (بكر جان إدمون بالانصراف ، الباقى ظلوا حتى الثالثة ، الثالثة والنصف) ونسكت برهة ، ثم تقول (هل تعلم أننى موجودة هنا من سنوات كثيرة ولم أكن أعلم أن الناس فى منازلهم تيلفونات سويتشية)

– (تليفون سويتشى ، ما هذه التقليعة هى الأخرى ؟)

– (دارت من الساعة الرابعة صباحا حتى الآن مناقشة لى مع نظام التليفون الفرنسى هى : صباح الخير يا مدام ! صباح الخير يا مدام ، يوم سعيد يا مدام . صباح الخير يا مدام . يعنى لم أكن أعلم أنهم يمكنهم تحويل السويتش فلا يدق جرس التليفون)

– (وكيف وصلت إلى هذا الاكتشاف العظيم ؟)

– (ضربت الجرس ، وضربت الجرس ثانية .. وبعد أن ضربته ألف مرة استفسرت من السنترال فقالوا أن التليفون شغال لكنهم حولوا السويتش)

– (آها . هنا محطة Esso ststion service .. وخالية أيضا)

وندخل ، وتقول ليلى (دعنى أذهب)

– (إجلسى مستريحة ، قولى فقط ما هو مفتاح تنك البنزين)

– (على شرط أن تدفع له النفقات من حقيبتى ، فاهم ؟)

– (ماشى) وترينى مجموعة المفاتيح . (ما هو مفتاح الخزان ؟)

– (هو ذلك)

فى (محطة الخدمة) ليس أحد سوانا . بها نحو اثنتى عشرة مضخة وجاراج صغير لتغيير الزيت وضخ الهواء . يقدم المساعدة شاب يرتدى زيا أبيض اللون واحدا ونملأ أولا خزان الوقود . ثم نزود السيارة بالماء والزيت وزيت المكبح والدبرياج وسائل البطارية والضرورات الأخرى . تكاليف كل هذا ثلاثمائة وعشرون فرنكا .

أدفع اليه من حقيبة ليلى وكان بها ما يقرب من سبعة عشر أو ثمانية عشر ألف فرنكا نقدا وثلاثة أو أربعة كروت رصيد مالى .

وحين أعود لدخول السيارة كان النوم غلب ليلى . وأدير السيارة وأقودها . وتتعلق وهى بين النوم واليقظة بذراع معطفى الواقى من المطر وتتنفس بارتياح (كم يكون كل شىء سهلا معك !)

– (أنا سهل . نسير حتى آخر راسباى ؟)

– (نعم . لم تكن بعض أوقاتى سهلة)

– (أنا نفسى سهل)

وتتنفس نفسا طويلا آخر وتنطوى على نفسها . سكنت أكثر حالتها العصبية ، خفت رنة صوتها . يفضى شارع راسباى إلى شارع سان جرمان، ونتقدم صامتين برهة . لايبعد الكوبرى كثيرا .

تسألنى (لماذا لا تحب أن تبقى هنا وتجعل منى امرأة طيبة كما يقال!)

وأدير رأسى وأنظر مطرقا إلى وجهها .

– (ها ، لماذا ؟)

أقول (ممكن)

– (ولم لا ؟)

– (ليلى أنت تعرفين عواطفى بالنسبة لك)

– (ألا تريد ؟)

– (تناقشنا فى هذا الموضوع قبل الآن بسنوات . إعتقدت أنك أنت لم تريدى)

– (كانت هذه السنوات من زمان)

– (لم يتغير شىء قط)

– (قل لماذا لا تريد ؟)

– (أنا لم أقل لا أريد)

– (قلت مكن)

– (ألا تريدين أن يصنع حكمت منك إمرأة صالحة الآن ؟)

– (إنه فقط فتننى بهالة اسمه وشهرته)

– (طيب أى شىء فِىّ فتنك ؟)

– (أنت شىء مختلف)

– (أنت فعلا تحتاج إلى إمرأة وزوجة)

– (مثلك ؟)

– (مثل كل إمرأة وزوجة)

– (أنا أولا احتاج إلى زوجة وثانيا أنا إنسان تعود على المضادات الحيوية فى مرضه) تضحك (لست بهذه الدرجة من السوء)

– (لا ...بل أسوأ)

ترسل الشمس أشعتها من بين السحب المرتفعة فوق النهر ، لكن الهواء بارد ، تهز الريح أغصان الأشجار الجافة والعارية – ليلى آزاده الآن أكثر راحة ، لكنها لا تزال تبدو للنظر مريضة نوعا ما وبعيدة عن الواقع .

تقول (كلامك صحيح ، لو كنت تزوجتنى ما أحببتك اليوم بهذا الشكل)

حين تتفوه بهذه الألفاظ كأنها تقول لو كنت اشتريت هذا الحذاء العنابى لناسب حقيبتى القرطمية اللون أو لقلّ وزنه كيلو جرامين .

– (هل هذا كوبرى كنكورد ؟)

– (نعم ، لكن لف ، لف يسارا)

– (قلت أصعد الكوبرى)

– (لا ، لا تصعده ، تغيرت الخطة ، در يسارا هنا وسر بموازاة النهر، صوب شارع نيوريوك ، فجزء منه له اتجاه واحد ، وأعبر من فوق الكوبرى الثالث ، كوبرى ألما)

– (الكوبرى الثالث ، واثقة ؟)

– (نعم ، حينما تعبره ، لف يمينا مباشرة ، لا ، لف شمالا)

– (لف شمالا مرة أخرى ؟)

– (نعم ، شارع نيويورك ، ثم يليه شارع الرئيس كنيدى)

– (نيويورك ثم يليه شارع كنيدى)

– (بعده ، أول شارع على يدك الشمال)

– (أول شارع على يدك الشمال)

– (ل ... لا تضايقنى)

– (ما شى)

– (هل ترى هذه العمارة العالية ؟ مبنى الإذاعة الفرنسية ، جان إدمون منزله فى تلك الناحية الأبعد فى شارع فيكتور هوجو)

– (وهذا أيضا ، ما شى) جان إدمون الملعون .

وفى أحد المواضع شارعه باتجاه واحد وسرت فورا بموازاته حين تقول ليلى بعد ذلك فى أحد الأماكن (هنا)

عمارة متعددة الطوابق على شكل الأسطوانة ، طويلة ، فى منتهى العصرية ، فى الظاهر كأنها أبراج القرن الثانى عشر العالية ، لكن بخرسانة مدعمة بالحنيات الهلالية وبأبواب ونوافذ استيل وبروفيل ، لا يمكن أن يصدق بها عقل ، لكن بما أنها فى باريس ، فلا شىء لا يمكن تصديقه .

لا تزال ليلى آزاده فى حالتها المكتئبة .

– (هنا منزل برى ؟)

– (الدور الثالث)